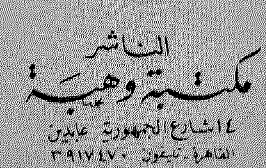
خطب الشيخ القرضاوى

دكتور يوسف القرضاوى

إعداد
الشيخ خالد السعد

الجزء الأول







خطب الشيخ القرضاوي

(١)



دكتور يوسف القرضاوي

خطب الشيخ القرضاوي

الجزء الأول

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور / يوسف القرضاوى

الحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات ، الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على إمام الدعاة ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بسنته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يوفقه إلى توظيف مواهبه وقدراته فى نصرة الحق ، لا فى تأييد الباطل ، وفى سبيل الله لا فى سبيل الطاغوت ، وإنى لأحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، على أن وظفنى منذ بدء الشباب فى خدمة دينه ، ونصرة دعوته ، وتبليغ رسالته إلى خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن .

فمنذ أن أتممت السابعة عشرة من عمرى ، وأنا أعتلى المنبر لخطبة الجمعة ، ودعوة الناس إلى الله تعالى ، ولا زلت أذكر أول خطبة خطبتها فى (جامع المتولى) بقريتنا (صفط تراب) وأنا فى السنة الرابعة من القسم الابتدائى بمعهد طنطا ، كان موضوعها (الشكر) لله سبحانه على نعمائه ، وقد استقبلها أهل البلدة استقبالاً حسناً ، بل ممتازاً ، وكانت موضع إعجابهم وثنائهم وحديث المجالس بينهم ، ولا سيما الأزهريين [1] .

---

(١) أما أول درس دينى لى ألقيته على الناس ، فقد سبق الخطبة بنحو سنة ، وذلك فى شهر رمضان ، حين تأخر العالم الموكول إليه درس العصر ، وهو الشيخ عبد المطلب البتّة - حفظه الله - عن حضور الدرس ، وتلفت الناس يميناً وشمالاً ، فوجدونى ، فقالوا : ما قولك يا شيخ يوسف فى أن تجلس وتقول لنا كلمتين مما تعلمت فى الأزهر ، وقد كان ، وفى الدرس تلقيت أسئلة وأجبت عنها بتوفيق الله إجابات رضى الناس عنها ، وتحدثوا بها ، ولله الحمد .

فقد وجدوا فى هذه الخطبة نمطًا جديدًا ، فى المضمون وفى طريقة التناول والاستدلال ، والعرض والأداء ، ولم تكن تقليدًا لأحد ، بل كانت نسج وحدها .

كان هذا الاستقبال مشجعاً لى على التكرار والاستمرار كلما وجدت الفرصة سانحة فى القرية ، أو فى غيرها ، وخصوصًا بعد أن انضممت إلى جماعة الإخوان المسلمين فى طنطا ، واعتبرونى داعية من دعاتهم وغدوا يبعثون بى إلى القرى والمدن فى أنحاء (مديرية الغربية) التى كانت تشمل فى ذلك الوقت ما يعرف الآن بـ(محافظة الغربية) (محافظة كفر الشيخ) وأكثر محافظة دمياط ، وبعض محافظة الدقهلية .

وفى سنة ١٩٥١ م عملت خطيبًا منتظمًا فى (مسجد آل طه) بمدينة المحلة الكبرى، المدينة الصناعية العمالية الشهيرة ، وقد كان الناس يؤمون المسجد بالآلاف، ويصلّون فى الشوارع ، مما دفع أصحاب المسجد - جزاهم الله خيرًا - أن يبنوا بجواره ملحقًا من عدة طوابق ، يسع أضعاف ما يسع المسجد الأصلى .

وكا أحد إخوانى وتلاميذى المخلصين - وهو الأديب الشاعر الداعية الأستاذ محمد حوطر - يسجل هذه الخطب بقلمه ، وكان له طريقة خاصة فى الاختزال ، يسوّدها بقلمه أو بأقلامه الرصاص ، أثناء الخطبة ، ثم يبيضها فى المساء قبل أن ينسى.

وقد تجمع لدىّ عدد من الخطب لا بأس به ، اقترح الأصدقاء أن أنشرها وأخرجها للناس فى صورة كتاب أو ديوان ، قد يكون فيه ما ينفع الناس ، ويحتذيه الخطباء الناشئون ، وفعلاً أعددت مجموعة منتقاة من الخطب ، بعد أن هذبتها ونقحتها ، وسميتها « نفحات الجمعة » .

ولكن شاء الله أن يذهب هذا الديوان مع ما ذهب عند حل جماعة الإخوان - الحل الأول فى عهد الثورة - فى يناير ١٩٥٤ م وذهبت معه فكرة جمع الخطب ، حتى بعد أن عينت خطيبًا بجامع الزمالك سنة ١٩٥٦ م فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر ، وشعور المسئولين بشدة الحاجة إلى خطباء مرموقين يقوون الروح المعنوية لدى الشعب ، ويشعلون جذوة الحماسة فى صدره ، فرغبت إلىّ وزارة الأوقاف

ووزيرها الشيخ أحمد حسن الباقورى ، ومعه شيوخنا : البهى الخولى ، ومحمد الغزالى ، وسيد سابق - أن أتولى الخطابة فى هذا المسجد الذى كان يخطب فيه الشيخ الغزالى ، ثم نقل إلى منبر الأزهر .

وظللت نحو سنة ونصف أخطب فى مسجد الزمالك ، وأعقد ندوة بعد الصلاة للرد على أسئلة المصلين فيما يتعلق بأمور دينهم .

ولم يفكر أحد فى جمع هذه الخطب ، لسبب بسيط ، هو أن هذه الخطب كانت مرتجلة ، ولا يوجد من يكتبها مثل الأخ حوطر ، ولا من يسجلها على شريط ، فقد كان التسجيل الصوتى فى ذلك الوقت أمرًا نادرًا ومكلفًا .

وحينما قدمت إلى الدوحة فى سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م معارًا من الأزهر ، ظننت فى أول الأمر أنى سأنزوى متفرغًا للكتابة ، تاركًا لغيرى الخطب والدروس والمحاضرات ، ثم تبين لى أنى كنت واهمًا ، فسرعان ما اختلطت بالمجتمع القطرى، الذى دفعنى إلى ممارسة مهنتى ورسالتى القديمة : الخطابة والدروس ، فأما الخطب فلم تكن منتظمة ، إلا حينما أتسلم مسجدًا لفترة من الزمن ، وأما الدروس فكانت تنتظم فى رمضان ، بعد العصر فى مسجد الشيخ خليفة بن حمد ولى العهد، ثم أمير البلاد بعد ذلك ، وفى التراويح فى المسجد الذى أصلى فيه ، وقد انتقلت من مسجد إلى آخر ، حتى استقر بى المقام منذ نحو عشرين عامًا فى مسجد الشيوخ الكبير .

إنما انتظمت فى الخطابة منذ أنشىء مسجد أبى بكر الصديق بالدوحة ، وأسند إلى خطبة الجمعة به ، ثم أنشىء مسجد عمر بن الخطاب ، فنقلت إليه ، وغدا هو المسجد الذى تذاع منه خطبة الجمعة فى التلفاز على الهواء .

ومنذ انتظامى فى الخطابة بالدوحة ، وبعض الإخوة يسجلون هذه الخطب ، بعضها على أشرطة (الكاسيت) وبعضها على (الفيديو) .

أما دروس رمضان عصرًا وعشاء لمدة ثلاث وثلاثين سنة ، فقد سجل منها أعداد كبيرة ، بعضها كان عندى ، ثم اكتشفت منذ سنوات أنها قد أصابها البلى والتلف ، لأنها لم تحفظ بطريقة صحيحة .

وهناك إخوة كرام سجلوا كثيرًا من الخطب والمحاضرات فى بلاد شتى ، وفى إذاعة قطر (حديث الغروب) فى شهر رمضان لمدة خمس سنوات ، وبرنامج (نور وهداية) لمدة بضعة عشر عامًا .

أما تليفزيون قطر فيوجد فيه برنامج (هدى الإسلام) الذى بدأ منذ أن بدأ التليفزيون وإلى اليوم ، وهو أجوبة عن أسئلة المواطنين فى شئون الدين والحياة ، كما يوجد فيه أحاديث برنامج (من مشكاة النبوة) حديث العصر فى رمضان لمدة خمسة أعوام ، وقد شرع أخ كريم فى تسجيلها وتفريغها بغية نشرها .

ومنذ عدة سنوات وكثير من الإخوة يطلب منى تفريغ خطبى لتطبع ويستفيد منها الناس ، فيما يرون ، ومنهم الأخ الأستاذ قطب عبد الحميد قطب الذى أخرج خطب شيخنا الغزالى ، وكنت مترددًا فى أول الأمر ، لأن الكلام المرتجل له طبيعته وأسلوبه الخاص ، فإذا كتب ربما فقد تأثيره وحرارته .

ثم شرح الله صدرى لذلك ، عندما عرض علىّ الأخ الفاضل ، والشاب العالم الصاعد الواعد : الأستاذ خالد خليفة السعد من دولة البحرين هذه الفكرة ، وشفعها بأن أرسل إلى بعض النماذج التى فرغها وعلق عليها وخرج أحاديثها باختصار ، إلا القليل مما لم يعرف مظانه ، فطلب منى أن أخرجه ، كما طلب إلى مراجعة هذه الخطب وملء بعض الفجوات مما يكون قد تآكل من الشريط وإقرارها فى صورتها النهائية .

وقد عرفت من الأخ خالد ولمست : أنه مستمع ممتاز لخطبى ، وقارىء ممتاز لكتبى، وأنه متتبع جيد للكثير الكثير من محاضراتى المسجلة ، ومقالاتى المنشورة ، وهذا كله رجح عندى قيامه بهذا العمل ، فهو أهل لهذا الأمر لأكثر من سبب : أهلته له دراسته الشرعية ، فهو يعد الآن للماجستير فى الكلية الزيتونية فى تونس ، وأهله له شغفه بالعلم والقراءة ، وأهله له اشتغاله بالدعوة إلى الله ، فهو يخطب ويدرس فى أحد مساجد البحرين ، كما أهله أمر آخر هو حبه لصاحب هذه الخطب وتعلقه به ، أسأل الله أن يجعلنى خليقًا بهذه العواطف النبيلة .

ولا أريد أن أتحدث عن هذه الخطب ، بل أدعها تقدم نفسها للقارىء ، وحسبى

أن أقول : إنها قطعة من نفسى ، معبرة عن فكرى ومشاعرى ، موصولة بكتاب الله، وسنة رسوله الكريم ، وتراث هذه الأمة العظيم ، وأبطالها الغر الميامين فى شتى أدوار التاريخ : أبطال العلم والفكر ، وأبطال العمل والتقوى ، وأبطال الإصلاح والتجديد ، وأبطال الجهاد والكفاح ، كما أنها موصولة بواقع العالم عامة، وواقع العالم الإسلامى اليوم خاصة : بآلامه وآماله ، بما يعانيه من كيد أعدائه، وجهل أبنائه ، وعجز علمائه ، وسرف أغنيائه ، وضياع فقرائه ، وفساد أمرائه ، وما يجاور ذلك من مبشرات تتمثل فى هذه الصحوة الإسلامية الشاملة ، والبعث الإسلامى الكبير ، الذى جدد العقول بالعلم ، وجدد القلوب بالإيمان ، وجدد الحياة بالجهاد والتضحية فى سبيل الله ، وهيأ أجيالاً تعمل بالإسلام وتعمل للإسلام ، وتدعو إلى الإسلام عقيدة وشريعة ، ودينًا ودولة ، وتعتبر المسلمين أينما كانوا أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم .

إن المسجد فى الإسلام له رسالة أساسية فى الحياة الإسلامية ، فهو يقوم بمهمة كبيرة : دعوية وتثقيفية وتربوية ، ولكن روح المسجد هو إمامه وخطيبه ، الذى يمكن أن يوقظ الناس وأن ينوّمهم ، يمكن أن ينهض بهم وأن يخدرهم ، وذلك بحسب ما يقدم لهم فى خطبه ودروسه ، فإذا قدم لهم الدين : عقيدة سليمة ، وعبادة خالصة، وأخلاقًا فاضلة ، وآدابًا سامية ، وأعمالاً صالحة ، وتشريعات عادلة ، وعلومًا نافعة، وفنونًا راقية ، وحضارة متوازنة ، معبرًا عن أفكاره بأسلوب بيّن ، وشرحه شرحًا يقنع العقل ، ويستميل القلب ، ويحرك الإرادة ، جامعًا بين الأصالة والمعاصرة ، معتمدًا على المصادر الموثقة ، بعيدًا عن إسرائيليات التفسير ، ومنكرات الحديث وموضوعاته ، وخرافات العوام ، وأوهام الخواص ، متحريًا منهج الاعتدال والوسطية فى تناوله للقضايا ، بمعزل عن غلو الغالين ، وتفريط المتسيبين . . إذا فعل ذلك كان فى عداد المصلحين المخلصين ، والموقظين النافعين ، والعلماء الربانيين ، وقليل ما هم .

أما إذا قدم الدين على عكس هذه الصورة فإن إثمه أكبر من نفعه ، وهو يهدم أكثر مما يشيد ، ويضر أكثر مما يفيد ، وهو - للأسف - ما يصنعه كثيرون من الخطباء الذين تضج منهم المنابر ، وتشكو المساجد .

إن المسجد إذا قام برسالته كما ينبغى ، يستطيع أن يحدث انقلابًا سلميًا فى حياة المسلمين ، حين يوعيهم بواجبهم ، ويعايشهم فى همومهم ، وينبههم على نقاط ضعفهم ليقووها ، وعلى ثغرات حياتهم ليجتهدوا أن يسدوها ، فهو يفقههم بحقائق دينهم ، ويرقيهم فى أمر دنياهم .

والمطلوب من الخطيب هنا أن يقوم بهذه الرسالة العظيمة فى غاية من الرفق والحكمة ، حتى لا يتنبه له محترفو السياسة فيحسوا أن فى هذه التوعية المستمرة ، والتوجيه القوى الدائم ، خطرًا على كراسيهم وعلى سرفهم وترفهم وانحرافهم على نهج الإسلام السوى ، فيعملوا على إبعاده عن منبره ، وإسكات صوت كان ينطق بالحق، ويدوى بالخير ، ويدعو إلى العدل وإلى صراط مستقيم .

لقد شعر رجال التنصير فى أوائل هذه القرن (العشرين الميلادى) فى مصر بأهمية خطبة الجمعة ولقاء الجمعة ، فكتب أحد قادتهم فى تقرير له قال فى ختامه ما معناه: إن الإسلام سيظل صخرة عاتية ، تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحى ، ما دام للإسلام هذه الركائز الأربع : القرآن ... والأزهر ... واجتماع الجمعة الأسبوعى... ومؤتمر الحج السنوى .

ولذا حاولوا إضعاف تأثير هذه الأربع بأساليب شتى لا يتسع المقام لذكرها هنا .

فلابد للخطباء أن يدركوا منزلتهم وأهميتهم فى المجتمع المسلم ، وإن لم يأخذوا حقوقهم المادية كما يجب ، فهذا جزء من الخطة المرسومة .

ونصيحتى لأبنائى وإخوانى الخطباء أن يجددوا معلوماتهم باستمرار ، وأن يظلوا يقرأون ، كما كان السلف يفعلون ، فليس هناك وقت يقف فيه المرء عن القراءة ، فالعلم بحر لا ساحل له ولا قرار ، والله تعالى يقول لرسوله :﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (1) .

فلا بد للخطيب الذى يواجه الناس كل أسبوع أن يقرأ ويستزيد ويستنير ، حتى لا يكرر نفسه ، ويمل سامعيه ، ولا بد له من أن ينوع قراءاته ، ما بين دينية وأدبية وتاريخية وإنسانية وغير ذلك من أنواع الثقافات التى ذكرتها فى كتابى (ثقافة الداعية).

---

(1) طه : ١١٤

ولابد له قبل ذلك من أن يجرد نيته لله تعالى ، وأن يجاهد نفسه للتخلص من حظوظها فى حب الظهور ومراءاة الناس ، فإن الناس لن يغنوا عنه من الله شيئًا ، وليجعل شعاره : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

فهذا الإخلاص هو الذى يجعل لكلامه حرارة ، ويمنحه قوة التأثير فى الآخرين ، فقد قيل : إن الكلام إذا خرج من القلب دخل إلى القلوب ، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الآذان ، وفى هذا قيل : ليست النائحة كالثكلى !

وينبغى للخطيب أن يكون على سجيته ، لا يتكلف أن يقلد غيره ، وأن يكون نسخة من فلان أو علان من الناس ، حتى لا يفقد أصالته ، على أنه لن يكون مثل الأصل الذى يقلده مهما حاول .

وينبغى للخطيب أن يحترم المنبر الذى وقف عليه رسول الله - ﷺ - فلا يستخدمه فى غير أهداف الدين ، وتوعية المسلمين ، وتجميع صفوفهم على الهدى ، وكلمتهم على التقى ، وقلوبهم على المحبة ، ونياتهم على الصدق ، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل ، كما ينبغى له أن يتجنب إثارة المسائل الفرعية الخلافية ، التى من شأنها أن تفرق الجماعات ، وتنشىء الحزازات ، وتزيد الأمة انقسامًا ، وأن يتناول ذلك عند الحاجة فى دروسه بعلم وموضوعية وروح أخوية بناءة .

كما ينبغى للخطيب أن يكون كلامه صورة لنفسه ، ومعبرًا عن سلوكه ، وألا يدعو الناس إلى شىء ، يعمل هو بضده ، وينهاهم عن أمر هو متورط فيه ، فيقول له الناس فى قرارة أنفسهم ، وربما بألسنتهم : يا طبيب داو نفسك أولاً .

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا ... إذ عبت منهم أمورًا أنت تأتيها

تعيب دنيا وناسًا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

والله تعالى يقول فى كتابه الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[2] وقال لبنى إسرائيل : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3].

---

(١) الأنعام : ١٦٢ (٢) الصف : ٢ ، ٣ (٣) البقرة : ٤٤

ثم على الخطيب أن يكون دائم الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل ، موصول الحبال بربه ، يسأله سبحانه أن يسدد لسانه ، ويثبت قدمه ، ويرزقه التوفيق والعون من عنده عز وجل ، فما التوفيق إلا بالله ، وما العون إلا من الله ، ورحم الله الشاعر الذى قال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهـــاده !

شكر الله للأخ المحب الحبيب خالد السعد ، جهده وسعيه ، وجزاه عنى وعن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى عباده الذين يعلمون فيعملون ، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون . آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د . يوسف القرضاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ : خالد السعد

أحمد الله تعالى على نعمه التى لا تُعدّ ، وآلائه التى لا تُحصى ، وأصلّى وأسلّم على معلّم النّاس الخير ، سيّدنا ونبيّنا محمّد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى من اتّبعهم بإحسان إلى يوم الدين (وبعد) .

فلا أجد نفسى فى حاجة إلى أن أعرّف بصاحب هذه الخطب : سماحة أستاذنا العلاّمة ، الفقيه الجليل ، إمام العصر ، الدكتور الشيخ يوسف بن عبد الله القرضاوىّ حفظه الله ورعاه ، فهو فى غنى عن التعريف والتنويه ، فقد سارت بذكر علمه الركبان ، ولم يعد بلد من بلدان الإسلام إلاّ واطّلع على فقهه وتتلمذ عليه ، وله فى كلّ بلد تلاميذ ، وفى كلّ قطر مريدون .

ويعدّ سماحته واحداً من أبرز رموز الدعوة الإسلاميّة فى العصر الحديث ، وتمثّل قضايا الصحوة وسبل ترشيدها ، هاجسه الدائم ، وشغله الشاغل ، وله فى هذا الميدان جهود جبّارة ، ومساهمات ملموسة ، لا ينكرها إلاّ جاحد أو حاسد أو مكابر .

وسماحة الشيخ القرضاوى فى طليعة الخطباء المرموقين والموهوبين ، الذين اشتهروا بخطبهم منذ سنوات طويلة ، لا على مستوى قطر والخليج ، بل على مستوى العالم كلّه .

وخطبه دائماً مرتبطة بالواقع ، تقوّم اعوجاجه ، وتعالج أمراضه ، فى ضوء تعاليم الإسلام ، موثّقة بالأدلّة ، خالصة من الزوائد والشوائب ، بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، لا غلوّ فيها ولا تفريط ، لا تسكت عن حقّ ولا تتكلّم بباطل .

والأسلوب الذى يسلكه الشيخ القرضاوى - حفظه الله - فى عرض الإسلام على

جماهير الناس أسلوب متميّز ، وهو من أنجح الأساليب فى ترسيخ قيم الإسلام وعقائده فى العقول والأنفس ، لما يتّسم به من جمال العرض ، وصدق اللّهجة ، وحرارة العاطفة ، فضلاً عن الروح المتدفّقة بالإيمان الحىّ المتحرّك والمتفاعل مع النّاس والأحداث ، مع ما حباه الله به من فصاحة اللّسان ، وثبات الجنان ، ورباطة الجأش، وقوّة الصوت ، وملكة التعبير ، وجمال الأسلوب ، وجودة الفهم ، وسعة الاطّلاع ، وقدرة على الارتجال نادرة ، وقوّة الحافظة ، التى تسعفه بما يريده من نصوص وشواهد فى كلّ موضوع كأنّها مصنّفة بين يديه .

تراه فى خطبه منفعلاً كأنّه منذر جيش ، يهزّ المنابر إذا علاها ، ويحرّك أوتار القلوب إذا خاطبها ، ويثير العواطف إذا ذكرّها .

كلّ ذلك بلغة سهلة بيّنة ، تجمع بين دقّة الفقيه ، وإشراقة الأديب ، وروح الداعية .

من يصغى إلى خطبه المنطوقة ، أو يقرأها وهى مكتوبة ، يجد فيها المنهج الواضح، والتوجيه السليم ، والوعظ المتزن ، والمزج الحكيم بين الجديد والقديم .

وهى ليست على النّمط الذى يُعنى بالسجع أو يتكلّفه ، ولكنّها إطلاق للّسان على سجيّته ، وإن كانت لا تخلو من المحسّنات البديعيّة والبيان المشرق .

أشياء كثيرة نجدها فى هذه الخطب ، لذا كان لزاماً على تلامذة الشيخ القرضاوى ومحبيّه أن يسعوا إلى نشرها ، لتعمّ فائدتها ويبقى أثرها .

وهذا ما عقدت عليه العزم منذ مدّة ، فوجهّت جهدى إلى جمع ما أمكننى جمعه من خطب الشيخ وتهيئته للنّشر .

وقد وفّق الله فأعددت هذا الجزء ، آملاً أن تتلوه فى المستقبل القريب أجزاء أخرى بعونه تعالى .

وينحصر عملى فى هذا الكتاب فى :

١ - انتقاء عدد من خطب الشيخ وتفريغها من الأشرطة المسجّلة - المسموعة منها والمرئيّة - ونسخها على الورق .

٢ - عزو النصوص القرآنيّة الكريمة إلى سورها وأرقامها .

٣ - تخريج الأحاديث النبويّة الشريفة .

٤ - ردّ بعض الاقتباسات التى ينقلها الشيخ إلى مصادرها ، وإرجاع ما أمكن منها إلى أصله .

٥ - إثراء بعض الخطب بالتعاليق التى رأيتها مفيدة للقارىء .

وقد تفضّل الشيخ - جزاه الله خيراً - بمراجعة هذه الخطب قبل طبعها ، وأدخل عليها بعض التعديلات والتهذيبات اللازمة التى يتطلّبها أسلوب الكتابة .

وآمل من إخوانى الخطباء - وبخاصّة النّاشئين منهم - أن ينتفعوا بهذه الخطب ، ويفيدوا من طريقة صاحبها فى التناول والاستدلال ، ويفيدوا من تجربته العميقة فى الخطابة والدعوة ، والتى مضى عليها أكثر من نصف قرن ، فمنذ أن كان طالباً بالمعاهد الأزهريّة وهو يعتلى المنبر ويخطب النّاس الجمعة ، ولا يزال كذلك ، رغم تقدّم سنّه ، وكثرة أعبائه ، وشواغله التى لا تنتهى .

حفظ الله شيخنا الجليل ، وأمدّه بموفور الصّحّة والعافية ، وأبقى له هذا اللّسان المعبّر الناطق بالحقّ واليقين ، وأطال فى عمره ، ونسأ فى أجله ، وبارك فى أنفاسه، ومتّعنا والمسلمين بفضله وعلمه وجهاده ، آمين .

كما أسأله سبحانه أن يبارك هذا الجهد الذى أعتزّ به ، ويتقبلّه بقبول حسن ، ويحقّق النّفع من ورائه ، إنّه أكرم مسؤول وأعظم مأمول ، والحمد لله ربّ العالمين.

خالد السعد


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مهمة الإنسان ورسالته فى هذا الكون

من مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة [1]

● **الخطبة الأولى :**

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن يجعل الله له نورًا فما له من نور . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل ، وأكرمنا بخير نبى أرسل ، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [2] ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ونصح للأمّة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبى الكريم ، وعلى آله وصحابته ، وأحينا اللهم على سنته ، وأمتنا على ملته ، واحشرنا فى زمرته ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

أمّا بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون :

لكل شىء فى الوجود مهمة ورسالة ينبغى أن يؤديها . . . للجماد رسالة ، وللنبات رسالة ، وللحيوان رسالة ، وللإنسان رسالة .

---

(١) تولى الأستاذ القرضاوى مهمة خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالدوحة منذ إنشائه ، ما لم يكن مسافرًا ، كما يقوم تلفزيون قطر ببث الخطبة على الهواء ، فيسمعها المسلمون فى قطر والبحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية وغيرها .

(٢) المائدة : ٣ .

ورسالة الإنسان أن يعبد الله عز وجل [١] ويعرفه حق المعرفة ، كما يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [٢] ، ويقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [٣] ، أى أن الله خلق العالم العلوى بسماواته ، وخلق العالم السفلى بأراضيه ، لحكمة وغاية ، هى أن يعرف الناس ربهم .

الإنسان هو المقصود من خلق السموات والأرض ، هذا الإنسان على صغر حجمه، وعلى ضآلة جسمه ، وعلى قصر عمره ، الإنسان بالنسبة للكون شىء صغير صغير ، نحن نعيش فى جزء من قارة ، والقارة جزء من هذه الكرة المعلقة ، التى نسميها الأرض ، والأرض جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية جزء صغير صغير من المجرة التى نعيش فيها والتى يطلقون عليها: سكة التبانة ، لأن النجوم تتناثر فيها ، كما يتناثر التبن فى سكة من يحملون التبن ، لا عدد لها ولا حصر لها ، بالملايين ، وأى نجم فيها أضعاف هذه الأرض بمئات وآلاف المرات وربما بالملايين .

هذه إحدى المجرات التى فى هذا الكون ، والتى مجموعتنا الشمسية جزء منها ، وهذه المجرة إحدى ملايين المجرات التى يقوم عليها هذا الكون .

الكون كون كبير فسيح جداً ، لا يعلم حدوده إلا الله ، وهو يمتد ويتسع كما يقول العلم الآن ، وكما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [٤] .

كان النبى عليه الصلاة والسلام يقول إذا اعتدل من ركوعه : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد » [٥] أى بعد

---

(١) انظر فصل (العبادة مهمة الإنسان الأولى فى الوجود) من كتاب (العبادة فى الإسلام) للأستاذ القرضاوى .

(٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ . (٣) الطلاق : ١٢ . (٤) الذاريات : ٤٧ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ورواه أبو داود ، =

السموات والأرض ، ولهذا يسأل بعض الناس عن قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . . . ﴾ [1] ، وفى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] ، إذا كان عرضها عرض السموات والأرض ، فماذا يكون طولها ؟! والعرض دائماً أقل من الطول ، إنها شىء لا يعلمه إلا الله .

إذن هناك عالم فوق السموات والأرض ، والسموات حتى الآن لا نعلم حقيقتها ما هى ؟ ما هى السموات ؟ إن الله تعالى ذكر لنا أن السماء الدنيا زينها بمصابيح . . . زينها بالكواكب وبالنجوم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ . . . ﴾ [3] ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [4] أى النجوم ، ومعنى هذا أن كل ما نراه ونعرفه من النجوم هو فى السماء الدنيا التى نراها، والتى يصل إلينا شعاعها بعد دقائق أو بعد سنين ، أو بعد ملايين السنين ، بل يزعم العلماء اليوم أن بعض النجوم لم يصل إلينا شعاعها بعد ، رغم ملايين السنين فيما يقولون، نحن لا نعرف إلا هذه السماء الدنيا ، فماذا يكون وراءها ؟! وأين سائر السموات السبع ؟

إذن الإنسان من حيث هذا الكون ، من حيث حجمه ، مخلوق ضئيل ، ومن حيث الزمان مخلوق ضئيل ، كم يعيش الإنسان ؟ جاء فى الحديث : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » [5] ، وهب أنه بلغ المائة ، أو جاوز المائة إلى مائة وخمسين، أو مائتين ، أو عمر ما عمرّ نوح ، ولم نعرف فى التاريخ أحداً عمرّ ما عمرّ نوح ،

= والنسائى ، وتتمته : « . . . أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ،ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ » (الأذكار للنووى بتحقيق محيى الدين مستو ، حديث ١١٥) .

(١) الحديد : ٢١ .
(٢) آل عمران : ١٣٣ .
(٣) الملك : ٥ .
(٤) الصافات : ٦ .

(٥) رواه الترمذى عن أبى هريرة ، ورواه أبو يعلى عن أنس ، وحسنه السيوطى فى (الجامع الصغير) ، وتتمة الحديث : « وأقلهم من يجوز ذلك » .

الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون، ولا ندرى كم عاش قبل البعثة ، الغالب أنها أربعون سنة ، ولا كم عاش بعد الطوفان ، على كل حال عمرّ أكثر من ألف سنة ، ولكن ما النتيجة ؟ النتيجة هى : الموت .

وإذا كان آخر العمر موتا فسواء قصيره والطويـــل

عند الموت يتلاشى هذا كله ، ويصبح العمر كأنه لحظات ، ويخيل للإنسان أنه لو عاش برهة ولو قصرت ، يعوض فيها ما فات ، ويتدارك ما فرط فيه ، وهيهات هيهات ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا . . . ﴾ (١) .

الإنسان من حيث عمره شيء ضئيل ضئيل جدًا ، بالنسبة للأزل من قبله ، وللأبد من بعده ، ما قيمة هذا الإنسان إذن ؟ ما قيمته ؟ ليس له قيمة كبيرة من ناحية المكان، ولا من ناحية الزمان ، ومن ناحية هذا الجسم لا قيمة له ، هو جزء من التراب ، لو حللته لوجدته مجموعة من المعادن والعناصر ، بعضها من الحديد ، وبعضها من الفوسفور ، وبعضها من كذا ،وبعضها من كذا ، تشترى ببضع ريالات، وتتحلل كلها بعد الموت ، وتستحيل إلى تراب .

ليس للإنسان قيمة إذن من هذه الناحية المادية .

قيمة الإنسان فى هذا الشيء الذى أودعه الله تعالى فيه ، ليست فى التراب ، ولا فى الطين ، ولا فى الصلصال ، ولا فى الحمأ المسنون ، إنما فى هذا السر ، فى هذه اللطيفة الربانية ، فى هذه الجوهرة الروحانية ، فى هذا الشيء الذى نفخه الله فيه ، والذى استوجب به أن تسجد له الملائكة تحية وتكريمًا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٢) * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٣) لماذا يسجدون ؟ تكريمًا لهذا النفخة من روح الله .

---

(١) المنافقون : ١١ .

(٢) وفى آية أخرى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر : ٢٨] .

(٣) سورة ص : ٧١ ، ٧٢ .

هذا هو الذى جعل للإنسان مكانة أى مكانة ، وإلا لو كان الأمر يدور حول الطين والحمأ المسنون ، ما ساوى الإنسان شيئًا .

بهذه النفخة الروحانية كان الإنسان إنسانًا ، استحق أن يكون خليفة الله فى الأرض، وأن تشرئب أعناق الملائكة لتتبوأ منصبه ومنزلته : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمَاءَ . . . ﴾(١).

يبدو أنهم استنتجوا ذلك من طبيعة الطين والحمأ المسنون التى رأوها فى أول الأمر، ولم يدركوا السر الآخر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ فقالوا : إن مثل هذا المخلوق الطينى ، لا بد أن يغلب عليه الطين ، وينزع إلى الأرض ، ويخلد إلى التراب ويقع منه الفساد وسفك الدماء ﴿ . . وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . . ﴾(٢) فكان الجواب الإلهى ، أن قال الله لهم : ﴿ . . إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وعقد امتحانًا لآدم وللملائكة ، ظهر فيه فضل هذا المخلوق ،والسر كله يرجع إلى : ﴿ . . وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . . . ﴾ (٤) .

هذا هو الإنسان ، حقيقة الإنسان ليست هذا الغلاف ، ليست هذا الجسم المكون من الأجهزة والخلايا والدم واللحم والعظام والأعصاب ، لو كان الأمر أمر جسم ، لكان الثور أعظم من الإنسان ، لكان الفيل أعظم من الإنسان ، فما أضخمه ، وما أعظم من جسمانه ! ولكن سر الإنسان فى هذا (الروح الإلهى) الذى يسرى بين جنبيه ! هذا هو أنت أيها الإنسان ، بهذا صرت عظيماً فى ملكوت السماء ؟ ينسبون إلى الإمام علىّ رضى الله عنه قوله :

دواؤك فيك وما تشعـــــر ... وداؤك منك وما تبصـــــر !

وتزعم أنك جرم صغيـــــر ... وفيك انطوى العالم الأكبر !

العالم الأكبر فى هذا الإنسان ، هذا المخلوق العجيب ، ومن هنا كانت قيمة الإنسان .

---

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة : ٣٠ . (٤) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

ومن هنا سخر الله له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، الكون كله في خدمة الإنسان ، مسخر لمنفعته ، الشمس تضيء له ، والنجوم تهديه ، والبحار والأنهار ، وكل ما في هذا الكون لخدمته ، جعل الله له الأرض ذلولاً ليمشي في مناكبها ويأكل من رزقه ، سخر له البحر ليأكل منه لحمًا طريًا ، وليجرى الفلك فيه مواخر ، وليبتغى من فضله ، ولعله يشكر الله عز وجل[1] ، سخر له المخلوقات العظيمة فوقه وتحته ، لتكون في خدمته . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2] .

أنظروا إلى كلمة (لكم) وتكريرها في هذه الآيات خمس مرات ، الكون كله مسخر لمصلحة هذا الإنسان ، ولخدمة هذا الإنسان .

ولكن الإنسان نفسه لمن سخر ؟ ومن يخدم ؟ إنه قد أعدّ لخدمة الرحمن ، كل ما في الكون خلق للإنسان ، أما الإنسان نفسه فخلق للرحمن !

إذا نظرت إلى مراتب الكائنات في هذا الكون ،وجدت كل كائن يخدم ما هو أعلى منه مرتبة ، الجماد يخدم النبات ، والنبات مع الجماد يخدم الحيوان ، والحيوان مع النبات والجماد يخدم الإنسان .

الأرض تخرج النبات ، والماء والمطر والشمس وهذه المخلوقات تعمل لإحياء النبات ، وإمداده بالغذاء ، حتى ينمو ويترعرع ، ويزهر ويثمر ، وهذا النبات يأتي الحيوان فيأكله ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[3] .

الحيوان الذي خدمه النبات يخدم الإنسان وهو مسخر للإنسان ، هذه الأنعام تخدمك وهي صحيحة ، وتأكلها وهي ذبيحة .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٤].

(٢) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) النازعات : ٣٣ .

أما الإنسان ذاته فمن يخدم ؟ من ذا الذى يخدمه الإنسان ؟ ليس هناك من هو أعلى من الإنسان من المخلوقات ، إنما يخدم الإنسان الله عز وجل .

لهذا كانت الوثنية عكسًا للحقائق ، وقلبًا للأمور ، حينما جعلت الإنسان يذل ويخضع لما هو أدنى منه ، يعبد الطبيعة ، يعبد الأبقار ، يعبد الأنهار ، يعبد الأشجار ، يعبد الكلاب ، يعبد الشمس أو القمر ، يعبد الجمادات أو النباتات ، أو الحيوانات أو الأفلاك ، وكلها دون الإنسان ، وكلها فى خدمة الإنسان .

الإنسان خلق لله ، ليعرفه ويعبده ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ - مثلهن فى العدد ، أو مثلهن فى التكوير ، أو مثلهن فى روعة الخلق وإبداعه - ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [(١)] ، لتعرفوا الله عز وجل بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، أنه القادر على كل شيء ، والعالم المحيط بكل شيء .

ليس معنى معرفة الله أن نعرف حقيقة ذاته ، لا ، هذا أمر تنقطع دونه الأعناق ، إننا لم نعرف حقيقة أنفسنا ، فكيف نعرف حقيقة خالقنا ؟! إن بعض (البسائط) فى هذا الكون عجزنا عن إدراك كنهها ، إن الإنسان رغم تقدمه العلمى الهائل حتى أنه غزا الفضاء ، ويحاول أن يصل إلى كواكب بعيدة ، عجز عن معرفة حقيقة نفسه ، حتى ألف رجل من أقطاب العلم كتابًا شهيرًا سماه : (الإنسان ذلك المجهول)[(٢)] ، ألفه الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على (جائزة نوبل) فى العلوم [(٣)] . يقول : إننا عرفنا الكثير عن الجمادات ، وعن الأشياء من حولنا ، ولكننا نجهل الكثير عن

---

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) وقد اقتبس منه الشهيد سيد قطب - عليه رحمة الله - مقتطفات ضمنها كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) فصل : الإنسان ذلك المجهول ، أراد بذلك أن يؤكد نظرية الإسلام فى شأن الإنسان ، والتى تقرر تسليطه على عالم المادة ، وتسخيره له ، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له فى الخلافة ، وفى الوقت ذاته تقرر جهله المطبق بالإنسان ، وإعفاءه تبعًا لهذا من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه ، وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته فى الأرض ، ثم إلزامه باتباع منهج الله هذا .

(٣) عام ١٩١٢ م .

أنفسنا ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) . لم نعرف إلا القليل ، ولهذا إذا قلنا : خلق الله الكون لنعرفه سبحانه ، فليس معنى هذا أن نعرف كنه ذاته ، لا .

نحن نتفكر فى خلق الله . . . فى آلاء الله ، ولكنا لا نتفكر فى ذات الله ، فهذا باب مغلق ، نحن نؤمن بالغيب ، ولا نبدد طاقتنا العقلية فيما لا سبيل للوصول إليه، أولى بنا أن نبحث فى الكون ، ونكتشف قوانينه ، ونعرف سننه ، ونسخره - كما أراد الله - لخدمتنا ، بدل أن نضيع أنفسنا فيما لا طائل تحته .

لقد انحرف بعض المسلمين فى بعض العصور ، وبحثوا فى أمور إلهية لا معنى لها : الذات والصفات وعلاقة الذات بالصفات ، وقامت معارك كلامية وجدلية ، كان معظمها منتحلاً ولا معنى له ، وكان أكثرها من تأثير الفلسفات والنحل والملل الأخرى ، ولو وقفوا عند القرآن ما جرهم إلى هذا ، لو عرفوا أن عليهم أن يقفوا عند هذا الباب ، ويقولوا ما قال الراسخون فى العلم : ﴿ . . آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) لكان هذا أولى وأجدر وأبعد عن هذه المتاهات التى دخلوا فيها ، دون أن يظفروا منها بثمرة ، حتى قال قائلهم :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم ؟ وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم !

خلقنا الله تعالى لنعرفه ، وإنما نعرفه بآثاره فى الأنفس والآفاق : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤) العلم اليوم يساعدنا على بيان آثار الله تعالى فى هذا الكون ، وكيف نظم التنظيم الدقيق ، وأحكم الإحكام البالغ ، الذى يدل على عظمة الصانع ، وعلى حكمة المدبر ، فلا تستطيع إلا أن تقول : سبحان الذى أحسن كل شىء خلقه : ﴿ صُنْعَ

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) آل عمران : ٧ .
(٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .
(٤) فصلت : ٥٣ .

الله الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ . . . ﴾ (١) هذا ما يلحظه كل من ينظر فى هذا الكون ، وماَ أحسَن ما قال أبو العتاهية قديمًا :

ألا إننا كلنا بائـــــــــد	وأى بنى آدم خالـــــــد ؟
وبدءهم كان من ربهـــــم	وكل إلى ربه عائـــــــــد
فيا عجبا كيف يعصى الإلـه	أم كيف يجحده الجاحـــد ؟
ولله فى كل تحريكـــــــة	وفى كل تسكينة شاهـــــد
وفى كل شىء له آيـــــــة	تدل على أنه الواحـــــد !

إنه الله ، تراه فى كل شىء ، تراه بعين قلبك ، بعين عقلك ، ولا بعين بصرك ، فأبصارنا أكلّ وأقل من أن تراه فى هذه الدنيا ، وإنما تراه هناك فى الآخرة ، حيث الكافرون عن ربهم محجوبون ، وحيث المؤمنون على الأرائك ينظرون ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٢) ﴿ كَلا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ (٣) [أى المشركين] .

خلقنا الله تعالى لنعرفه ، فإذا عرفناه عبدناه حق العبادة ، عرفنا أنفسنا فعرفنا ربنا، عرفنا مخلوقات الله فعرفنا خالقها ، فأدينا له حقه ، عبدّنا له أنفسنا ، لم نعبّدها لأحد غيره ، ولا لشىء غيره ، فما يستحق شىء فى الأرض ولا فى السماء، أن نحنى له ظهورنا راكعين ، أو نعفر له جباهنا ساجدين ، لا ركوع إلا لله ، ولا سجود إلا لله ، ولا ذل إلا لله ، ولا خضوع إلا لله ، ولا رجاء إلا فى الله ، ولا خوف إلا من الله ، هذه هى العبودية ، أن نعبد الله : ﴿ . . . إلا لِيَعْبُدُونِ. . . ﴾(٤) لنمتثل أوامره ونجتنب نواهيه ، ونقيم دينه فى الأرض ، فهذه هى العبادة بمعناها الشامل .

خلقنا الله تعالى لنعبده حق عبادته ، لنتضرع إليه ، لنسأله وندعوه ، لنصلى له ،

---

(١) النمل : ٨٨ . (٢) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ . (٣) المطففين : ١٥ .

(٤) يشير إلى قوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

لنحسن إلى خلقه ، ونرحم الضعفاء من عباده ، لنبذل المال والأنفس من أجله ، هذه هى العبادة ، وقد روى فى بعض الأحاديث الإلهية : « عبادى إنى ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ، ولا لأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ،ولا لجلب منفعة ،ولا لدفع مضرة ، وإنما خلقتكم لتعبدونى طويلاً ، وتذكرونى كثيرًا ، وتسبحونى بكرة وأصيلاً » ، لهذاخلقنا الله عز وجل ، خلقنا لهذه المهمة ، لنعبد الله بكل ما تتسع له كلمة (العبادة) ، وهى تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال ، فإقامة الشعائر عبادة ، وبر الوالدين عبادة ، وصلة الأرحام ، وإكرام الجيران ، وأداء الواجبات ،وفعل الخير ، والدعوة إليه،والجهاد فى سبيل الله ، كلها عبادة .

ومن هذه العبادة أيضًا عمارة الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا. . . ﴾ (١) ومن هذه العبادة القيام بحق الخلافة : ﴿ . . . إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ (٢) ﴿ . . . وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٣)، هذه هى مهمة الإنسان فى هذه الحياة ، وفى هذا الكون : أن يقوم بحقوق العبادة والخلافة والعمارة .

ولذلك إذا لم يقم الإنسان بهذه المهمة ، كان أضل من الأنعام سبيلاً ، الله تعالى يقول : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٤) وفى آية أخرى يقول : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٥) . هذا هو وصف حطب جهنم ووقود النار من أولئك الذين عطلوا تلك الأجهزة التى منحها الله إياهم ، ليطلوا بها على الكون، لتكون نوافذ للمعرفة ، ولكنهم خربوا هذه الآلات والأجهزة، فكان لهم قلوب ولكنهم لا يفقهون بها ، وأعين ولكنهم لا يبصرون بها ،. وآذان ولكنهم لا

---

(١) هود : ٦١ . (٢) البقرة : ٣٠ . (٣) الأعراف : ١٢٩ .
(٤) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ . (٥) الأعراف : ١٧٩ .

يسمعون بها ، لأنه إذا لم يفقه بقلبه مهمته التى خلق لها ،ولم يعرف الخالق الذى أوجده ، فإن قلبه لم يعد قلبًا ، أصبح لا معنى له ، وكذلك إذا لم ير آثار الله فى الكون ، ولم يعتبر بها فهو أعمى وإن كان نظره ستة على ستة ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) ، وإذا كان لا يسمع قوارع المواعظ ،ولا يسمع صوت الحق ، فهو أصم ، كما قال الله تعالى فى صنف من الناس : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) ، خربوا الآلات والأجهزة الإلهية، فانتهوا إلى أنهم أصبحوا كالأنعام بل هم أضل .

الإنسان يمكن أن يرتقى فيكون كالملائكة أو أفضل ، ربما يكون أفضل من الملائكة، لأن الملائكة لم تؤت ما أوتى من الغرائز والشهوات ، ولم يسلط عليها ما سلط على الإنسان من قواطع الطريق من الداخل ومن الخارج ، فإذا تغلب الإنسان على هذه العوائق والقواطع وارتقى أصبح أفضل من الملائكة ، وأصبح خير البرية على الإطلاق كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٣) .

وكما أن فى الإنسان استعدادًا ليرتقى ويرتقى ، عنده استعداد لأن ينحدر وينحدر، ويهبط ويهبط ، حتى يكون كالحيوان الأعجم ، بل أضل من الحيوان سبيلاً : ﴿ . . . أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . . . ﴾ (٤) لماذا كانوا أضل ؟ كانوا أضل لأن الأنعام لم تؤت ما أوتى الإنسان ، لم تؤت العقل الذى يفكر ، ولا الإرادة التى تحرك أو ترجح ، ولم تؤت هذه المواهب الروحية والعقلية التى أودعها الإنسان ، الحيوان ليس فيه سر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . ﴾ (٥) فالحيوان معذور .

ومن ناحية أخرى فإن الأنعام تؤدى مهمتها . . . تقوم بدورها المطلوب منها فى الحياة ، هل رأيت بقرة تمردت على أن تحلب ؟ أو بعيرًا امتنع أن يركب ؟ إنها تقوم بوظيفتها فى الحرث والسقى ، وحمل الأثقال إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) البقرة : ١٨ ،وفى آية أخرى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١].

(٣) البينة : ٧ . (٤) الأعراف : ١٧٩ . (٥) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

الأنفس ، تركبونها وزينة ولكن الإنسان إذا لم يعرف الله ،ولم يقم بعبادته وخلافته فى الأرض ، فإنه لم يؤد مهمته . . . لم يؤد رسالته ، ولذلك كان أضل من الأنعام سبيلاً .

ومن هنا ماذا تقول فى هؤلاء الناس الذين يعيشون ويموتون ولم يعرفوا الله ؟! أولئك الملاحدة الذين ينكرون وجود الله عز وجل ، ما هم هؤلاء ؟ هؤلاء كفار ، ما قيمة هؤلاء ؟ هذا التراب الذى يأكل من التراب ، ويمشى على التراب ، وينتهى إلى التراب ، هذا الطين المتعالى المتعجرف ، ما قيمته وما منزلته حتى يجحد وجود الله ؟

وكذلك أولئك الذين يؤمنون بوجود الله ، ولكنهم لا يقومون بحقه ، حتى من بين أبناء المسلمين ، هذا الذى يتسمى بمحمد وأحمد وعبد الله وعبد الرحمن ، بما حمدّ وعبد من الأسماء ، بأسماء الأنبياء وأسماء الصحابة ، هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانى المسلمين ، ولا تراهم لله راكعين ولا ساجدين ،الذين يعبّون من الشهوات ، الذين يركضون وراء اللذات ، الذين ﴿ . . . أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ واتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا ﴾ [1] ، ما رسالة هؤلاء ؟ ما رسالتك أيها الإنسان؟ أخلقت لمجرد أن تأكل وتشرب ؟! هكذا تصنع الأنعام ، ماذا زدت على البقرة فى بيتك أو الناقة أو الجمل أوالحمار ؟ ما قيمتك أيها الإنسان إذا لم تكن لك مهمة أعظم وأرقى ؟ ما قيمتك إذا لم تعرف الله ولم تعبد الله ؟

إن معرفة الله تعالى وعبادته هى الغاية التى من أجلها خلق الإنسان ، فعلى الإنسان أن يعرف غايته ، أما إذا عاش لا يعرف لماذا يعيش ؟ وما هى غايته ؟ وما هى رسالته ؟ فما هو بإنسان !

بعض الناس يعيش موجودًا كمفقود ، حيًا كميت ، حاضرًا كغائب ، هذا ليس بإنسان ، لا يحسب من الأحياء ، ولا يحسب من بنى آدم .

وآخرون حددوا غايتهم فى المتع . . . فى الشهوات ، وهؤلاء هم الذين قال الله

---

(١) مريم : ٥٩ ، وأولها : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . . . ﴾ .

تعالى فيهم ، وفي أمثالهم من الكفرة الفجرة : ﴿ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١) .

هناك أناس يعيشون بلا إحساس كما تعيش الجمادات ، وأناس يعيشون بغرائزهم ولغرائزهم كما تعيش الأنعام ، تجرى وراء الشهوات ، وأناس يعيشون كما تعيش الشياطين ، مهمتها الكيد والإيذاء لخلق الله ، والإفساد فى الأرض .

أما الإنسان ... الإنسان الحق ، أعنى الإنسان المؤمن ، فليس هناك إنسان إلا المؤمن ، ما عدا المؤمن فليس بإنسان ، وإن حسب من الناس ، وإن سجلته التعدادات والإحصاءات فيما يسجل من أعداد الناس ، المسألة ليست بالكم ... ليست بالعدد ، الإنسان الحقيقى هو الإنسان المؤمن ، الذى يعرف الله تعالى ، ويقوم بحقه ، ويعبده فى أرضه ، ويقيم أمر دينه ، هذا هو الإنسان ، وهو الذى جاء الإسلام ليصنعه ... ليربيه ... ليكونه ، يكون شخصيته المتكاملة ، وهو الذى رباه النبى ﷺ فى دار الأرقم بمكة ، وفى مسجده بالمدينة ، ليكون صالحًا فى نفسه ، مصلحًا لغيره ، من ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) .

هذا الإنسان هو الذى انطلق بالقرآن ، وانطلق بالإسلام ، إلى أقاصى الدنيا شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا ، وأقام فيها حضارة العلم والإيمان ، ودولة العدل والإحسان ، هذا هو الإنسان ... إنسان الإسلام .

فيا أيها المسلم ... يا أيها الإنسان : اعرف غايتك ، واعرف رسالتك ، وجند نفسك لها ، وعش لهذه الغاية ، عسى الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لنكون أناسى حقًا ، نعرف حقنا ، ونعرف واجبنا ، ونعرف مهمتنا فى أرض الله ، اللهم وفقنا لما تحب وترضى ، اللهم آمين .

أقول قولى هذا واستغفر الله تعالى لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم .

---

(١) محمد : ١٢ .　　(٢) العصر : ٣ .

● الخطبة الثانية :

الحمد لله ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، البشير النذير ، والسراج المنير ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه الذين ﴿ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ، ورضى الله عمن دعا بدعوته ، واهتدى بسنته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولعلها تكون هذه الساعة (٣) .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا ، اللهم أكرمنا ولا تهنا ، واعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولاتؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا .

---

(١) غافر : ٣ . (٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) يشير الشيخ إلى حديث أبى هريرة المتفق عليه ، أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » وأشار بيده يقللها . والمراد بالساعة هنا (معناها اللغوى) وهو : برهة من الزمن ، ولهذا قال : وأشار بيده يقللها ، ليسارة وقتها ، وأما تعيين الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافًا كثيرًا ، وأفاض الإمام ابن القيم فى ذكر أقوالهم ورجح منها قولين ، أحدهما : أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة ، أنظر : (زاد المعاد : ١/ ٣٨٨ - ٣٩٧) بتحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط) ، وانظر أيضًا (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للشيخ القرضاوى : ١/ ٢٤١ - ٢٤٣) .

اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى فلسطين ، وانصر إخواننا المجاهدين فى أفغانستان، وانصر إخواننا المجاهدين فى اريتريا ، وانصر إخواننا المجاهدين فى الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين فى كل مكان ، اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر ، اللهم أيدهم بملأ من جندك ، وأمدهم بروح من عندك ، واحرسهم بعينك التى لا تنام ، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام ، اللهم عليك باليهود الغادرين ، اللهم عليك بالشيوعيين الملحدين ، اللهم عليك بالصليبيين المستعمرين ، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين ، اللهم ردّ عن المسلمين كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) . اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

﴿ . . . وأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ، ولَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) الحشر : ١٠ .   (٢) الأحزاب : ٥٦ .   (٣) العنكبوت : ٤٥ .

التوبة

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدثنا عن مهمة الإنسان فى هذا الكون ، المهمة التى خلق الله تعالى لها الإنسان، خلق الله الإنسان ليعرفه ويعبده : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١) .

لهذا كان لابد لنا من حديث عن هذه المهمة ، عن هذه الغاية ، عن هذه العبادة، وسنتحدث عن نوع من العبادة يغفل عنه الناس ، فالعبادة نوعان : ظاهرة ، وباطنة .

الظاهرة : كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وهى أركان الإسلام العملية،ولكن هناك نوعًا آخر من العبادات له أهميته ،وله ضرورته ، ولا تصح هذه العبادات الظاهرة إلا إذا توافر ذلك اللون من العبادات الباطنة ، إنها العبادات المتعلقة بالقلب ، والقلب هو حقيقة الإنسان « ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٢) . « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » (٣) .

القلب هو موضع نظر الله تبارك وتعالى ، وهو الحجة التى تقدمها يوم القيامة إذا أردت النجاة ، هو المستند الفذ الذى به تثبت براءتك ، وتثبت صحة إيمانك ﴿ يَوْمَ

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) هو جزء من حديث النعمان بن بشير المتفق عليه ، وأوله : « إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بين » وهو السادس من الأربعين النووية ، وانظر (جامع العلوم والحكم) ، و(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) للشيخ القرضاوى : (٥٠٦/٢ ، الحديث ٩٦٦) .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) : (١٠٣/١ - ١٠٤، الحديث ٧) .

لا يَنفعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (1) ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (2) ، القلب السليم. . . القلب المنيب ، هو أساس الدين حقًا .

القلوب عليها المعوّل ، اعمل ما شئت من الأعمال الظاهرة ، فلن تقبل عند الله إذا كان قلبك مغشوشًا ، إذا كانت نية الرياء قد داخلتك ، إذا لم تجرد النية لله وحده: ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ . . . ﴾ (3) ، ولا بد من أن يأتى وقت نتحدث فيه عن حقيقة النية والإخلاص ، الذى هو أساس القبول للأعمال كلها .

ولكنا اليوم نتحدث عن عبادة قلبية مهمة ، هى الخطوة الأولى فى الطريق إلى الله عز وجل ، هذه الخطوة هى : التوبة .

أن تتوب إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنك لا تستطيع أن تسلك الطريق إذا كنت تحمل أثقالاً تؤود ظهرك ، ولا تقدر بها على أن تمشى خطوة إلى الأمام ، لا بد من أن تتخفف ، فلا بد من أن تسقط هذه الذنوب عن كاهلك ، كيف تسقطها ؟ إنما تسقطها بالتوبة ، ما معنى التوبة ؟ التوبة مأخوذة من (تاب) ، وكلمة (تاب) فى اللغة العربية تعنى : عاد ، ورجع ، كان الأصل أن تكون دائمًا مع الله ، لا تفارقه، وكيف تستطيع أن تفارقه ؟ ووجودك مستمد من وجوده ، وحياتك وبقاؤك ورزقك وهدايتك ، وكل ما بك من خير فهو منه تعالى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . ﴾ (4) .

ماذا تكون أنت لولا الله ؟! أنت أيها الإنسان ، الطويل العريض ، الذى يمشى فى الأرض مرحًا ، الذى يثنى عطفيه ، ويصعّر خدّيه ، ماذا أنت لولا الله ؟!

لولا أن الله خلقك ، وسواك ، ونفخ فيك من روحه ، وأعطاك القوة ، وسخر لك هذا الكون ، ورزقك العقل ، وعلمك البيان ، وهداك السبل ، ماذا تكون لولا الله ؟!

---

(1) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(2) سورة ق : ٣٢ ، ٣٣ .
(3) البينة : ٥ .
(4) النحل : ٥٣ .

الله هو صاحب كل فضل عليك ، وأنت بغير الله لا شىء ، لا تكون شيئًا مذكورًا، ولا شيئًا موجودًا ، لهذا يجب أن يكون الإنسان دائمًا مع الله ، فإذا شرد عن الله بالذنوب أو الغفلة ، فلا بد له من أن يعود . . . أن يرجع إلى بيته . . . إلى بيته الأصلى ، وذلك هو التوبة .

التوبة عودة إلى الله ، عودة إلى الأصل ، ومن فضل الله علينا أن رزقنا التوبة ، أن أعطانا حق التوبة ، فكل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون المستغفرون .

ليس عجيبًا أن يذنب ابن آدم ، ليس عجيبًا أن يتورط فى المعصية ، فهذه طبيعة خلقته ، أنه خلق خلقًا مزدوجًا ، فيه قبضة الطين ، وفيه نفخة الروح ، الطين يهوى به إلى أسفل ، والروح ترقى به إلى أعلى ، أحيانًا ينزع إلى الطين ، ويخلد إلى الأرض ، فيكون كالحيوان أو أضل سبيلاً ، وأحيانًا يعلو ويعلو ، حتى يكون كالملائكة ، أو أرفع مقامًا .

فلا عجب من أن يغلب الطين فى بعض الأحيان على الروح ، أن يغلب العنصر الأرضى العنصر السماوى ، أن يغلب العنصر الحيوانى فى الإنسان العنصر الربانى فيه، فيقع فى المعاصى .

ليس عجيبًا أن يحدث ذلك ، وقد عصى أبو البشرية آدم ، عصى الإنسان الأول، أغواه الشيطان فأوقعه فى المخالفة ، دلاه بغرور ، وقاسمه وزوجه ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١) وقال له : ﴿ . . . هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾(٢)، وما زال يوسوس له حتى صدقه ، وأكل من الشجرة ﴿. . .وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىَ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) .

هذا فارق ما بين الإسلام والنصرانية ، النصرانية تجعل خطيئة آدم معلقة برقاب البشر جميعًا ، فهم يحملون وزر معصية لم يفعلوها ، ولم يشهدوها ، لا هم ، ولا آباؤهم ، ولا أجدادهم ، ولا أجداد أجدادهم ، مع أن العدالة الإلهية أقرت فى القرآن ، وفى صحف موسى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٤) .

---

(١) الأعراف : ٢١ .
(٢) طه : ١٢٠ .
(٣) طه : ١٢١ ، ١٢٢ .
(٤) النجم : ٣٧ ، ٣٨ .

كيف يحمل الإنسان ذنب غيره ؟! ثم إن معصية آدم قد انتهت بالتوبة ، الله اجتباه فتاب عليه وهدى ، فآدم حينما شعر بأن الشيطان غره ، وورطه فى هذه المعصية ، سرعان ما استيقظ هذا الكائن الواعى فى ضميره ، هذا الكائن الروحى ، هذه النفخة ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . ﴾ (١) ، غلب هذا العنصر ، فسرعان ما رجع إلى ربه ، وقرع بابه ، تائبًا مستغفرًا ، وقال هو وزوجه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

انتهت معصية آدم بالتوبة ، وهكذا ينبغى أن تنتهى كل معصية يقترفها أبناء آدم .

ليس عجيبًا أن يذنب ابن آدم ، فقد أذنب أبوه آدم ، إنما العجيب أن يتمادى فى الذنوب ، أن يستمرىء طريق المعصية ، ويتوغل فيه ، أن ينسى ربه ، وينسى التوبة إليه ، فتتراكم عليه الذنوب ، وتتراكم حتى يسوّد قلبه والعياذ بالله ، وهنا الخطورة.

الخطورة فى ألا يبادر الإنسان بالتوبة ، النبى ﷺ يقول (٤) : « إن العبد إذا أخطأ خطيئته نكتت فى قلبه نكتة ، فإنه هو نزع واستغفر صقلت » أى مسح وجلى ومحى أثر المعصية ، وعاد القلب أبيض كالمرآة الصافية فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه » إذا أذنب ذنبًا آخر ، نكت فى قلبه نكتة سوداء أخرى ، ثم لا يزال يذنب وتتكاثر هذه النكت السوداء ،والنقاط السوداء ، حتى تزيد على القلب وتغطى عليه : فذلك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥).

---

(١) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ . (٢) الأعراف : ٢٣ . (٣) البقرة : ٣٧ .

(٤) فى حديث أبى هريرة الذى رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٤٧٠ ، الحديث ٩٠٨) .

ورواه السيوطى فى (الجامع الصغير) وصححه ، ولفظه : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رواه أحمد ، والترمذى ، والنسائى ،وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه،والحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة .

(٥) المطففين : ١٤ .

الخطر أن يغفل الإنسان عن التوبة ، ويستمر فى طريق الشيطان ، ولا يحس بما هو فيه من خطأ وخطيئة ، هذا هو الخطر .

ويأتى هذا الخطر من طول الأمل ، طول الأمل معناه : استبعاد الموت ، أن الموت لا يزال بعيدًا ، وأن العمر لا يزال فيه بقية ، ابن العشرين يقول : أتوب حينما أبلغ الثلاثين ، وابن الثلاثين يقول : حينما أبلغ الأربعين ، وابن الأربعين يقول : حينما أبلغ الستين ، وابن الستين يقول : عند الثمانين ، وهكذا [1] .

هكذا يطيل الإنسان أمله ، ولا يدرى أن الموت أقرب من لمح البصر كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله ، إنك حينما تصبح لا تدرى : أيأتى عليك المساء أم لا ؟ وقد جاء فى الحديث : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح » [2] .

حينما تنام لا تدرى أتعود الروح مرة أخرى إليك ، أم تقيض فى نومك ؟ إنك حينما تلبس ثيابك ، لا تدرى أتنزعها أنت بيديك ، أم تنزعها عنك يد غاسلك ؟

---

(١) وما أجمل ما حكاه الإمام الغزالى - حول هذا المعنى - فى إحيائه ، إذ يقول : والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ، ويقدر توابع البقاء ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر ، موقوفًا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت ، والحاجة إلى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخًا ، فإذا صار شيخًا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار،وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم ، ويفضى به شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه (الإحياء ٤/٤٥٦ - ٤٥٧) ط ، دار المعرفة ببيروت .

(٢) من حديث ابن عمر ، رواه البخارى ، والترمذى ، وأحمد ، والبيهقى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٨٦٦ ، الحديث ٢٠٨٠) و(شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٤/ ٢٣٠ ، الحديث ٤٠٢٩) .

إنك حينما تخرج من بيتك لا تدرى متى تكون الخطوة الثانية وإلى أين ؟ أهى إلى الطريق أم إلى القبر ؟ ألم تسمع إلى الذين يموتون بالسكتة القلبية أو الذبحة الصدرية، أو بالحوادث المفاجئة .

الناس يموتون فى حوادث مفاجئة فى هذا العصر ، حتى أن الإنسان لا يكون له علاقة بالحادث فيموت ، يمشى فى الطريق بعيدًا فتأتى سيارة فتأخذه ، طيارات تنزل على أهل قرى ، لا هم راكبون فيها ولا غير ذلك ، وتأتى فتأخذهم ، ألم تسمعوا؟ الموت قريب وقريب ، والمسألة مسألة مصيرية ، إنها جنة أو نار ، ليست خسارة درهم أو دينار ، إما أن تخسر الجنة ، وإما أن تدخل النار والعياذ بالله ، إنها أشياء خطيرة فكيف تؤجلها ؟!

لقد قيل : أكثر أهل النار (المسوّفون) ، أتدرون ما المسوّفون : المسوّفون الذين يقولون : سوف نتوب ، سوف نعمل ، سوف نرجع ، وقد قال بعض السلف : (سوف) جند من جنود إبليس ، لأنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد ، لا تضمن عمرك ساعة واحدة ، وحينما يأتى ملك الموت ليقبض روح الإنسان يتمنى لو أجله وقتًا قصيرًا : أسبوعًا .. يومًا .. نصف يوم .. ساعة .. دقيقة ، وهيهات ، الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ الله، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُواْ من مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) ، لولا أخرتنى إلى أجل قريب : أى مهلة .. دقائق يمكن أن يتصدق فيها ببعض أمواله ، وينفق فى بعض الخيرات ، ويوقف بعض الأشياء على الجهات الخيرية ، ويرد بعض المظالم ، ويستسمح بعض الناس الذين أساء إليهم ، يريد دقائق يمكنه فيها أن يفعل ذلك .

كانت أمامك هذه الدقائق ، وكانت أمامك الساعات ، وكانت أمامك الأيام ، وكانت أمامك الأسابيع ، وكانت أمامك الشهور ، وكانت أمامك الأعوام ، كل هذا لم يكف ، ثم تأتى الآن وتقول : ﴿ .. لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ

---

(١) المنافقون : ٩ - ١٠ .

وأَكُن مِّنَ الصَّالِحينَ ﴾ (١) ، وهنا يكون الرد الإلهى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

إن طول الأمل ، إن استبعاد الموت ، خطر على الإنسان ، يجعله يسوّف ويؤخر ويؤجل فى التوبة ، ثم يفجأه الموت ، ولم يعد له عدته ، ولم يأخذ للآخرة أهبته، فالبدار البدار ، قبل أن تتفاقم الذنوب وتستفحل .

إن بعض الأمراض إذا عولجت فى أولها ، تعالج بسهولة ويسر ، فإذا تركت ، فإنها تكون مضاعفات ومضاعفات ، يصعب بعد ذلك علاجها ، وكذلك الذنوب ، كل من أذنب ذنبًا فعليه أن يتوب ، وعليه أن يبادر بالتوبة ، وإلا كان ظالمًا ، الله تعالى يقول : ﴿ . . . وَمَن لَّم يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

والتوبة مطلوبة من الناس . . . كل الناس . . التوبة مطلوبة من جميع الناس ، الله تعالى يقول : ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُواْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ (٥) .

المؤمنون مطالبون بالتوبة ، وليس هناك إنسان يستطيع أن يقول : لا ذنب لى ، فعمّ أتوب ؟ ومم أتوب ؟ أنا نقى الصفحة ، مبرأ من كل عيب ، وهذا هو الغرور الذى لا يليق بمؤمن ، فالمؤمن يشعر أبدًا أنه مقصر فى حق الله عز وجل ، مفرط فى جنبه ، هو يفعل الطاعات ويخشى ألا تقبل منه ، أما المنافق فيرتكب المعاصى ويقول: أطمع أن تغفر لى ! فرق بين المؤمن والمنافق ، إن المؤمن يشعر دائمًا بأنه لم يؤد حق الله عز وجل كما ينبغى لجلال وجهه ، وسابغ نعمه وفضله ، ولهذا فهو دائم الاستغفار ، دائم التوبة إلى الله عز وجل .

---

(١) المنافقون : ١٠ . (٢) المنافقون : ١١ .

(٣) الحجرات : ١١ . (٤) النور : ٣١ .

(٥) التحريم : ٨ ، وتمامها : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

● **والناس فى التوبة أصناف :**

هناك من يتوب من الشرك والعياذ بالله ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ . . . ﴾ (١) .

وهناك من يتوب من النفاق ، كما قال الله تعالى فى شأن جماعة من المنافقين : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِى الأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (٢) .

وهناك من يتوب من الكبائر (٣) ، شرب الخمر ، أو اقتراف الزنا ، أو تناول المخدرات ، أو أكل الربا ، أو أكل مال اليتيم ، أو شهد شهادة زور ، أو عق والديه، أو قطع رحمه ، أو فعل غير ذلك من كبائر الإثم التى ذكرها النبى ﷺ ، وما أكثرها .

وكبائر الذنوب لا يصلح لها إلا التوبة ، الصغائر يمكن أن تكفر بالحسنات ، بالصلوات الخمس ، بالجمعة إلى الجمعة ، برمضان إلى رمضان ، كل هذه مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر (٤) ، أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة .

هناك من يتوب من الكبائر ، وهناك من يتوب من صغائر المحرمات أيضًا ، فالحرام حرام ، وإن كان من الصغائر ، لا يستصغر شيئًا بالنسبة لله عز وجل ، وقد قال بعض السلف : لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى كبرياء من عصيت .

إنك إذا أسأت إلى زميل لك بكلمة ، فقد تكون شيئًا بسيطًا ، ولكن إذا أسأت بهذه الكلمة نفسها إلى أبيك ، أو إلى شيخك ، فهذه تكبر وتكبر .

---

(١) الأنفال : ٣٨ . (٢) التوبة : ٧٤ .

(٣) اختلف فى تحديد الكبيرة اختلافًا كثيرًا ، ولعل الأرجح أنها : ما أوجب الله عليه حدًا فى الدنيا ، أو رتب عليه وعيدًا شديدًا فى الآخرة ، وانظر تعليق الشيخ على الحديث ٣٥٨ من كتابه ــ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) .

(٤) يشير إلى الحديث الذى رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٣٩ ، الحديث ٣٥٨).

وهكذا نرى الشيء الواحد يتعاظم بالنسبة لمن صدر فى حقه ، فكيف إذا كانت إساءتك تتعلق بذات الله العلى الكبير ؟ ولهذا روى البخارى عن ابن مسعود : «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه ، فقال به هكذا » (١) قال الراوى وأشار بيده فوق أنفه .

هذا هو شأن المؤمنين ، لا يستصغرون ذنبًا ، بل كانوا يحذرون من استصغار الذنوب ، والاستهانة بالمعاصى .

كان بعض السلف يقول : إن الذنب الذى يخشى ألا يغفر ، هو الذى يقول فيه صاحبه : ليت كل ذنب فعلته مثل هذا ، يعنى هذا ذنب بسيط ، هذا هو الخطأ .

ولما زار بعض الصالحين أخًا لهم ، ووجدوه يبكى وهو مريض ، فقالوا له : يا فلان ما الذى يجعلك تبكى كل هذا البكاء ؟ والله ما رأينا عليك كبيرة اقترفتها ، ولا فريضة تركتها ، فقال : والله ما أبكى على هذا ، ولكن أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا ، أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم !

هكذا قال القرآن فى شأن أولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك ، وتحدثوا عن الصديقة بنت الصدّيق بسوء ، فقال الله تعالى فى أمرهم : ﴿ ... وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

كلمة أحيانًا .. كلمة يقولها المرء لا يلقى لها بالاً ، كما صح فى الحديث ، يهوى بها فى جهنم سبعين خريفًا (٣) . سبعين سنة ، من أجل كلمة لا يلقى لها بالاً ، ولا يلتفت إليها .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات موقوفًا على ابن مسعود ، (الحديث ٦٣٠٨) البخارى مع الفتح كما رواه أحمد فى مسند ابن مسعود ، وصححه الشيخ شاكر (٣٦٢٧) و(٣٦٢٩) .

(٢) النور : ١٥ .

(٣) روى الترمذى وابن ماجه : « انّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا ، يهوى بها سبعين خريفًا » وروى الحاكم وصححه : « انّ الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفًا فى النار » أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٧٤٩ - ٧٥٠ ، الأحاديث : ١٧٣٤ ، ١٧٣٥ ، ١٧٣٦) .

قد ثبت عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت عن إحدى ضرائرها فى حديث مع النبى ﷺ : ما يعجبك من فلانة إلا أنها - وأشارت بيدها تعنى أنها قصيرة - ولم تكمل الجملة ، ذكرت اسم (انّ) بدون خبرها ، فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » [١] ، كلمة جديرة أن تكدر بحرًا .

الخطر فى هذه المعاصى التى يستهين بها الإنسان ، ويقول : هذه لا تستحق التوبة، لا ، يجب أن يتوب الإنسان من هذا كله .

هناك من يتوب من الكبائر ، وهناك من يتوب من الصغائر ، وهناك من يتوب من الشبهات ، فإن الشبهات مؤدية إلى الحرام : « . . . ومن وقع فى الشبهات ، وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . . . » [٢] ، وهناك من يتوب من المكروهات ، حتى المكروه لا يريد أن يقع فيه ، وهناك من يتوب عن بعض المباحات ، الناس درجات ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين [٣] .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، والبيهقى ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٧٤٢/٢ ، الحديث ١٧٠٦) ، ورواه النووى فى (الأذكار) ثم قال : مزجته : أى خالطته مخالطة - يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها ، وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها ، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ فى الذم لها هذا المبلغ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ - ٤] نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، من حديث النعمان ابن بشير ، ونصه كاملاً : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإنّ حمى الله محارمه ، ألا وإنّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٥٠٦/٢ ، الحديث ٩٦٦) ، وهو أحد الأحاديث الأربعين النووية ، وأفاض فى شرحه ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم) لما اشتمل عليه من أحكام وتوجيهات .

(٣) هو من كلام أبى سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر فى ترجمته ، وهو من كبار الصوفية، توفى فى سنة مائتين وثمانين للهجرة ، وعده بعضهم حديثًا وليس كذلك (كشف الخفاء للشيخ اسماعيل العجلونى ، برقم ١١٣٧) .

هناك من يتوب عن مجرد الغفلة عن الله . . أنّ وقتًا مر من حياته لم يذكر الله تعالى فيه ، فهو يتوب ويستغفر من هذا ، وهذا ما نبه عليه النبى ﷺ حين قال : «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » [(١)] .

محمد ﷺ الذى كان يراقب ربه فى غدواته وروحاته ، وحركاته وسكناته ، وليله ونهاره ، وخلوته وجلوته ، ولم يكن يغفل عن ربه طرفة عين ، تنام عيناه وقلبه لا ينام ، مع هذا كله يقول : « توبوا إلى الله ، فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » .

بل حدّث بعض أصحابه فقال : كنا نعد للنبى ﷺ فى مجلس واحد سبعين مرة أو مائة مرة : رب اغفر لى وتب على ، إنك أنت التواب الغفور [(٢)] .

وقد رويت عنه صيغ من صيغ الاستغفار ، فى قمة الصيغ ، يستغفر الله فى صباحه ومسائه ،وسحره وسجوده ، هكذا كان ﷺ .

كان يقول : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، وأبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [(٣)] هذه سيدة صيغ الاستغفار [(٤)] .

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٢) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٦٢١) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٤٤٦ ، ٤٤٧) ،وأحمد (٤/ ٢٦٠) كلهم عن الأغر المزنى .

(٢) رواه أبو داود فى الصلاة (١٥١٦) ،وابن ماجه فى الأدب (٣٨١٤) ،والترمذى فى الدعوات (٣٤٣٠) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى المسند ، وابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٩٢٧) كلهم من حديث ابن عمر .

(٣) رواه البخارى ، والنسائى ، والترمذى ، وهو من حديث شداد بن أوس (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٢٥ ، حديث ٣٣٥) وانظر : البخارى مع الفتح ، حديث (٣٦٠٦) ، ومعنى (أبوء) : أقرّ وأعترف .

(٤) قال الشيخ القرضاوى معلقًا على هذا الحديث فى كتابه (المنتقى) : إنما كان سيد الاستغفار ، لأنه يتضمن جملة من المعانى الربانية العميقة : تضمن توحيد الربوبية (اللهم أنت ربى) وتوحيد الإلهية (لا إله إلا أنت) والإقرار بالخالقية والعبودية (خلقتنى وأنا عبدك) والمبايعة لله على الوفاء (وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) والبراءة من المعصية والاستعاذة =

كان من أدعيته واستغفاراته ﷺ : اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ،وأنت على كل شىء قدير » (١) .

هذا هو الشعور بعظمة الله تبارك وتعالى ،وأنه يستحق من الإنسان الكثير والكثير، وخاصة من عظمت نعم الله تعالى عليه ، مثل محمد ﷺ ، فهو يشعر بأن مقصر فى حق ربه عز وجل .

هناك من يتوب من مجرد أن يمر وقت لا يذكر الله تعالى فيه .

التوبة درجات ، والقرآن الكريم يذكر أهل عرفات وأهل الحج ، ويأمرهم بعد هذا الموقف العظيم أن يستغفروا الله ، فشأن المؤمنين دائمًا بعد الطاعات أن يستغفروا،انظروا : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ ، إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

بعد عرفات ، بعد هذا الموقف العظيم ، يطلب منهم أن يستغفروا الله ، كما وصف الله المؤمنين المحسنين المتقين بقوله : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣) يقول الحسن البصرى رضى الله عنه : مدوا صلاتهم إلى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل !!

مم يستغفرون ؟! الذين أحيوا الليل ولم يهجعوا فيه إلا قليلاً ، عند السحر يستغفرون الله ، إنه هؤلاء هم أهل الكمال ، يستشعرون النقص دائمًا ، ولا يظنون أبدًا أنهم وفوا لله حقه .

= بالله منها (أعوذ بك من شر ما صنعت) والإقرار لله بالنعمة ، وعلى النفس بالذنب ، (أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى) وطلب المغفرة ممن لا غفار غيره (فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) ، وما أحوج المسلم أن يودع بها مساءه ، ويستقبل بها صباحه .

(١) رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٩٨) ومسلم فى الذكر والدعاء (٩/ ٢٧) عن أبى موسى .

(٢) البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩ . (٣) الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

إن التوبة على درجات ، كل يتوب بحسب درجته ، أما نحن فإننا نتوب من الكبائر والصغائر والمحرمات نتوب مما فرطنا فيه من حقوق الله وحقوق العباد ، وما أكثر تقصيرنا وتفريطنا .

لا ينبغى أبدًا أن نؤخر التوبة ، فإننا لا ندرى ماذا يُصنع بنا غدًا ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . . ﴾ (١) .

البدار البدار بالتوبة ، البدار البدار بالتوبة قبل أن يفجأ أحدنا الموت ، ويطلب التأخير ولا تأخير ، والإمهال ولا إمهال فـ : ﴿ . . . إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● الخطبة الثانية :

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا استجيب له ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا،وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا ، اللهم اجعل يوم المسلمين خيرًا من أمسهم ، واجعل غدهم خيرًا من يومهم ، وأحسن عاقبتهم فى الأمور كلها ، وأجرنا اللهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم أكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ،وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ،وارض عنا وارضنا ، اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى فلسطين ، وانصر إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ،وأيد كلمة الإخوة المجاهدين العاملين للحق فى لبنان ، اللهم كن للمسلمين فى كل مكان ،

---

(١) لقمان : ٣٤ . (٢) نوح : ٤ .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) . اللهم آمين .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) الحشر : ١٠ .
(٣) النحل : ٩٠ .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .

أركان التوبة النصوح وشروطها

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدثنا فى الجمعة الماضية عن التوبة ، ووجوب التوبة على جميع الناس ﴿ . . وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، ﴿ . . . وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

نعم التوبة وضرورة المبادرة بالتوبة ، فإن الأعمار تنقضى سنة بعد سنة ، وشهرًا بعد شهر ،وأسبوعًا بعد أسبوع ، ويومًا بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، ولحظة بعد لحظة ، فلا بد من المبادرة بالتوبة حتى لا يفجأك المرض ، أو يفجأك الموت وأنت لم تعد العدة ، ولم تهيئ الزاد .

فالحازم الكيس من تأهب للموت قبل نزوله كما فى الحديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » (٣) ، وأول ما ينبغى أن يعمل به العبد لما بعد الموت : أن يتوب إلى الله توبة نصوحًا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُواْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . ﴾(٤) .

---

(١) النور : ٣١ . (٢) الحجرات : ١١ .

(٣) رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، وابن ماجه ، وأحمد ، والحاكم ، وقال : صحيح ، ووافقه الذهبى عن شداد بن أوس ، ورمز له السيوطى بالصحة فى (الجامع الصغير)، وتتمة الحديث : « والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٨٦٩/٢ ، الحديث ٢٠٩٠) و(شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٣٠٨/١٤ ، الحديث ٤١١٦) ، ومعنى « دان نفسه » أى حاسبها فى الدنيا قبل أن يحاسب فى يوم القيامة وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتجهزوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يومئذ على من حاسب نفسه فى الدنيا .

(٤) التحريم : ٨ .

ما التوبة النصوح ؟ :

النصوح : الخالصة من الشوائب ، التى لا غش فيها ولا دخل .

فما حقيقة هذه التوبة ؟ وما شروطها ؟ وما علائمها ؟

حقيقة هذه التوبة تبدأ بالندم ، ثم بالعزم ، وتنتهى بالإقلاع عن المعصية .

أول أركان التوبة وأعظمها : الندم ، والندم عمل من أعمال القلوب ، ليس من أعمال اللسان ولا من أعمال الجوارح ، بعض الناس يحسب التوبة أن يقول بلسانه : تبت إلى الله ، وندمت على معصية الله ، وعزمت على طاعة الله ، وألا أعود إلى المعاصى أبدًا ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، يقول هذا بلسانه ، وربما جاء إلى بعض الشيوخ فقال له : يا سيدنا الشيخ توبنى ، يريد بتتويبه أن يقول هذا الكلام .

هذا الكلام لا يغنى ، لا يكفى أن تقول : نويت التوبة ، وقلبك مصر على المعصية ، بل لا يكفى أن تقول : استغفر الله ، وأنت عازم على المعصية ، وقد قالوا : الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكذابين .

توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم ، وتوبة الصادقين من أعماق قلوبهم ، وإنما تبدأ التوبة بذلك الندم ، بهذه الحسرة ، وبهذا الحزن والأسى ، بهذه المشاعر التى تكوى الإنسان كيًا .

هذا الاحتراق الداخلى هو أول التوبة ، أن يشعر بالندم على ما فات ، على ما فرط منه فى جنب الله ،على تضييعه لفرائض الله ، على أكله لحقوق الناس ، على. . . على . . . هذا هو أول التوبة ، وقد جاء فى الحديث : « الندم توبة » (١) أى هو الركن الأعظم ، كما ورد : « الحج عرفة » (٢) أى الركن الأعظم فى الحج

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٨٢٢/٢ ، الحديث ١٩٣٢) .

(٢) رواه أحمد ، وأصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم والدارقطنى ، والبيهقى ، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمى ، قال : شهدت رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفات=

هو الوقوف بعرفة ، وإن كان هناك أركان أخرى ، كذلك للتوبة أركان أخرى ، ولكن أولها وأعظمها : الندم ، أن يستشعر الإنسان مرارة المعصية ، ويستحضر ذلك في قلبه ونصب عينيه .

وهذا الندم يأتى من صحوة ، من يقظة يجدها فى قلبه ، وهذا فضل من الله يهبه لمن يشاء من عباده ، يأتى بأدنى ملابسة ، كما قيل : من لمحة تقع الصلحة ، من كلمة يسمعها ، من موعظة مؤثرة ، من آية يتلوها أو يستمع إليها ، من موقف يشاهده ، من رؤيا يراها ، من موت لعزيز عليه ، من حادثة تقع له أو كارثة تنزل به أو بأحد يعز عليه ، فيحدث من وراء ذلك : الندم فيتوب إلى الله .

قالوا : إن أحد كبار الوزراء فى العصر العباسى مر بموكبه العظيم فى طريق ، فكان الناس يسألون : من صاحب هذا الموكب ؟ من هذا ؟ من هذا ؟ فكانت امرأة فى الطريق قالت لهم : أقصروا ، من هذا ؟ من هذا ؟ هذا رجل سقط من عين الله ، فابتلاه الله تعالى بما ترون ،تظنون أنّ هذا علامة مجد وعظمة ، هذا رجل سقط من عين الله ، فبلغ ذلك الوزير قولة هذه المرأة ، فرجع بعد ذلك إلى بيته ، واستغنى عن الوزارة ، وغير من حياته كلها بكلمة .

كلمة يمكن أن تغير الحياة ، منظر ، لو رأيت منظر جنازة أمامك ، لو رأيت أحد أصدقائك أو أقربائك وقد كان ملء السمع والبصر ، فإذا هو جثة أمامك لا يحرك ساكنًا ، ولا يستطيع شيئًا ، لو رأيت القبور وذهبت إلى وادى الموتى ، ورأيت هناك الأمراء والكبراء والوزراء وأصحاب الملايين ، أين وزاراتهم ؟ وأين رئاساتهم ؟ وأين إماراتهم ؟ وأين ملايينهم ؟

منظر واحد يراه الإنسان بقلبه لا بعينه ، يمكن أن يغير من حياته ، كلمة يسمعها وقد فتح لها قلبه ، فإذا هى تغير مجرى حياته كلها فينتقل من حال إلى حال .

رؤيا يراها بعض الناس ، كثير من الصالحين تاب بسبب رؤيا رآها فى نومه ، فغيرت من سلوكه ، وغيرت من حياته ، كما حكوا عن مالك بن دينار .

= وأتاه ناس من أهل نجد ، فقالوا : يا رسول الله كيف الحج ؟ فقال : « الحج عرفة ، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع ، فقد تم به حجه » (المقاصد الحسنة : الحديث ٣٩٤) .

وعلى كل حال ، إن الإنسان عليه أن يعين نفسه ، يعين نفسه على حدوث هذا الندم ، كيف يعين نفسه ؟ يتذكر حق الله تعالى عليه ، وفضل الله تعالى عليه ، وهو فضل عظيم لا يحصيه عدّ ، ولا يحيط به حدّ ﴿ . . . وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا . . . ﴾ [1] . يتذكر آلاء الله التي تغمره من قرنه إلى قدمه ، منذ كان في المهد صبيًا ، بل منذ كان جنينًا فى بطن أمه ، وإحسان الله إليه ، وفضله عليه ، لم يفارقه لحظة من الزمن .

يتذكر هذا ، ويتذكر بجوار ذلك ، ما يصدر منه من معصية ، خير الله تعالى إليه نازل ، وشره إلى الله صاعد ! يتحبب تعالى إليه بنعمه وهو الغنى عنه ، ويتبغض هو إلى الله سبحانه بمعصيته ، وهو أفقر شيء إليه !

يتذكر المعصية ، وشؤم المعصية ، وآثار المعصية فى الدنيا والآخرة ، فهى مجلبة الخسران ، هى البضاعة الكاسدة التى ليس من ورائها إلا البوار ، والخسار ، فى الدنيا قبل الآخرة .

ذكر الإمام ابن القيم رضى الله عنه للمعصية أكثر من مائة ضرر من الأضرار والآثار فى الأولى قبل الآخرة ، فى كتابه : (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) [2] .

كل ما ترى من شرور فى نفسك أو أهلك أو مالك أو ولدك أو أصدقائك أو المجتمع من حولك ، كل ما أصاب الناس من فساد وانحلال ، سببه المعصية .

إن الله لا ينزل البلاء على الناس انتقامًا منهم ، بل إنما ينزل عليهم العقوبة تأديبًا

---

(١) النحل : ١٨ .

(٢) ويسمى أيضًا : الداء والدواء ، وقد ألفه ابن القيم ردًا على سؤال مفاده : « ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، رضى الله عنهم أجمعين ، فى رجل ابتلى ببلية ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ، وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما تزاد إلا توقدًا وشدة ، فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ » ، وراح ابن القيم يشخص الداء بمهارة وحذق ، ويصف الدواء الناجح ، مستلهمًا نصوص الكتاب والسنة .

لهم بما فعلوا : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [1] .

أنظروا إلى التعبير القرآنى :

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ لا يعاقبهم بكل شىء عملوه ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ [2] .

تذكر شؤم المعصية . . . شؤم المعصية فى الدنيا وفى الآخرة ، إذا صبرت على آثارها فى الدنيا ، فانظر إلى آثارها فى الآخرة ، هل تتحمل عذاب القبر ؟ هل تتحمل ما فى الموقف يوم القيامة ؟ هل تتحمل ما فى جهنم والعياذ بالله ؟

تذكر الموت وسكرته ، وتذكر القبر وضمته ، وتذكر الحساب ودقته ، وتذكر الموقف وزحمته ، وتذكر الرب وغضبته ، وتذكر الجنة وما فيها من نعيم ، وتذكرالنار وما فيها من ألوان العذاب والخزى ، تذكر هذا كله .

تذكر إنك لا تستطيع أن تحتمل حر الشمس فى يوم صائف ، تذكر أنك لا تستطيع أن تحتمل لدغة مصباح تضع أصبعك عليه ، فكيف تقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة ؟ تذكر هذا كله ليعينك على أن تندم .

الإنسان العاقل إذا عرف أن شيئًا ما يضره ، ويهدده بالخطر ، فلا بد من أن يقلع عنه ، ألا ترون الإنسان الذى عاش عمره مدخنًا ، المبتلى بهذه الآفة التى تأكل المال والصحة والأعصاب ، إذا قال له الطبيب وقد أصيب بقلبه : إما أن تقلع عن التدخين ، وإما أصبحت حياتك فى خطر ، ماذا يفعل هذا الإنسان ؟ إنه لا يخاطر بحياته إذا كان عنده ذرة من عقل ، إنه يقلع عن التدخين الذى عاش وهو إلفه ، وعادته التى استمسك بها عشرات من السنين فى عمره ، وكم رأينا من هؤلاء ممن عاش أربعين سنة أو أكثر أو أقل ، أقلع عن التدخين ، لأن الطبيب قال له : التدخين مهدد لصحتك ، وخطر على حياتك .

فإذا قال طبيبك الأعظم ، إذا قال لك رسول الله ﷺ ، بل إذا قال الله تعالى

---

(١) الروم : ٤١ .

(٢) الشورى : ٣٠ .

لك : إن المعاصى خطر على دنياك وآخرتك ، خطر عليك فى الحال ، وخطر عليك فى الاستقبال ، أفلا تصدق هذا الطبيب ؟ أفلا تقلع عما أنت فيه من إضاعة حق الله ، ومن التقصير فى جنب الله ، ومن إضاعة حقوق الناس ؟ هذا هو الذى ينبغى أن يستحضره الإنسان : الندم ، الاحتراق ، التحسر على ما مضى منك ، هذا هو حقيقة الندم .

وقد قال بعض الصالحين : حقيقة الندم أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى تظن أن لا قرار لك ، وتضيق عليك نفسك ، كما وصف الله تعالى نفسية أولئك التائبين فى سورة (التوبة) ، التى سميت السورة بوصفهم : سورة (التوبة) ، قال: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . .﴾ على سعتها كأن الدنيا أصبحت كأنها أضيق من حلقة خاتم ﴿ . . .وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ . . . ﴾ (١) فوقفوا على بابه مستغفرين تائبين نادمين .

هذه هى نفسية التائب الحقيقى .

ثم يأتى الركن الثانى وهو : العزم المصمم ، أن يعزم الإنسان الذى ابتلى بالمعصية ، وكل الناس مبتلون بالمعاصى ، كما قال النبى ﷺ : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » (٢) . لا يخلو أحد من الخطأ ، ولا يخلو من الذنب ، لأن الله تعالى خلقه هكذا ، لم يخلقه ملكًا مطهرًا ، ولم يجعله نبيًا معصومًا ، فسيدنا آدم عليه السلام نفسه أخطأ ، فلا عجب أن يخطىء أبناؤه .

وهنا يأتى العزم على ترك الذنب ، على اجتناب المعصية ، على أن يبدل حياته ، ويستبدل بصفحته صفحة جديدة ، الصحائف التى سودتها المعاصى ، يريد أن يملأها بأعمال صالحة ، فيترك ويقلع عن الذنب ، ويبدأ هذا بعزم ... عزم جازم . . . عزم أكيد . . . عزم مصمم . . . إرادة قوية : ألا يعود إلى المعصية كما لا يعود

(١) التوبة : ١١٨ .

(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٨٢٠ ، الحديث ١٩٢٧) .

اللبن إلى الضرع ، هكذا يقول العلماء ، هل إذا خرج اللبن من ضرع الناقة ، أو البقرة ، أو الشاة ، يمكن أن تعيده إليها ؟ وهكذا ينبغى أن يكون عزمه ساعة التوبة : طلاق بات بينه وبين المعصية .

أمّا إذا ظل مترددًا ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يريد أن يتوب ولكنه يحن إلى المعصية ، ما زال يشعر بحلاوة المعصية ، وبلذائذ المغامرات الماضية والأيام الخالية ، لا زال هناك نوع من التعلق بتلك الأيام السود ، فهذه ليست توبة ، التوبة عزم مصمم ألا يعود إلى المعصية أبدًا .

ربما يعزم عزمًا أكيدًا ومصممًا ، ولكن الإنسان ضعيف ، يحدث بعد ذلك أن يضعف وتزل قدمه ، لا يضر هذا فى التوبة .

المهم ساعة التوبة أن يكون عنده هذا التصميم المؤكد ، فإن ضعف بعد ذلك ، وأغرته نفسه ، وغره شيطانه ، وسقط فى هوة المعصية ، فلا بد من أن يستحدث توبة جديدة ، وأن يقول ما قال أبوه آدم وأمه حواء : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) . وهكذا ، كلما أحدث ذنبًا سارع إلى التوبة والاستغفار والله غفور رحيم .

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن عبدًا أصاب ذنبًا فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال : ثم اذنب ذنبًا آخر - فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا آخر فاغفر لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنبًا آخر - فقال : يا رب ، إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » (٢) .

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) رواه البخارى ومسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٨٢٠ - ٨٢١ ، الحديث ١٩٢٨) .

فهو يسارع إلى التوبة ، ولن يغلق الله بابه عنه ، لقد قيل لسعيد بن المسيب عن ذلك فقال : فى ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ [(١)] . قال : (الأواب) الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب ، لأن هذه الصيغة . . . صيغة (أواب) تدل على الكثرة، أى أنه كثير الأوبة إلى الله ، فيمكن أن يعثر ثم ينهض ، ويخطىء ثم يحاول التصويب وهكذا ، فهو لا ييأس من روح الله ، ولكن المهم كل الأهمية أن يكون عند التوبة عازمًا ومصممًا على عدم العودة ، هذا ركن ثان ، ومهم ، وضرورى للتوبة النصوح .

الركن الثالث : أمر يتعلق بالجوارح ، وهو أن يقلع بالفعل عن المعصية التي كان يقترفها من قبل ، هذا الندم وذلك العزم لابد من أن يكون لهما أثر ، أثرهما هو الإقلاع عن المعصية ، والبعد عنها ، وكراهيتها ، وكلما ذكرها سأل الله المغفرة ، ورجاه الجنة ، وخاف النار ، هذا هو شأن الإنسان المؤمن التائب : أن يقلع بالفعل عن المعصية .

بل لا يكتفى بالإقلاع ، ولكنه يعمل الصالحات فى مقابل السيئات التى اقترفها ، حتى يبدل الله سيئاته حسنات ،وقد جاء فى الحديث : « واتبع السيئة الحسنة تمحها »[(٢)] ، وصدق الله العظيم : ﴿ . . . إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ . . . ﴾[(٣)].

وليحاول أن يمحو السيئات بأضدادها من الحسنات ، إذا كان قد أكل مالاً من حرام ، يحاول أن يتصدق بمال من حلال ، إذا كان كثير الغيبة للناس . . . يذكرهم بسوء ، يجعل لسانه يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ويذكر أهل الخير فى كل مجلس بما يستحقون ، إذا كان قد فعل معصية معينة يحاول أن يعمل طاعة بضدها ، إذا كان

---

(١) الإسراء : ٢٥ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه عن أبى ذر ومعاذ بن جبل ، وأوله : « اتق الله حيثما كنت . . . وآخره : وخالق الناس بخلق حسن » ورواه أحمد (٥/ ١٢٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٦) والدارمى (٢/ ٣٢٣) وهو من أحاديث الأربعين النووية ، وأفاض ابن رجب فى شرحه فى الحديث الثامن عشر من (جامع العلوم والحكم) .

(٣) هود : ١١٤ .

يقرأ كتبًا رديئة يحاول أن يقرأ كتبًا دينية وكتبًا صالحة ، إذا كان ينشر الفاحشة يحاول أن ينشر الفضيلة ، وهكذا يحاول أن يجدد إيمانه من جديد ، القرآن الكريم يقول : ﴿ ... إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ... ﴾ (١) ، دائمًا تقترن التوبة بالإيمان والعمل الصالح .

لماذا قال : « تاب وآمن » ؟ لأن المعاصى - وخصوصًا الكبائر - تخدش الإيمان، وتنال منه ، على قدر المعصية وكبرها ، وإذا تاب الإنسان يحاول أن يجدد إيمانه ، وأن يبنى هذا الإيمان من جديد ، ولذلك جاء فى الحديث الصحيح المتفق عليه : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٢) ، أى ليس مؤمنًا الإيمان الحقيقى... الكامل ... الصادق .

هذه الكبائر خدشت من إيمانه وجرحته ، فهو لا بد أن يداوى هذه الجراح وهذه الكلوم بالتوبة وبالإيمان .

« آمن وعمل عملاً صالحًا » يعمل الأعمال الصالحات بعد أن كان يعمل الأعمال السيئات ، فهذا هو الأمر الإيجابى ، أن يبدأ فيعمل الأعمال الصالحة يملأ بها صحائفه من جديد .

هذه هى التوبة النصوح : ندم ، وعزم ، وإقلاع .

إذا فعل ذلك ، فإن الله سبحانه وتعالى أهل لأن يتوب عليه ، وأن يجعله من أهل محبته : ﴿ ... إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٣) ، قال بعض الصالحين : سألت الله عدة سنين أمرًا سهلاً ولم أره استجاب لى ! فقال له بعضهم: وماذا سألته ؟ قال : سألته أن يتوب علىّ ... أن يرزقنى توبة نصوحًا ، قال : أتظن هذا الأمر سهلاً أو هينًا ؟ أتدرى ماذا تسأل الله ؟ إنك تسأله أن يحبك،

---

(١) الفرقان : ٧٠ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٥١ ، الحديث ١٣٩٩) .

(٣) البقرة : ٢٢٢ .

إنك تطلب محبة الله ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، فأنت تطلب درجة من الدرجات العلى . . . منزلة من المنازل التى لا تتطاول إليها الأعناق : أن يحبك الله ، وإذا أحبك الله كان سمعك الذى تسمع به ، وبصرك الذى تبصر به [1] . . أصبحت ربانيًا .

التوبة : ندم ، وعزم ، وإقلاع ، هذه أركان التوبة .

أما شروطها فهى : أن ترد المظالم إلى أهلها ، والحقوق إلى أصحابها .

تنقسم الذنوب إلى أقسام : صغائر ، وكبائر .

الصغائر تكفرها الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان[2]، بل الصغائر يكفرها مجرد اجتناب الكبائر ، كما قال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾[3] ، أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة .

ولكن الكبائر نوعان : حقوق لله ، وحقوق للعباد .

هناك حقوق لله عليك تتعلق بترك المأمورات ، مثل أن تكون قد تركت الصلاة ، أو تكون قد تركت الصيام ، أو نحو ذلك ، وهناك حقوق لله تتعلق بفعل المحظورات ، إذا تركت المحظورات تائبًا إلى الله ، فقد ابيضت صفحتك ، أما ترك المأمورات ففيه كلام وكلام ، السنوات التى مرت من عمرك دون أن تصلى ، أو دون أن تصوم ، ماذا تصنع فيها ؟

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى قال : « من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى أحب إلى مما افترضته عليه ،ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » وهو الحديث الثامن والثلاثون من الأربعين النووية.

(٢) يومىء إلى الحديث الذى رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد تقدم ذكره فى ص ٢٧ .

(٣) النساء : ٣١ .

هنالك اختلف العلماء : هل يؤدى كل ما فاته ، ولو كانت عشرات السنين ؟ وكيف يستطيع ؟ وهناك رأى يقول : إن ما فات قد انتهى ، ولا أمل فى أن يقضى ما فات .

معركة جدلية بين المذاهب المختلفة فى قضاء الفوائت من الصلاة والصيام ، ولعل الرأى الذى أرجحه ، هو الرأى الذى يقول : إذا كان قد مضت عليه سنوات وسنوات ، فالأولى أن يكثر من الطاعات ومن النوافل ، ويحرص بقية عمره على أداء الفرائض على أكمل وجه ، ويستغفر الله لما مضى ، لعل هذا هو الأولى وخصوصًا فى قضاء الصلوات .

وأما حقوق العباد فهى المشكلة ، كيف تتوب وفى رقبتك حقوق للعباد ؟ ولا يمكن أن تقبل التوبة والعباد يطالبونك بحقوقهم ، وخصوصًا الحقوق المالية ، ومنها حق الزكاة ، لأن الزكاة حق لله وحق للفئات التى جعلها الله أهلاً لها ، من الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل .

لكى تصح توبتك ، لا بد أن تحسب ما مضى من السنين من زكاة لم تؤدها ، امسك قلمًا ودفترًا ، أو هات آلة من الآلات الحاسبة ، واحسب أموالك بالتقريب ، كم عليك فيما مضى من السنين ؟

هل صحت توبتك فتخرج ما عليك أيًا كان المبلغ ؟ أم أن الدنيا تصبح أكبرعندك من الآخرة ؟ فإذا وجدت المبلغ كبيرًا تركت التوبة ، إذا كان المال أعز عندك من الجنة، فافعل ذلك ، وإذا كانت الجنة أعز وأغلى ، فأخرج من مالك ما وجب عليك ولو عشت فقيرًا .

حقوق الناس ، إذا كنت تعرف أصحاب هذه الحقوق فردّ إليهم حقوقهم ، وإذا كانوا قد ماتوا فردّ إلى ورثتهم .

الحقوق المالية فى الإسلام لا تسقط بالتقادم ، لا تسقط بمضى السنين ، ليس بعد عشر سنين ، ولا عشرين ، ولا ثلاثين ، تقول : هذا انتهى ، لا ، سيظل فى رقبتك ، ابحث عن أصحابه ، فإذا أعياك أمرهم ولم تعرفهم ، أو كانوا غير محصورين ، كالتاجر الذى يغش ، أو يبيع ويطفف ، أو . . . أو . . . إلخ ، ظلم ألوف الناس فى عمره ، ماذا يصنع فى هذا ؟

إنه يحسب هذه المظالم بالتقريب ، ويتصدق بذلك عن أصحابها لا يتصدق عن نفسه ، لأنه ليس هو مالك المال الحرام ، هذا المال الحرام ملك أهله وأصحابه ، ولكن يتصدق عنهم ، كما فعل ابن مسعود رضى الله عنه ، حيث اشترى جارية من رجل ، ودخل يزن له - وكانت النقود الفضية توزن فى ذلك الوقت - فلما خرج بحث عن الرجل فلم يجده ، ونادى : يا صاحب الجارية . . . يا رجل ، وظل يبحث عنه سنين حتى يئس منه ، ثم قال : اللهم إنى أتصدق بثمن الجارية عن هذا الرجل ، فإن رضى يوم القيامة فله أجر هذه الصدقة ، وإن لم يرض فأجرها لى ، وليأخذ من حسناتى بقدرماله ، هكذا فعل ابن مسعود رضى الله عنه .

يوم القيامة يتعامل الناس بعملة واحدة ، ليس هناك درهم ولا دينار ، ولا ريال ، ولا دولار ، العملة الوحيدة فى ذلك اليوم هى الحسنات والسيئات ، ولا بد لكل إنسان أن يأخذ حقه ، لا تسامح ولا تنازل ، فهو يوم الأنانية والفردية ﴿ . . . لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا . . . ﴾ (١) . كل امرىء يقول : نفسى نفسى ، لا يتنازل عن الحسنة فلعل ميزانه ينقصها .

ولذلك فكل واحد يطلب حقه ، ومم يأخذ الحق ولا نقود ، ولا فلوس ، إلا هذه الحسنات والسيئات ؟ فإما أن يأخذوا من حسناتك حتى يستوفوا حقوقهم ، وإما أن يحملوك من سيئاتهم إذا عجزت حسناتك عن الوفاء بالحقوق .

لا بد من رد الحقوق إلى أهلها ، جاء عن النبى ﷺ أنه قال : « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » (٢) . الشهيد الذى يقتل فى سبيل الله تكفر عنه خطاياه ، الشهادة مكفرة للذنوب ، الشهادة فى سبيل الله أعلى ما يتمناه المؤمنون ويحرصون عليه ، ولكنها تكفر الذنوب إلا شيئًا واحدًا ، كما قال النبى ﷺ : « إلا الدين » ، وفى الحديث : إن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر أن الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بالله ، أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله

---

(١) لقمان : ٣٣ .

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٣٩٨ ، الحديث ٧٣١) .

تكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » ثم قال رسول الله ﷺ : « كيف قلت ؟ » قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، إلا الدين ، فإن جبرائيل قال لى ذلك» [1] ، جبريل استدرك على النبى ﷺ وصحح له : إن الشهادة فى سبيل الله تكفر كل الذنوب وتمحوها إلا الديون .

حقوق العباد المالية هذه خطيرة ، فى غاية الخطورة ، الحقوق التى للعباد ينبغى أن ترد .

الحقوق الأدبية يمكن للإنسان أن يعوضها بالاستغفار لهم ، والثناء عليهم ، والدعاء لهم ، أما الحقوق المالية فإما أن يدفعها إليهم ، أو إلى ورثتهم ، أو يتصدق بمثلها [2] ، أو يستحلهم .

ما معنى : يستحلهم ؟ يذهب ويقول له : يا أبا فلان ، فى أيام طيشى وغرورى وبعدى عن الله أخذت منك شيئًا ، أو نلت منك كذا ، وأنا أرجو أن تسامحنى ، فإذا سامحه فقد تنازل عن حقه ، وله أجره عند الله ، وإلا فلا بد من الوفاء ، وإن عجز وصدقت نيته وتوبته ، فإن الله أهل يرضى عنه خصومه يوم القيامة .

التوبة ليست كلامًا يقال .

هناك ذنوب لها أهمية خاصة : الذين يذنبون ولا تموت معهم ذنوبهم ، يالخسران هؤلاء ، طوبى لمن إذا مات ، ماتت معه ذنوبه ومعاصيه ، وويل لمن يموت وتظل ذنوبه مستمرة .

أنظروا إلى أصحاب الأفلام والمسلسلات والأغانى والكتب المليئة بالكفريات والضلالات ، مات أصحابها .ولكنها لا تزال تعمل فى إفساد الناس ، أفرادًا

---

(١) رواه مسلم وغيره عن قتادة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٣٩٩/١ ، الحديث ٧٣٢) .

(٢) إذا مات أصحابها ولا وارث لهم ، أو بحث عنهم فلم يجدهم .

وجماعات ، هذا هوالخطر ، ولذلك على هؤلاء أن يتوبوا مسارعين مبادرين ، قبل أن يصبح الأمر خطيرًا .

كم يصعب عليّ أولئك الذين ينتسبون إلى الفن ، من الرجال والنساء ، ثم تدركهم الصحوة فى يوم من الأيام فيتوبوا إلى الله ، ما موقفهم وهم ينظرون فى التلفازات وفى السينمات أنفسهم شبه عرايا ، وفى المجون والخلاعة والفجور ، ماذا يفعلون ؟

كيف تكون هذه التوبة ؟ إنه لا بد لها من عمل صالح مقابل هذه الأعمال السيئة .

الذى أضل الناس بكفره . . . بقلمه . . . بكتبه . . . بمقالاته ، هذا إذا أراد أن يتوب ، يتوب ولكن فكره المضلل المفسد المدمر ما زال يعمل عمله ، ومن هنا لا يكفى أن يتوب حتى يخطىء نفسه ، ويتبرأ من تلك الكتب ، ويحاول منعها ما استطاع ، كما فعل بعض الفنانين والفنانات : حاولوا أن يشتروا الأشرطة التى فيها الفساد القديم ، وأحيانًا لا يستطيعون ذلك ، لأنها بيعت طيلة العمر ، ولم تعد ملك أيديهم ، فيعجزون عن عمل شىء ، والله أعلم بمدى صدقهم ومدى عجزهم ، وهو أهل المغفرة .

الله تعالى قال فى توبة الكاتمين للعلم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ ، أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ * إِلا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) . لا تقبل توبتهم ما لم يصلحوا ويبينوا ، أما أن يقول أحدهم : تبت، ولا يزال ما فات كما فات ، فهذه ليست توبة .

لا بد من إصلاح وتبيين ، يبين فيه ضلال نفسه أمام الناس ، ويعتذر على الملأ ، وقد فعل ذلك بعض الكتاب الشجعان .

التوبة ليست كلمة تقال ، ولا دعوى تدعى ، التوبة عمل عظيم ، تغيير فى حياة

---

(١) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠ .

الإنسان ، تغيير يتغير كل شيء فيه : فكره ، وقلبه ، وعمله ، وسلوكه ، وحياته كلها ، هذه هي التوبة .

ولذلك علامة في التائب : أن تجده قد غير أصحابه . . . (الشلة) القديمة . . . إخوان السوء . . . شياطين الإنس ، الذين يشوشون عليه عزمه ، ويصدونه عن سبيل الله ، ويزينون له المعاصي .

لا بد له أن يغير هؤلاء ، ويغير مجلسه ، ويغير بيئته ، حتى يسلك في عداد التائبين .

لقد قال الله تعالى عن التائبين : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ والْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

نسأل الله تعالى أن يتوب علينا توبة نصوحًا ، وأن يجعلنا من التائبين المتطهرين ، إنه عليم قدير وصلى الله على سيدنا محمد ، وادعو ربكم يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لا زالت إسرائيل الدولة المغتصبة المعتدية ، تعبث بحقوقنا ومقدساتنا ، رغم ما يدعى إليه ممّا يسمى (السلام) ، كيف يكون السلام وإسرائيل لا زالت متشبثة بمواقفها ؟! لا زالت تشن عدوانها في جنوب لبنان ، وما زالت متشبثة بالجولان، ولا زالت تعمل عملها في أبناء الحجارة ، وفي الضفة الغربية وغزة ، لا زالت تفعل الأفاعيل ، تسفك الدماء ، وتكسر العظام ، وتهتك الحرمات، لا زالت إسرائيل تفعل هذا .

وآخر ما فعلت هو الاعتداء على المحكمة الشرعية الإسلامية في القدس ،

---

(١) التوبة : ١١٢ .

والاستيلاء على الوثائق المهمة ، التى تثبت ممتلكات المسلمين ، وممتلكات الأوقاف الإسلامية ، الممتلكات العامة ، والممتلكات الخاصة ، تريد ألا يبقى عند المسلمين أى شىء يدل على ملكيتهم ، ومع هذا ما زلنا نلهث وراء السلام .

هذه إسرائيل ، إسرائيل لا يمكن أن تؤدب إلا بالقوة ، وفلسطين لا يمكن أن ترد إلا بالقوة ، إلا بالجهاد ،هذا ما أعتقده ، هؤلاء المعتدون الظالمون لا يمكن أن يسكتهم إلا منطق القوة ، لا قوة المنطق .

الله سبحانه وتعالى ذكر هؤلاء الناس فى كتابه فى مئات الآيات ، لم يحدثنا عن فارس والروم إلا فى آيات معدودات ، أما بنو إسرائيل واليهود ، فقد حدثنا عنهم فى سور وسور ، وآيات وآيات ، لنكون على بصيرة من أمرهم ، وعلى بينة من مواقفهم ، حتى نعد أنفسنا للقائهم فى يوم من الأيام .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينير بصائر هذه الأمة ، وأن يهيىء لها من أمرها رشدًا ، وأن يجعل يومها خيرًا من أمسها ، وأن يجعل غدها خيرًا من يومها ، وأن يحسن عاقبتها فى الأمور كلها .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين ، اللهم اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى ، وقلوبها على التقى ، ونياتها على الجهاد فى سبيلك ، وعزائمها على عمل الخير ، وخير العمل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .



هاذم اللذات .. الموت

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كنا نتحدث عن التوبة ، ووجدنا من عوائق التوبة طول الأمل ... التسويف... استبعاد الموت ، وهذه آفة قلما من سلم منها من الناس ، ولهذا كان العلاج لهذا أن يذكر الناس الموت ، وقد أوصانا رسول الله ﷺ بذلك حينما قال : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت » [١] ، وهو الذى يهذم اللذات ويقطعها ، ويفرق الناس عنها .

لا بد من ذكر الموت ، هذه حقيقة يهرب الناس منها ، ويحاولون أن يبعدوها عن أذهانهم وقلوبهم ، وأن يعيشوا ليومهم دون أن يتفكروا فى غدهم ، ولحياتهم دون أن يذكروا موتهم ، ولدنياهم دون أن يذكروا آخرتهم ، حتى أن أكثر الوعاظ والخطباء ، أصبحوا اليوم لا يذكرون الناس بهذه الحقائق ، بمعانى الآخرة ، بالموت وما بعده ، ومعظم أحاديثهم عن مشكلات المجتمع ، عما يعانيه الناس ، ولا بأس بذلك ، ولكن لا يعنى هذا أن تغفل هذه الحقائق الروحية ، وأولاها : أن الناس ولدوا ليموتوا .

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى التـراب !

لهذا كان لا بد من التذكير بالموت ، وقد عقد الإمام الغزالى كتابًا فى إحيائه ، فى آخر (ربع المنجيات) من الإحياء [٢] ، كتاب : (ذكر الموت وما بعده) قال فى

---

(١) أخرجه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وإسناده حسن ، وله شواهد يصح بها (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٥/ ٢٦١) .

(٢) أسس الإمام الغزالى كتابه (إحياء علوم الدين) على أربعة أرباع وهى : ربع العبادات، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

مطلعه : جدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ،والجنة أو النار مورده ، ألا يكون له فكر إلا فى الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له [(١)] .

جدير بالإنسان - وهذا مصيره . . . وتلك عاقبته - أن يتفكر فى هذا المغير ، الذى يغير عليه فجأة ، ويهاجمه بغتة ، وأن يجعل من ذكره جلاء لقلبه من صدأ الغفلة والقسوة ، كما جاء فى الحديث عن النبى «ﷺ أنه كان يقول : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقيل : يا رسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت » [(٢)] ؛ لقد ترك فينا النبى ﷺ واعظين بليغين : ناطقًا وصامتًا ، فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الموت !

لا يعرف أحد متى يأتى الموت ، ولا أين يكون الموت ﴿ . . . وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[(٣)]، وكذلك لا تدرى أى زمن تموت : أتموت شابًا ، أم تموت كهلاً ، أم تموت شيخًا ؟ قد تبقى إلى السبعين ، وقد تبقى إلى المائة ، وقد تتجاوز المائة ، وقد تختطف فى ريعان شبابك ومقتبل عمرك ، قد تكون هذا وقد تكون ذاك ، المهم أنه ليس عندك صك بموعد الموت ، ولا تعرف متى يزورك (عزرائيل) .

كم اختطف الموت أبًا من بنيه ، وابنًا من أبيه ، وأخًا من أخيه ، وقريبًا من قريبه، وحبيبًا من حبيبه ، وقائدًا من جنده ، وأستاذًا من تلاميذه ، فلم يستطع أحد أن يدفع عنه بنفس ولا مال ولا جاه .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ، مذيلاً بتخريج الحافظ العراقى ، ط . دار المعرفة - بيروت، (٤٤٨/٤) .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (الإحياء : ٢٧٣/١) .

(٣) لقمان : ٣٤ .

إن الحبيب من الأحباب مختلـــس | لا يمنع الموت بواب ولا حــــرس
فكيف تفرح بالدنيـــا ولذتهـــا | يا من يعدّ عليه اللفـــظ والنفـــس
أصبحت يا غافلاً فى النقص منغمسًا | وأنت دهرك فى اللذات منغمـــس
لا يرحم الموت ذا جهـــل لغرتـــه | ولا الذى كان منه العلـم يقتبـــس

فالموت باب وكل الناس داخله ، وكأس وكل الناس شاربه ، وحوض وكل الناس وارده ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١) ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٢) .

قد تموت شابًا وقد تموت شيخًا ، ولكن النتيجة واحدة ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ومسؤول عنه ، عش مائة سنة ، أو عش ألف سنة ، أليس آخرها الموت ؟

وإذا كان آخر العمر موتًا | فسواءٌ قصيره والطويـــل

وكل من يموت سيأتى ساعة الموت ، ويقول : لو أنى أُبقيت قليلاً لأزيد من عمل الصالحات ، إن كان من أهل الصالحات ! أو أعمل صالحًا إن كان من المفرطين ! وهيهات هيهات . . . هيهات هيهات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

إذا جاء الأجل فلا تأخير ﴿ . . . فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤) ، والساعة هنا ليست الساعة الفلكية . . . ستين دقيقة ، الساعة

(١) العنكبوت : ٥٧ .
(٢) آل عمران : ١٨٥ .
(٣) المنافقون : ٩ – ١١ .
(٤) الأعراف : ٣٤ ، النحل : ٦١ .

هى اللحظة من الزمن ، لا يستأخر لحظة من الزمن ولا يستقدم . العمر أيام معدودة وأنفاس محدودة ، لا بد أن تنتهى بالموت .

علامة الموت : الميلاد ، إذا ولد الإنسان كان ذلك علامة على أنه سيموت ، وكل يوم ينقضى من عمره ، فقد طويت صفحة من كتابه ، ولهذا نعجب من الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم ، وكان الأولى أن يتفكروا فى يوم الميلاد ، قرب آجالهم ، ونقص أعمارهم ، فكل سنة تنقضى جدار يتهدم من بنيان العمر .

ونفرح بالأيام إما تصرمـــت　　　على أنها من عمرنا تتصـــرم

إنّا لنفرح بالأيـام نقطعهـــا　　　وكل يوم مضى جزء من العمر

كان الحسن البصرى يقول : (يا ابن آدم ، إنما أنت أيام مجتمعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك) ، أنت مجموعة أيام ، كلما ذهب يوم ذهب جزء منك ، حتى يذهب كلك .

الموت حوض مورود لكل الناس ، لم ينج منه نبى ، ولا ولى ، ولا ملك ،ولا أمير ، لا أهل الدين ولا أهل الدنيا .

الأنبياء ذاقوا مرارة الموت ، على ما لهم عند الله من عظيم المنزلة ، قالوا : إن نوحًا عليه السلام ، وهو أطول الأنبياء عمرًا ، عمر فى الدنيا أكثر من ألف سنة ، لبث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، عدا السنين التى قبل النبوة ، والسنين التى عاشها بعد الطوفان [1] ، وقد حكوا أن ملك الموت حينما جاءه ليتوفاه، سأله ، يا أطول الأنبياء عمرًا ، كيف وجدت الدنيا ؟ قال : وجدتها كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما ، وخرجت من الآخر .

هكذا الدنيا ، الأنبياء ذاقوا كأس الموت .

يوسف عليه السلام لقى فى الدنيا ما لقى من محن ومنح ، ثم أتاه الله الملك ، وجعله على خزائن الأرض ، ثم كان مصيره ما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ

(١) يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، وهذا ما ينبغي أن يفكر فيه المؤمن ، أن يتوفاه الله مسلمًا ، وأن يلحقه بالصالحين ، وهكذا كان المؤمنون يدعون : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، هكذا كان همهم.

وخير الأنبياء وخاتمهم وخيرة الله من خلقه : محمد ﷺ خاطبه الله بقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) ، وقال مخاطبًا له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤) .

كان رسول الله ﷺ يعاني سكرات الموت ، وكان عنده قدح من ماء ، فكان يأخذ منه ، يمسح بهذا الماء وجهه ويقول : « اللهم أعني على غمرات الموت ، أو على سكرات الموت » (٥) ، محمد ﷺ يدعو الله بهذا ويقول : « إنّي أوعك كما يوعك رجلان منكم » (٦) ، وبجواره ابنته فاطمة - رضي الله عنها - تبكي وتقول : واكرب أباه ، فيقول لها النبي : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » (٧) .

مات رسول الله ﷺ ، ومات أصحابه .

أبو بكر - رضي الله عنه - حضرته الوفاة ، فجلست بجواره عائشة - رضي الله عنها - فأنشدت قول القائل :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

---

(١) يوسف : ١٠١ . (٢) الأعراف : ١٢٦ .
(٣) الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥ . (٤) الزمر : ٣٠ ، ٣١ .

(٥) رواه الترمذي في الجنائز (٩٧٨) وقال : حسن صحيح غريب ، وفي بعض النسخ : غريب فقط ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٥) وفي سنده عندهم : موسى بن سرجس ، قال في التعريف : مستور .

(٦) متفق على صحته من حديث ابن مسعود (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٥/ ٢٤٣ ، حديث ١٤٣٢) .

(٧) رواه البخاري وغيره من حديث أنس بن مالك في كتاب المغازي ، باب : مرض النبي ﷺ ووفاته ، الحديث (٤٤٦٢) (فتح الباري : ٧/ ٧٥٥) ط . دار الريان للتراث - القاهرة .

فقال لها أبو بكر مصححًا لها : ذاك رسول الله ﷺ ، ثم أنشدت قول الشاعر ، وكانت ممن يحفظ من الشعر الكثير :

لعمرك ما يغنى الثـــــراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أى الروح إذا بلغت الحلقوم ، فقال لها : بل قولى ما قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) ، وهو فى هذا الوقت يصحح المفاهيم ، ويقول لها : يدل على أن تذكرى الشعر اذكرى القرآن .

هكذا ينبغى أن يكون الإنسان ذاكرًا لربه فى هذا الوقت ، ذاكرًا لكتابه ، خائفًا من ذنبه ، راجيًا رحمة ربه .

دخل النبى ﷺ على شاب يحتضر فقال له : « كيف تجدك » ؟ قال : أرجو الله يا رسول الله ، وإنى أخاف ذنوبى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف » (٢) ، مادام الإنسان فى مثل هذا الموطن يرجو ويخاف ، يرجو المغفرة ويخاف عاقبة الذنوب ، فإن الله سبحانه وتعالى سيكون عند حسن ظن عبده به ، سيؤمنه مما يخاف ، ويعطيه ما يرجو .

ومرض أحد الصالحين مرض الموت ، فعاده بعض أصحابه فقالوا له : أى شىء تشتكى ؟ قال : أشتكى مما خلفت من ذنوبى ، قالوا له : وأى شىء تشتهى ؟ قال: لا أشتهى إلا مغفرة ربى ، قالوا له : ألا ندعو لك طبيبًا ؟ قال : الطبيب هو الذى أمرضنى .

هكذا كانت قلوب معلقة بالله عز وجل ، فكل ما يشغلها هو لقاء الله ، وذنوبها التى خلفت ، ومغفرة الله التى ترجوها .

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه ، وقال : حديث غريب ، وفى بعض النسخ : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، وابن أبى الدنيا ، وذكره الألبانى فى صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/ ٨٧٥ ، الحديث ٢١١٢) .

الموت لم يدع نبيًا ، ولم يدع وليًا ، ولم يدع خليفة ، ولم يدع ملكًا ، ولم يدع أميرًا ، ولم يدع غنيًا ، ولم يدع فقيرًا ، كلهم ورد حوض الموت .

قالوا : إن هارون الرشيد أصابه المرض ، فعرض بوله على أحد الأطباء ، وهو لا يعرف أن هذا للرشيد ، فقال : صاحب هذا البول ميؤوس منه ، وبلغ ذلك الرشيد ، فقال :

إن الطبيب له علم يـدل بـه ... ما دام فى أجل الإنسان تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام مهلتـه ... حار الطبيب وخانته العقاقيـر!

الطبيب إنما ينفع طبه ما دام هناك فى الأجل متسع ، ولكن إذا حان الأجل ، إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء ، وحار الأطباء ، وكان لا بد من اللقاء .

أُعطى الشاعر ابن الرومى دواء غلطًا ، فكان سببًا فى موته ، ولما لام الناس الطبيب الذى وصف له الدواء قال :

غلط الطبيب علىَّ غلطة مـوردٍ ... عجزت موارده عن الإصـدار

والناس يلحون الطبيب ، وإنما ... غلط الطبيب إصابةَ الأقـدار

الطبيب غلط ، ولكن القدر لم يغلط ، كان لا بد من أن يموت .

إذا جاء الموت لم ينفع طب ، ولم ينفع دواء ، ليس معنى هذا أن نترك الدواء ، لا بأس أن نتداوى ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الشفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله (١) . ولكن الدواء ينفع ما دام فى الأجل بقية ، فإذا جاء الموت لم ينفع شىء .

نظر الرشيد إلى أكفانه فقال : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ (٢)،

(١) فى الحديث عن ابن مسعود يرفعه : « إنّ الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » أخرجه أحمد ، وابن ماجه ، وإسناده صحيح ، وصححه البوصيرى فى زوائده ، والحاكم ، ووافقه الذهبى (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط ٤/ ١٣ - ١٤) .

(٢) الحاقة : ٢٨ ، ٢٩ .

وابنه المأمون حينما جاءه الموت ، كان يدعو الله ويقول : يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه ! وقالوا عن عبد الملك بن مروان : أنه حينما مرض مرض الموت ، نظر إلى غسال كان يغسل الثياب بيده فى دمشق فقال : ليتنى كنت غسالاً ، آكل من كسب يدى يومًا بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئًا ! فبلغ ذلك الإمام (أبا حازم) فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه !

يتمنى هؤلاء عند الموت أن يكونوا غسالين أو عمالين ، ولم يلوا أمر هذه الدنيا ، ولا ملكها .

نظر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى يومًا إلى المرآة ، فأعجبته صورته ، وأعجبته نفسه ، وقال فى غرور : أنا الملك الفتى . . . الملك الشاب ، ونظر إلى جارية له يبدو أنها من الصالحات ، فقال : ما تقولين فىّ ؟ فأنشدت تقول :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أنْ لا بقاء للإنسان !

ليس فيما رأيته فيك عيب ... كان فى الناس غير أنك فان !

هكذا الملوك ، هكذا الخلفاء ، هكذا الأغنياء [1] .

هل رأيتم أحدًا استطاع أن يؤخر الموت يومًا ، أو ساعة ، أو بعض ساعة ؟ هل استطاع ذو سلطان أن يرهب ملك الموت بسلطانه ؟ هل استطاع غنى أن يرشو (عزرائيل) بشىء من ماله ؟

لا والله ، أخذهم الموت أخذًا ، لم يدع كبيرًا ولا صغيرًا ،ولا غنيًا ولا فقيرًا ، ولا نبيًا ولا وليًا ، ولا ذا سلطان أو ذا ثروة ، كلهم أكلهم الموت .

اذهب إلى المقابر ، ماذا تجد فيها ؟ اذهب إلى وادى الموتى ، ستجد الكل متساوين فى ظاهر الأمر ، الكل قد ضمتهم القبور ، تركوا القصور إلى القبور ، تركوا النعيم إلى أعمالهم ، إلى مجازاة الله سبحانه وتعالى .

---

(١) من أراد معرفة المزيد من أخبار المحتضرين من الخلفاء والصالحين ، فليرجع إلى كتاب : (ذكر الموت وما بعده) من (إحياء علوم الدين) للغزالى .

هل يتذكر الناس ذلك ؟ هل يتعظ الناس بالموت ؟ هل يتعظ الناس بمن مات من آبائهم وأجدادهم وإخوانهم وأقربائهم وأحبائهم ؟ كم ودعنا من الناس ؟ كم ودعنا من أحبة ؟ كم ودعنا من أقرباء ؟

ولكن الناس لا يذكرون الموت ، كأنهم يظنون أنهم فى الدنيا مخلدون ، إنها الغفلة ، إنه طول الأمل ، وطول الأمل هو الآفة .

الموت قريب ، وأقرب مما يتصور الناس ، وكل آت قريب ، قد يكون كلمح البصر أو هو أقرب ، قد يأتى عليك الصباح ولا يأتى عليك المساء ، وقد تمسى ولا تصبح ، وقد تلبس الثوب ولا تستطيع أن تخلعه ، وإنما تخلعه يد غاسلك ، وقد تخرج من البيت حاملاً ولا تعود إليه إلا محمولاً .

هل نعرف هذا كله ؟ هل نذكر الموت ؟ هل يذكّر بعضنا بعضًا بالموت ؟ إنّ الموت هاذم اللذات ، ولكن الناس لا يذكرونه .

الموت قريب وقريب جدًا ، وخاصة فى عصرنا الذى يختطف فيه الموت الناس وهم أصحاء ، بالسكتة . . . بالذبحة . . . بآفة من الآفات المرضية التى أصبحت من آفات هذا العصر . . . بحادثة من حوادث الطرق ، بهذا أو بغيره .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحـد

الموت آت لا يستطيع أحد أن يفرّ منه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . . ﴾ (١) ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . ﴾ (٢) ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ . . . ﴾ (٣) ، ما دام الأجل قد انتهى فالموت آت .

كان هناك وباء فى بلد ، فخرج ابن لأعرابى من هذا البلد فرارًا من الموت الذى فيه ، وذهب إلى بلد آخر ، وفى الطريق أوى إلى ظل شجرة . فلدغته أفعى فمات، فقال أبوه :

---

(١) الجمعة : ٨ .   (٢) النساء : ٧٨ .   (٣) آل عمران : ١٥٤ .

راح يبغى نجـــوة　　من هالك فهلـك

والمنايا راصـــدات　　للفتى حيث سلك

كل شىء قاتــــل　　حين تلقى أجلـك

أجل ، كل شىء قاتل ، حين ينتهى الأجل ، بعثرة طريق ، بضربة شمس ، بأدنى شىء .

المهم أن تستعد للموت ، كما جاء فى الحديث : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » [1] ، الكيس : العاقل ، من حاسبها ، وعمل لما بعد الموت : أعد للأمر عدته ، وأخذ له أهبته ، حتى لا يسير بغير زاد .

تزود للذى لا بد منـــــه　　فإن الموت ميقات العبـــاد

أترضى أن تكون رفيق قوم　　لهم زاد وأنت بغيــــر زاد

أترضى أن تسافر بغير زاد ، وخصوصًا إذا كان رفقاؤك فى السفر لا يعطونك من زادهم شيئًا ؟ يوم القيامة لا يعطى أحد لأحد : ﴿ لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا . . . ﴾ [2] ، فهل أعددت زاد الآخرة؟ هل أعددت الزاد لما بعد الموت ؟

لا بد من أن نتذكر الموت ، لا بد من أن نجعله نصب أعيننا « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » [3] ، بل من يدرى لعلك تموت اليوم قبل الغد ، فلا بد من أن توازن بين الدنيا والآخرة ، وأن تأخذ من حياتك

---

(١) تتمة الحديث : « والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » فى إسناده (بقية ابن الوليد) وهو مدلس ، ولكنه صرح بالتحديث ، كما فى حديث ابن ماجه ، وهو عند الترمذى بإسناد آخر وقال : حديث حسن ، ورواه الحاكم وقال : صحيح ،ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/٨٦٩ ، الحديث ٢٠٩٠) .

(٢) لقمان : ٣٣ .

(٣) صح هذا من كلام الصحابة رضى الله عنهم مثل ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ،ولم يصح مرفوعًا إلى النبى ﷺ .

لموتك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن صحتك لسقمك ، هذا هو شأن الإنسان المؤمن .

أكثروا من ذكر هاذم اللذات ، أكثروا من ذكر الموت .

والناس صنفان :

صنف يعيشون غافلين ، لا يفكرون إلا فى دنياهم . . . إلا فى شهواتهم . . . إلا فى مصالحهم العاجلة ، لا ينظرون إلى الغد ، ولا يفكرون فيما يأتى بعد ، هؤلاء هم الغافلون ، هؤلاء هم الذين لم تستيقن قلوبهم بالآخرة ، لو كانوا موقنين بالآخرة لغيروا طريقة تفكيرهم .

وهناك صنف آخر ، يعلمون أن مع اليوم غدًا ، وأن غدًا لناظره قريب ، وأن كل امرىء مصبح فى أهله ، والموت أقرب من شراك نعله ، وأن الموت آت لا بد منه ، لهذا يستعدون للموت ، فإذا جاءهم لم يخافوا ، ولم يحزنوا ، لأنهم تهيأوا له ، واعدوا له الزاد ، ولأنهم يعلمون أن الموت ليس عدمًا صرفًا ، ولا فناء محضًا ، لو كان الموت عدمًا لم يخلقه الله ، وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . ﴾ (١) ، لو كان الموت عدمًا ما خلقه الله .

الموت مرحلة ، مرحلة انتقال ، كما جاء عن عمر بن عبد العزيز : إنما خلقتم للأبد (أى للخلود الأبدى) وإنما تنقلون بالموت من دارٍ إلى دار ، من دار الغرور إلى دار السرور ، أو الحزن ، هى سرور لأناس وحزن على آخرين ، من دار الفناء إلى دار البقاء ، من دار المفر إلى دار المقر .

وما الموت إلا رحلة غير أنهـــــا ... من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

هؤلاء لا يخافون الموت ، إنهم يعلمون أنهم خلقوا للآخرة ، خلقوا للخلود ، وإلا ما كان لهذه الدنيا معنى ، ولا كان لها طعم ، لو كانت هى المقر ، لو كان لا شىء بعد الموت ، كما قال الدهريون : إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض

---

(١) الملك : ٢

تبلع،ولا شيء بعد ذلك : ﴿ . . . نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ . . . ﴾[1] لو كان الأمر كذلك ، لكانت الحياة كلها بَاطلاً ، والله تعالى قد نفى ذلك وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطلاً ، ذَلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْـلٌ لِّلَّذينَ كَفَرُواْ منَ النَّار * أَمْ نَجْعَلُ الَّذينَ آمَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [2] ، هيهات ، لا يستوى المتقون والفجار ، ولا يستوى المؤمنون والكفار ،ولا يستوى الأخيار والأشرار ، كل سيجزى بعمله .

فكروا فى الموت ، أذكروا هاذم اللذات ، أذكروه عسى أن تترطب قلوبنا ، وتلين فى قسوتها ، كان بعض السلف قد حفر فى بيته حفرة أشبه بالقبر ، كلما قسا قلبه نزل فرقد فيها ، وأغمض عينيه ، وخيل إلى نفسه أنه مات ، ثم قال : ﴿. . . رَبِّ ارْجعُون * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالحًا . . . ﴾ [3] ، ثم يفتح عينيه ويقول : ها يا نفس ، ها أنت فى الدنيا الآن فمالكَ لا تعملين ؟ .

أنتم فى الدنيا ممكنون من العمل . . . أكثر من يغبطهم أهل القبور أهل المساجد، يقولون : ليتنا ، نسبّح كما يسبّحون ، ونذكر الله كما يذكرون ، ونصلى كما يصلون.

اغتنموا العمر ، اغتنموا الوقت ، قبل أن يفوت الأوان .

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن خشعت قلوبهم ، ولانت أفئدتهم ، وتذكروا آخرتهم ، اللهم آمين .

أذكروا الله تعالى ، واستغفروه يستجب لكم .

---

(١) الجاثية : ٢٤ ، ونصها : ﴿ وَقَالُوا مَا هيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ ، وَمَالَهُم بِذَلكَ منْ علْمٍ ، إنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ ﴾ .

(٢) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) يتمثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ رَبِّ ارْجعُون * لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالحًا فيمَا تَرَكْتُ ، كَلا إنَّهَا كَلمَةٌ هُوَ قَائلُهَا ، وَمن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] .

● الخطبة الثانية :

أما بعد فيا أيها الإخوة :

ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر . اللهم أعنا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة ، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن ، واجعل كلمة الإسلام هى العليا ، وكلمة أعداء الإسلام هى السفلى .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١) ﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (٣) أقم الصلاة .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الحشر : ١٠ . (٣) الأحزاب : ٥٦ .

شؤم المعصية

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كان السلف الصالح رضى الله عنهم ، إذا نزل بأحدهم بلاء أو شكا من أمر من أمور الدنيا حل به ، رجع فى ذلك إلى نفسه ، وعاد باللائمة عليها ،وقال : لا بد أنى قد أذنبت ذنبًا ، لا بد أنى قد قصرت فى حق الله تعالى ، لا بد أنى فرطت فى جنب الله ، ظلمت عبدًا من عباد الله ، ضيعت فريضة من فرائض الله ، انتهكت حرمة من حرمات الله ، فسرعان ما يرجع إلى ربه ويقرع بابه تائبًا مستغفرًا ، ويقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء ، حينما أخرجا من الجنة : ﴿ . . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

هذا شأن الإنسان المؤمن ، إذا أصابه خير ردّ الفضل إلى الله ، وقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإذا أصابه شر لم يلم إلا نفسه ، ولم يتهم إلا نفسه : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٢) .

هكذا كان شعارهم ، وهكذا كان ديدنهم ، هذا هو شأن المؤمن ، أن يرجع كل فضل إلى الله تبارك وتعالى ، فهو صاحب الفضل والنعمة : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . ﴾ (٣) ، وأن يرجع كل شر إلى نفسه .

كان بعض السلف رضوان الله عليهم يقول : إنى لأرى شؤم معصيتى فى سوء خلق امرأتى ودابتى ، يعنى إذا نكدت عليه امرأته ، أو حرنت عليه دابته ، يقول : لا بد أنى قد ارتكبت معصية من المعاصى .

كل شىء كانوا يعودون به إلى شؤم المعصية ، فللمعاصى آثارها الوخيمة فى

(١) الأعراف : ٢٣ . (٢) النساء : ٧٩ . (٣) النحل : ٥٣ .

الدنيا والآخرة ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما : إن للحسنة ضياء فى الوجه ، ونورًا فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة سوادًا فى الوجه ، وظلمة فى القلب ، ووهنًا فى البدن ، ونقصًا فى الرزق ، وبغضًا فى قلوب الخلق .

بعض الناس يظنون أن شؤم المعاصى وعقوبتها مؤجل إلى الآخرة ، إلى حساب الله يوم القيامة ، لا ، هناك حساب فى الآخرة ، وهناك حساب فى الدنيا ، يعجل الله للناس بعض العقوبة فى الدنيا ، وخاصة إذا لم يعاقبوا العقوبات الشرعية فإن العقوبات القدرية لهم بالمرصاد .

هناك عقوبات شرعية على بعض المعاصى ، هناك حدود وتعازير ، هناك الجلد للزانى ، الجلد للسكير ، القطع للسارق ، الإعدام لقاتل العمد ، إلى آخر ما جاء به القرآن ، وجاءت به السنة ، وأجمعت عليه الأمة .

فإذا نفذت هذه العقوبات الشرعية ، وأقيمت حدود الله فى أرضه ، كان ذلك أخف على الناس من العقوبات القدرية ، ولذلك ورد فى الحديث : « حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا » (١) .

حدّ لله يقام بحقه على من يستحقه ، وبعد استيفاء شرطه ، أزكى وأبرك على الأرض من مطر أربعين صباحًا ، لأنه لا خير فى أن تمطر السماء ، وتنبت الأرض، ويثمر الثمر ، ثم يأكل هذا كله بعد ذلك : الزناة والسكيرون والعربيدون والفجرة الذين يظلمون الناس ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويطغون فى البلاد ، فيكثرون فيها الفساد .

فإذا لم تقم الحدود ، وإذا لم يعاقب المفسدون ، إذا ضيّع الناس العقوبة الشرعية، فإن السماء تنزل عقابها على الناس .

---

(١) الحديث روى بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة ، وهذا لفظ ابن ماجه برقم (٢٥٣٨) ، ورواه النسائى (٨/ ٧٥ ، ٧٦) وابن حبان فى صحيحه كما فى موارد الظمآن (١٥٠٧) ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٥٠ ، الحديث ١٣٩٦) .

إن العقوبات السماوية ... العقوبات القدرية ... العقوبات الكونية ، لهم بالمرصاد ، وإذا نزلت فإنها تنزل على الجميع ، العقوبات الشرعية تخص فلا تصيب إلا من يستحقها ، أما العقوبات القدرية السماوية فإنها تعم : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

حينما ينزل البلاء ، حينما ينزل شؤم المعصية على الناس ، يصيب الجميع ، الصالح والطالح ، الطالح لطلاحه ، والصالح لسكوته على المنكر ، وعدم تغييره له ، فإذا اشترك الناس فى ترك المنكر ، فإن الله يوشك أن يعمهم بعقاب من عنده .

المعصية شؤم على الناس ، شؤم على الفرد فى حياته ، تصيبه بالقلق ، تصيبه بالرعب ، تصيبه بالأمراض ، تصيبه بكل ما يعكر عليه صفوه ، وما ينغص عليه عيشه ، إنها (المعيشة الضنك) كما قال الله تبارك وتعالى حينما أنزل آدم وزوجه إلى الأرض : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (٢) .

وقد يعيش الإنسان هذه المعيشة الضنك ، وعنده الآلاف والملايين ، إن الضنك فى نفسه ، إن الضنك فى صدره ، إن هذا كله فى داخله ، يشكو منه رغم أن معه الآلاف والملايين ، الرعب يملأ قلبه ، يخاف من كل شىء ، يخاف من الأمراض ، يخاف من الموت ، يخاف من المستقبل المجهول ، يخاف من فقدان النعمة ، يخاف من نزول النقمة ، وهذا كله من شؤم المعصية .

إذا كنت فى نعمة فارعها   فإنّ المعاصى تزيل النعم

وحطها بطاعة رب العباد   فربّ العباد سريع النقم

إن الناس عندما يشكرون نعمة الله ويستخدمونها فى طاعته ، فإن الله عز وجل يحفظها عليهم ، ويزيدهم منها ، أما إذا كفروا نعمته ، إذا بطروا بها ، إذا لم يؤدوا

---

(١) الأنفال : ٢٥ .   (٢) طه : ١٢٣ - ١٢٦ .

حقها ، إذا أصبحت النعمة فى أيديهم مصدرًا للمعصية ، وسببًا للإعراض عن الله ، فإن الله سرعان ما يعاقبهم ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

إن النعم إنمّا أعطيت للناس ليستعينوا بها على طاعة الله ، لتكون أداتهم للوفاء بحق الله وشكره ، أما إذا استخدموها فى المعصية ، إذا آتى الله الإنسان المال فجعله سببًا فى الفساد ، إذا أتاه الصحة فاستمتع بصحته فى الشهوات المحرمة ، إذا آتاه العقل فلم يفكر به إلا فى الشر ، إذا أصبحت نعم الله على الناس وسائل لمعصيته ، فإنهم لا يستحقونها ، لا يستحقون أن تبقى هذه النعم عندهم ، يجب أن تسلب منهم ، وقد لا تسلب منهم فجأة ، وإنما تسلب منهم رويدًا رويدًا ، يذكرون بالنذر شيئًا فشيئًا ، فإذا تذكروا ، وإذا اتعظوا ، وإذا انتبهوا من غفلتهم ، وصحوا من سكرتهم ، فإن الله جدير أن يقبل منهم ، أما إذا سدروا فى غلوائهم ، وظلوا على كفرانهم ، فإن النعمة جديرة أن تسلب منهم وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

إن الطاعة والاستقامة ، والتقوى لله عز وجل ، هى التى تمنح الناس الحياة الطيبة فى الدنيا ، والأجر الحسن فى الآخرة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

وليست الحياة الطيبة بكثرة المال ولا بالرفاهية ، فقد كان الناس فى هذه البلاد قبل عصر (البترول) ، وقبل الملايين التى يعبث الناس بها اليوم ، كانوا يعيشون عيشة طيبة ، كانوا متعاونين فى السراء والضراء ، كانوا قانعين بالقليل ، راضين به ، كانوا مطمئنين إلى حياتهم ، كانوا يحب بعضهم بعضًا ، كان يأمن كل واحد منهم أخاه على نفسه وماله وعرضه ، كانت حياة طيبة ، فماذا صنع الناس حينما تدفقت عليهم الثروات ، ووسع الله عليهم فى الرزق ، وأفاء عليهم من فضله ، وفجر الأرض تحت

---

(١) النحل : ١١٢ . (٢) إبراهيم : ٧ . (٣) النحل : ٩٧ .

أقدامهم بالذهب الأسود ، ماذا فعل الناس إزاء هذه النعمة ؟ هل حفظوها ؟ هل بقوا كما كانوا من قبل ؟ أم أصبحنا نسمع ونرى ونقرأ ، ما يصنعه أصحاب الثروات، الذين يلعبون بالملايين فى بلاد الكفر ، وينفقونها فى الخمر والميسر والنساء؟ ضيعوا الأموال ، وضيعوا الحقوق : حق الله وحق عباده ، فضاع كل شيء بعد هذا .

إن المعصية شؤم على الفرد ، شؤم على الجماعة ، شؤم على الناس جميعًا ، شؤم على البهائم والكائنات الحية جمعاء ، حتى قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ! وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتد القحط وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم !

وللإمام ابن القيم كتاب عن (الداء والدواء) [1] ذكر فيه من الآثار السيئة للمعاصى ما يزيد على المائة ، وهو كتاب ينبغى أن يقرأ ، حذرًا من عواقب المعصية وشؤمها فى الدنيا قبل الآخرة .

ومن هنا ينبغى أن يرجع الناس إلى الله ، وأن يقولوا كما قال الربانيون : ﴿ . . .رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [2] ، حينما أصاب الربانيون فى القتال ، وقتل منهم من قتل ، لم يهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، ولم يضعفوا ، ولم يستكينوا ، ولكنهم حينما دعوا الله ماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ ، اتهموا أنفسهم ، فيجب على الناس أن يتهموا أنفسهم ، وأن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، سنة من سنن الله لا تتبدل ، وقانون من قوانينه لا يتغير ، اسمعوا قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

لو آمن الناس واتقوا واستقاموا ، لتنزلت عليهم البركات من السماء ومن

---

(١) وله عنوان آخر هو : (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) ، وقد سبق التعريف به فى ص ٣٨ .

(٢) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) الأنفال : ٥٣ .

الأرض، من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، هذا هو قانون الله الذى سجله فى كتابه ، اسمعوا معى هذه الآيات : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ... ﴾ (١) ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... ﴾ (٣) ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (٤) .

هذا هو قانون الله : لو آمن الناس واستقاموا واتقوا ، لتفتحت عليهم بركات السماء والأرض ، ولازدادوا كل يوم من نعم الله ، ولكن كذبوا ، ولكن فجروا ، ولكن كفروا بالنعمة ، وبطروا بها ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، فجاءتهم النذر، نذر بعد نذر ، تنبههم أن مالك الملك ، وخالق الخلق ، ومدبر الأمر ، يمكن أن يغير حالهم ، لا تظنوا أن الأمور تجرى كما تشاؤون ، لا ، هناك قدر أعلى ، هناك من ينظم هذا الكون ، هناك إله عظيم ، يحكم لكل بما يستحق ، وعلى كل بما يستحق .

فينبغى أن يتنبه الناس لهذه النذر ، ينبغى أن يربط الناس بين ما يصيبهم وبين ما يصنعون ، هذا هو شأن الإنسان المسلم ، الإنسان الصادق مع نفسه ، الصادق مع ربه .

إذا آمن الناس واتقوا ، تنزلت عليهم البركات ، أما إذا لم يؤمنوا ولم يتقوا ، فلن تتنزل عليهم البركات ، وإنما تتنزل عليهم اللعنات ، فالمعصية ليس وراءها إلا اللعنات .

لقد لعن الله فى كتابه أناساً من الناس ، لعن الذين يفسدون فى الأرض ، ويقطعون أرحامهم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٥) ، لعن

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣ . (٢) الطلاق : ٤ . (٣) المائدة : ٦٥ - ٦٦ .
(٤) الجن : ١٦ . (٥) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب (١) ، لعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات (٢) ، لعن كثيرين من أهل المعاصى ، لعن الظالمين ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) ، لعن الكاذبين ﴿ ... ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(٤) .

ولعن رسول الله ﷺ فيما صح عنه من الأحاديث كثيرين ، لعن شارب الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها ، لعن فيها عشرة(٥) ، لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه (٦) ، لعن الواصلة والمستوصلة(٧) ، والواشمة والمستوشمة (٨) والنامصة والمتنمصة (٩) ، والمغيرات

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ٢٣] .

(٣) هود : ١٨ .　　(٤) آل عمران : ٦١ .

(٥) روى أنس رضى الله عنه : « لعن الرسول ﷺ فى الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترى لها ، والمشترى له » رواه ابن ماجه ، والترمذى واللفظ له ، وقال : غريب من حديث أنس ، وقد روى نحو هذا عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر عن النبى ﷺ ، فالحديث صحيح بشواهده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٦٥٢ ،الحديث ١٤٠١).

(٦) روى جابر رضى الله عنه : « لعن النبى ﷺ : آكل الربا ، ومؤكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال هم سواء » رواه مسلم وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٥٣٤، الحديث ١٠٥٦) .

(٧) الواصلة : التى تصل الشعر بشعر النساء ، والمستوصلة : المعمول بها ذلك .

(٨) الواشمة : التى تغرز اليد أو الوجه بالإبر ، ثم تحشى ذلك المكان بكحل أو نحوه ، والمستوشمة : المعمول بها ذلك .

(٩) النامصة : التى تنقش الحاجب حتى ترقه ، والمتنمصة : المعمول بها ذلك ، وقد ورد ذكر هؤلاء فى حديث لابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعنت الواصلة والمستوصلة ، والنامصة والمتنمصة ، والواشمة والمستوشمة من غير داء » رواه أبو داود وغيره ، وهذا الحديث وما فى معناه ، يدل على تحريم الشعر الصناعى ، الذى يسمى فى عصرنا : (الباروكة) ، =

خلق الله ، لعن الراشى والمرتشى والرائش [(١)] ، لعن ولعن عشرات من الناس ، تنظر إليهم فنراهم حولنا ، بل لو نظرنا إلى أنفسنا ، لو نظر كل منا إلى نفسه ، لوجدها بوجه من الوجوه ، تستحق شيئًا من هذه اللعنات والعياذ بالله .

فما الحال فى أمة ملعونة ، مجتمع تتنزل عليه لعنات الله ، ويحرم من بركات السماء ؟ .

إن على الناس أن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وأن الله لا يغفل عما يفعل الظالمون ، وعما يقترفه العاصون ، ولكنه يمهلهم ، ثم يذكرهم ، يذكرهم ببعض العقوبات كما قال عز وجل : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [(٢)] .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ فى كل مكان ، فى القرى والمدن ، فى الشرق والغرب ، فى الداخل وعلى السواحل ، الفساد هو العقوبات الإلهية : الغلاء، البلاء ، المرض ، القحط ، الخوف ، الرعب . بماذا ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾: أى أن هذا إنما ينزل بسبب معاصى الناس وذنوبهم ، ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا﴾: إنه لا يجازيهم بكل ما عملوا ، وإلا لزلزل بهم الأرض ، أو أنزل

= ويستثنى منه ما إذا أصاب المرأة ما يشوهها ويؤذيها ، كالصلع أو ما يقرب منه ، نظرًا للضرورة، وانتفاء التدليس والله أعلم ، كما يقاس على قوله : « من غير داء » عمليات التجميل لغير حاجة موجبة ، بل لزيادة الحسن ، نقلاً عن تعليق الشيخ على الحديث ١٢٢٩ ، فى كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب ، ٥٩١ - ٥٩٢) بتصرف .

(١) الراشى : هو الذى يبذل المال ليتوصل به إلى الباطل : والمرتشى : آخذ الرشوة ، والرائش : هو الذى يسعى بينهما ، وورد ذكرهم فى حديث لأبى هريرة رضى الله عنه قال : «لعن رسول الله ﷺ : الراشى ، والمرتشى فى الحكم » رواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الصغير ورجاله ثقات ، وزادوا : «والرائش » ، وهذا الحديث وما شابهه يدل على القاعدة الإسلامية : إن الإسلام إذا حرم شيئًا، حرم كل ما يفضى إليه ويساعد عليه ، وانظر : (المنتقى : ٢/٦١٨ ، باب : ترهيب الراشى، والمرتشى ، والساعى بينهما) .

(٢) الروم : ٤١ .

عليهم كسفًا من السماء ، أو أغرقهم بطوفان ، إن الله لا يؤاخذ بكل الأعمال ، ولا بكل الذنوب ، بل ببعضها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) ، ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢) ، حتى الشوكة تشاكونها ، هى بسبب ما كسبت أيديكم : ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ : لا يحاسب على كل شىء ، ولا يؤاخذ بكل شىء .

لا بد أن يسأل الإنسان نفسه : لماذا أصابنى ما أصابنى ؟ كما سأل الصحابة أنفسهم بعد غزوة أحد ، حينما خالفوا ما أمرهم به النبى ﷺ ، وتركوا ظهرهم للمشركين، فكان أن قتل سبعون من خيارهم ، فلما سألوا أنفسهم ردّ عليهم القرآن: ﴿ أَو لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

هكذا ينبغى أن نحاسب أنفسنا أيها الإخوة المسلمون . ينبغى أن ننظر فيما حولنا، وفيما جد من أمورنا ، فنقول : ماذا حدث ؟ ما الذى جرى ؟ ما هذه المقادير السريعة التقلب ؟ أى شىء صنعناه ؟ هل نحن ملائكة مقربون وعاقبنا القدر بما لا نستحق ؟ أم فرطنا وقصرنا وخالفنا ؟ وهل تكفينا هذه النذر لنرجع ونصطلح على الله ، ونضع أيدينا فى يد الله ؟ أم سنظل فى الطريق الشيطانى سادرين ؟

إنها فرصة للتوبة ، وقد قال الصحابة رضى الله عنهم : ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة .

إن العالم كله الآن يشكو الثمر المر ، من جراء الانحراف عن القيم الدينية والخلقية ، التى جاء بها الأنبياء وعلى رأسهم خاتمهم : محمد ﷺ .

نشرت الصحف فى الآونة الأخيرة : ما يشكوه الناس فى أوربا وأمريكا ،

---

(١) النحل : ٦١ . (٢) الشورى : ٣٠ . (٣) آل عمران : ١٦٥ .

من أمراض جنسية تناسلية تهدد البشر ، نتيجة الفوضى الجنسية ، أو ما سموه : (الثورة الجنسية) التى ظهرت فى الستينات ، واستباح بها الناس كل شىء ، واعتبروا العلاقة بين الرجل والمرأة كلاً مباحًا ، فكانت النتيجة ما يشكونه اليوم : مرض يسمى (الإيدز) يهدد الجميع ، الملايين من البشر رجالاً ونساءً فى أمريكا مصابون أو مهددون بهذا المرض ، الذى يفقد الناس المناعة ، وأمراض أخرى تجعلهم معرضين للسرطان ، سرطان المرأة فى عنق الرحم ، والرجل فى البروستاتا ، وأمراض أخرى كثيرة تهدد هؤلاء ، وتنتقل بالعدوى ، وهذا المرض الذى يسمى (الإيدز) يمكن أن ينتقل عن طريق نقل الدم ، ولم يجدوا له - حتى الآن - أى دواء.

أمراض معضلة أصابت الناس نتيجة انحرافهم ، وهذا يؤكد لنا قول الله تعالى : ﴿ . . . وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) ، وقول النبى ﷺ: « لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا » (٢) ، الطاعون يشير إلى الأوبئة الجماعية ، والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، أمراض لم يعرفها من قبلهم، إنما هى أمراض نتيجة الإباحية .

ومن العجب أن هذه الإباحية التى يشكو منها الغرب اليوم ، تنتقل إلى بلادنا ، لا ننقل عن القوم العلم ، ولا التكنولوجيا ، ولا حسن التنظيم ، إنما ننقل عنهم أسوأ ما عندهم ، ندع خير ما عند القوم ، وننقل شر ما عندهم ، أرأيتم أين نحن أيها المسلمون ؟

إلى متى نظل على هذه الحال ؟

---

(١) الإسراء : ٣٢ .

(٢) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبزار والبيهقى من حديث ابن عمر ، ورواه الحاكم أيضًا ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٣٩٩ ، ١٤٣٣) .

قد جاءتنا النذر فهل نفيق ؟ هل نرجع ؟ هل نتوب ؟ هل نقول : ﴿ . . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

نرجو أن نكون كذلك ، اللهم اجعلنا من التوابين ، واجعلنا من المتطهرين واستغفروا ربكم ، إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

أحب أن أنبه أخواتنا المصليات تنبيهًا لا بد منه :

إنه ليسرنا أن تحرص المرأة المسلمة على الصلاة ، ولا بأس أن تحضر المساجد لتشارك فى العبادة ، وتستمع إلى الموعظة ، فالمرأة نصف المجتمع ، ومن حقها أن تتفقه فى دينها ، وأن تتذكر ما يجب عليها ، والذكرى تنفع المؤمنين ، ولقد قال النبى ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (٢) .

وإنى من الذين يدعون أن يكون فى كل جامع من الجوامع ، مكان للمرأة المسلمة تصلى فيه ، وتنتفع فيه بالعلم كما ينتفع الرجال ، وبخاصة أن فقهاءنا قالوا : إن المرأة التى لا تذهب إلى المسجد يجب على زوجها أن يعلمها ، ويجب على أبيها أن يفقهها ، حتى يمكنها أن تستغنى بالبيت عن المسجد ، ولكن إذا كان الزوج غير قادر على التعليم ، وكان الأب غير قادر على التفقيه ، فمن أين تتعلم المرأة وتتفقه فى دينها ؟ فقد مضى زمن كان الرجل فى حاجة إلى من يعلمه ويفقهه ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، وقد ضل من كانت العميان تهديه !

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم من حديث ابن عمر ، وأبو داود من حديث أبى هريرة وسنده حسن ، وهو فى الموطأ ، وتتمة الحديث عند أبى داود : « وليخرجن تفلات» أى غير متطيبات (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٣/٤٣٨ ، الحديث ٨٦٠).

وهناك تنبيه خاص بالأخوات المصليات ، ففى الحديث الصحيح : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت - والإمام يخطب - فقد لغوت » [(١)] ، أذهب أجره وأبطل ثوابه ، حتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجوز ، لأن كل إنسان إذا أعطى نفسه الحق فى أن يأمر وينهى ، لم يكن من وراء ذلك إلا الضجيج والتشويش، فأولى بكل إنسان أن يسكت .

فلا يجوز لأخواتنا المؤمنات ، اللاتى يحضرن إلى هذا المسجد ، أن يشوشن على أخواتهن .

إن للمساجد آدابًا ، وإن للجمعة آدابًا ، وإن لهذا الأماكن حرمات ، فينبغى أن نصونها ، ونسعى إليها .

شىء آخر أريد أن أنبه عليه : وهو أن المسلم كلما ذهب مبكرًا إلى صلاة الجمعة، كان ذلك أفضل له عند الله ، وفى الحديث : « إذا كان يوم الجمعة ، وقفت الملائكة على باب المسجد ، يكتبون الأول فالأول ، ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنه ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشًا ، ثم دجاجة ، ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر » [(٢)] ، أى طووا سجل الدوام ، ومن جاء بعد ذلك جاء متأخرًا .

---

(١) رواه البخارى ،ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة وقوله : « لغوت » قيل معناه خبت من الأجر ، وقيل تكلمت ، وقيل أخطأت ، وقيل بطلت فضيلة جمعتك ، وقيل : صارت جمعتك ظهرًا ، وقيل غير ذلك (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٤٧ ، الحديث ٣٧٧) .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه ، وابن خزيمة فى صحيحه بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ١/ ٢٤٥ ، الحديث ٣٧٤) ، والثواب المذكور فى الحديث هو ثواب التهجير أو التبكير إلى صلاة الجمعة ، لأنه من المسارعة فى الخيرات ، ومن المؤسف أن كثيرًا من المسلمين لا يحصلون يوم الجمعة على شىء من الثواب المذكور ، لا بدنة ولا حتى بيضة ، فهم يأتون المسجد والإمام يخطب ، وربما فى الخطبة الثانية ، وربما تحمل كثير من الخطباء تبعة هذا التأخير ، لأنهم لا يقولون للناس شيئًا ينفعهم ، غير أن المكث فى المسجد عبادة فى حد ذاته ، فالمرء فى صلاة ما دام ينتظر الصلاة ، وانظر : الترغيب فى التبكير إلى الجمعة وما جاء فيمن يتأخر عن التبكير من غير عذر ، من كتاب : (المنتقى : ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦) .

ومن جاء متأخرًا والإمام يخطب ، فعليه أن يصلى ركعتين خفيفتين ، صحيح أنه سيحرم من الخطبة ، أو من بعضها ، ولكن هو الذى أساء إلى نفسه بالتأخير ، وقد قال النبى ﷺ لمن جاء متأخرً وهو يخطب : « أصليت » ؟ قال : لا ، قال : «فصل ركعتين » [1] ، قال ذلك لسليك الغطفانى [2] ، وأمره أن يتجوز فيهما ، أى لا يطيلهما .

هذه بعض آداب الجمعة ، نسأل الله عز وجل أن يفقهنا فى ديننا ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدًا .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى ، واجعلنا من حزبك الغالبين ، وجندك الصادقين ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين .

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن ، وانصر إخواننا المجاهدين فى كل مكان ، وخذ بأيدى إخواننا المضطهدين والممتحنين فى سائر البلاد يا رب العالمين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [3] .

---

(١) أخرجه البخارى ، ومسلم ، والشافعى ، وأحمد ، والترمذى (شرح السنة) للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (٤/٢٦٣) .

(٢) ورد اسمه فى رواية عن جابر قال : جاء سليك الغطفانى يوم الجمعة وهو - أي النبى ﷺ - يخطب ، فجلس ، فقال له : « يا سليك قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما » ثم قال : «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أخرجه مسلم (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٤/ ٢٦٤) .

(٣) آل عمران : ١٤٧ .

عباد الله ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (١) ، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

زلزال مصر [1]

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

مررت وأنا عائد من فرنسا لافتتاح الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية ، مررت بالقاهرة ، بعد أن حدث ذلك الزلزال الرهيب الرعيب ، الذى زلزل العمران والمبانى ، وزلزل معها القلوب والأنفس .

زلزل الناس زلزالاً شديدًا أمام هذا الحدث الغريب الذى لم يعهدوا مثله ، ووقف الناس يتساءلون : ما بال هذا الزلزال ؟ أهناك علاقة بين ما يحدثه الناس وبين الأحداث التى تحدث بهم ؟ أهناك علاقة سببية بين المعاصى والمفاسد التى تقع من البشر ، وبين ما ينزل بهم من كوارث يسميها الناس : كوارث طبيعية ؟

وقف الناس يتساءلون ، فمنهم من قال : هذه كوارث طبيعية ، تحدث فى كل بلاد الدنيا ، تنزل بالمؤمنين والكفار ، والمتقين والفجار ، ولا علاقة لها بطاعة ولا معصية ، ولا باستقامة ولا انحراف ، ما بالكم تربطون كل شىء بالدين ، وتريدون أن تدخلوه فى هذه المسألة ؟

وهناك من يقول : لا ، إن هذه الكوارث التى تنزل ، لا تنزل اعتباطًا ، ولا تقع جزافاً ، إن هذا الكون فى قبضة الله تبارك وتعالى ، يدبر أمره ويعلم كل صغيرة وكبيرة فيه ﴿ . . . وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .

هذا الكون لا يسير عبثًا ، إن الله هو الذى يسيره ، إن الله هو الذى يقدر كل ما فيه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [3] ﴿ . . . وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [4] .

---

(١) هو الزلزال الذى وقع فى مصر فى ١٢ من أكتوبر عام ١٩٩٢ م ، وقد صاغ الأستاذ القرضاوى فى تلك الحادثة شعرًا نشر فى ديوانه : المسلمون قادمون (ص ١٠٣ - ١٠٦) .

(٢) الأنعام : ٥٩ . (٣) القمر : ٤٩ . (٤) الفرقان : ٢ .

كل ما يجرى فى العالم العلوى ، أو فى العالم السفلى ، كل ما تمور به الأرض، وكل ما يتحرك فى السماء ، كل نبتة تنبت ، كل نجم يطلع ، وكل ذرة فى هذا الوجود ، كلها بإذن الله تعالى وتقديره .

هذا الكون من الذرة إلى المجرة فى يد الله تبارك وتعالى ، فإذا أخرج بعض الأحداث من حيز العدم إلى حيز الوجود ، فلا بد من أن وراء ذلك حكمة .

الله هو الذى يزلزل الأرض ، الله هو الذى يجرى الأنهار ، الله هو الذى يرسل الرياح ، ولكن لماذا يظهر الزلزال فى وقت دون وقت ، وفى مكان دون مكان ، وبمقدار معين دون آخر ، لماذا ظهر هنا فى هذا المكان وظهر فى هذا الزمان ، وظهر بقوة (خمسة وكذا من عشرة) ، واستمر كذا وكذا ثانية الله الذى يقدر ذلك ، ولا يفعل الله شيئًا عبثًا ، لا يفعل شيئًا إلا لحكمة ارتضاها ، هذا ما يعتقده المؤمنون .

الغربيون وتلاميذهم يعتقدون أن الله بمعزل عما يجرى فى الكون ، حتى الذين يعتقدون أن الله هو خالق الكون قالوا : إن الله خلق الكون وتركه ، كهذه الساعة فى يدنا ، صنعتها مصانع سويسرا ولا تدرى ماذا حدث بعد ذلك ، هى تقف وحدها . . . تتحرك ، لا يعلم صانعها عنها شيئًا ، هكذا يقولون عن العلاقة بين الله والعالم .

ولكن هذا مناف كل المنافاة للعقيدة الإسلامية ، نحن نعتقد أن الكون فى قبضة خالقه ومدبره ، الصغيرة والكبيرة فيه تجرى بأمره ، وهو بهذا إذا حدث فيه شيء ، فلا بد أن الله تعالى أحدثه لسبب ، لحكمة .

هذه الزلازل التى نراها فى أماكن شتى ، تكون أحيانًا ضعيفة ، وتكون أحيانًا قوية ، تكون أحيانًا خفيفة ، وأحيانًا عنيفة ، أحيانًا تأتى وتدمر ، وأحيانًا تكون هزة لا تؤثر .

هذه الفيضانات التى تغرق الناس ، وتغرق المساكن ، وتهدم البيوت ، هذه الرياح الهوج ، التى لم يسلم منها بلد مثل أمريكا وغيرها ، هذه البراكين التى تنفجر وتثور ، دون أن يستطيع أحد إيقافها ، هذه الكوارث التى يقول الناس عنها : طبيعية ، وبعضهم يقول : إن هذا من غضب الطبيعة . . . الطبيعة غضبت ، وما هذه الطبيعة الصماء الخرساء ؟ إن الطبيعة لا تغضب ، الطبيعة لا تسير نفسها .

الذى يسير الطبيعة ويسير الكون كله هو الله تبارك وتعالى ، وهو سبحانه حينما يجرى هذه الأحداث يجريها بأقدار .

وهنا يقف المؤمنون أمام هذه الأحداث وقفة تأمل وتدبر وعظة واعتبار ، فالمؤمن يعتبر بكل شىء ، ويتعظ من كل حدث ، ويأخذ منه درسه ، ولا يمر عليه بأذن صماء ، ولا بعين عمياء ، ولا بقلب أغلف ، إنما يفتح له أذنه ، ويفتح له عينه ، ويفتح لهذا الحدث قلبه ، ليعتبر ويتعظ .

إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يلقننا دروسًا بمثل هذا الحديث ، أراد أن يعلمنا أن هذا ابتلاء ، فحياة الإنسان قائمة على الابتلاء : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ... ﴾ (1) ﴿ ... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(2) .

يبتلى الإنسان بالشر ويبتلى بالخير ، وقد يأتى الشر بالخير ، ورب ضارة نافعة ، وكم من منحة فى طى محنة ، قد تأتى بعض الكوارث بأشياء طيبة ينتفع منها الناس إذا أحسنوا الانتفاع وتلقنوا الدرس جيدًا .

هو ابتلاء ، والله يبتلى الناس جميعًا ، كافرهم ومؤمنهم ، وقد يبتلى المؤمنين بأكثر مما يبتلى الكافرين ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(3)، هذه واحدة .

حكمة ثانية هنا : أن فى هذا الحدث تنبيهًا للناس ، تنبيهًا للغافلين ، وإيقاظًا للنائمين ، أراد الله أن ينبههم إلى أشياء :

أن ينبههم على طلاقة القدرة الإلهية ، ونفوذ المشيئة الإلهية ، أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنه يقول له : كن فيكون ، تتزلزل الأرض ، وتهيج الرياح ، وتفيض المياه ، وتغرق الأنهار والبحار ، ويتحرك كل شىء أراده الله تعالى أن يتحرك، يسكن كل شىء أراد الله تعالى أن يسكن ، لا بد للناس أن يعرفوا مدى طلاقة القدرة الإلهية التى لا يعجزها شىء .

---

(1) الإنسان : 2 . (2) الأنبياء : 35 . (3) العنكبوت : 2 .

ومن ناحية أخرى تنبيه للإنسان على أن يعرف حجمه فى هذا الكون ، أيها الإنسان: ما أنت ؟ أيها المغرور بنفسك . . . أيها الثانى لعطفك . . . أيها المصعر لخدك . . . أيها المتمطى برأسك : ما أنت فى هذا الكون ؟ أنت لست شيئًا مذكورًا، لا تعرف ماذا يحدث لك بعد لحظة .

الإنسان الذى استطاع أن يفعل ما يفعل ، الإنسان فى الغرب ، فى أمريكا ، فى غيرها ، صنع الكمبيوتر ، وغزا الفضاء ، ووصل إلى القمر ووقف على سطحه ، ويحاول أن يصعد إلى كواكب أخرى ، ولكن أمام هذه الأحداث لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، يمكنه أن يقول : هناك احتمال لزلزال يقع ، ولكن متى يحدث بالضبط ؟ وفى أى مكان بالضبط ؟ وما مقدار قوته بالضبط ؟ لا يستطيع أن يعلم ذلك ﴿. . .ومَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ (1) .

ينبغى أن يعرف الإنسان حجمه ، ويعرف مدى قوته ، الإنسان المغرور ، المختال الفخور ، ينبغى أن يعلم : هذا هو شأنه فى هذا الوجود ، إنه لا يملك هذا الكون.

كان الغربيون يقولون : استطاع الإنسان بالعلم أن يقهر الطبيعة ، ويقهر الكون المادى من حوله ، وكذبوا ، ما استطاع الإنسان أن يقهر الطبيعة .

استطاع أن يذلل كثيرًا حسب قوانين التسخير الإلهى لهذا الكون ، لأنه سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ، ولكن تظل هذه الطبيعة وهذا الكون أقوى منه ، يقف أمامها عاجزًا مشلولاً لا يستطيع أن يصنع شيئًا ، هذا هو الإنسان .

كان الإمام على رضى الله عنه يقول : مسكين ابن آدم ، تؤلمه البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة » ، البقة حشرة صغيرة تؤلمه ، والآن عرفنا أن ميكروبًا . . . فيروسًا صغيرًا يستطيع أن يمرض الإنسان وأن يقتله ، وهو شىء لا يرى إلا بتكبيره ملايين المرات ، وتقتله الشرقة إذا شرق . . . يقتل بالذبحة . . . يقتل بالسكتة . . . يموت فى لحظة . وتنتنه العرقة : إذا عرق أنتن جسده ، وساءت رائحته ، هذا هو

(1) الإسراء : ٨٥ .

الإنسان ﴿ . . . وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (١) ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢) .

أراد الله تعالى أن يعرف الإنسان حجم نفسه ، وقدرة نفسه ، وعلم نفسه ، وأن يعلم أن القدرة كلها من الله ، وأن العلم كله منه ، وأن الحكمة كلها لله .

أراد الله تعالى أن ينبهنا أيضًا على قيمة هذه الدنيا التى يتشبث الناس بها ، ويحرصون عليها ، ويلهثون وراءها ، ويتهافتون عليها تهافت الذباب على الشراب ، أو يتقاتلون عليها تقاتل الكلاب على الجيف ، هذه الدنيا لا تساوى شيئًا ، الإنسان يكون فى بيته ولا يدرى أنه بعد قليل سينهدم به بيته ، وتزلزل الأرض من حوله ، فإذا البنيان الشاهق ينهار ، وإذا هذا الإنسان لا شىء ، وترى الناس بعد لحظات قد ماتوا ، والعمران قد خرب ، هذه هى الدنيا :

جبلت على كدر وأنت تريدها　　　صفوًا من الآلام والأكـــــدار

ومكلف الأيام ضد طباعهـــــا　　　متطلب فى الماء جذوة نــــــار

الناس يستبعدون الموت ، ويظنون أن الموت شىء بعيد ، والموت أقرب إلى أحدهم من شراك نعله .

كل امرىء مصبح فى أهلـه　　　والموت أدنى من شراك نعله

﴿ . . . وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

أراد الله تعالى أن ينبه الناس على هذا كله ، وأن ينبههم على شىء عظيم ، أراد أن يذكرهم بأمر عظيم : بزلزلة الساعة ، الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ٢٨ .　　　(٢) الشورى : ٣١ .

(٣) النحل : ٧٧ .　　　(٤) الحج : ١ ، ٢ .

زلزلة فى أقل من دقيقة ، بخمس درجات وبعض الكسور بمقياس (رختر) !!
ما بالكم إذا كانت هذه الزلزلة بمقدار عشر درجات ، أو عشرين ، أو ثلاثين ؟!
ما بالكم إذا استمرت دقيقتين ، أو ثلاثًا ، أو أربعًا ، أو عشرًا ، أو أكثر من ذلك؟!
ماذا تكون هذه الزلزلة ؟!

تلك زلزلة يوم القيامة : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ (١) : الجبال الراسيات الشامخات تبس بسًا ، وتفتت تفتيتًا ، حتى تصبح كالهباء : الذرات التى نراها فى شعاع الشمس ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (٢) : هذه الجبال تصير كالصوف المندوف ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ (٣) .

هذه زلزلة يوم القيامة ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (٤) ، هذه زلزلة الساعة ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ : زلزالها المترقب المنتظر ، الذى هو الزلزال الحقيقى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ : نفضت كل ما فيها نفضًا ، ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَالَهَا﴾ : ما الذى حدث لها ؟ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(٥) ، الله هو الذى أمرها أن تفعل ذلك ، فلم تملك إلا أن تطيع الأمر .

هذه زلزلة القيامة : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ . . . ﴾ (٦) أهناك أكثر حرصًا من الأم على طفلها ، خصوصًا إذا كان فمه فى ثديها . . . التقم الثدى ليرضع ؟ إن الله لم يقل : تذهل كل مرضع، بل قال : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، المرضع : المرأة فى وقت الرضاع، ولكن المرضعة : التى ترضع بالفعل ، أى أن طفلها كان ملتقمًا ثديها ، هنالك نسيت طفلها ، فكل إنسان لا يذكر إلا نفسه ، عند ذلك الهول العظيم كل

---

(١) الواقعة : ١ - ٦ .   (٢) القارعة : ٥ .   (٣) طه : ١٠٥ - ١٠٧ .
(٤) الحاقة : ١٤ ، ١٥ .   (٥) الزلزلة : ١ - ٥ .   (٦) الحج : ١ ، ٢ .

يقول : نفسى نفسى ، حتى الولد وفلذة الكبد تنساه الأم . . . الأم الرؤوف . . . الأم الحانية .

رأينا فى هذا الزلزال البسيط البسيط ، واليسير اليسير بالنسبة لزلزال الآخرة ، رأينا المرأة تنزل من بيتها وتنسى أن لها أطفالاً ، وحين تنزل تقول : أين أولادى ؟ ومن الناس من نزل بالملابس الداخلية ، حتى أن بعض المحلات التى تبيع الملابس كانت تلقى بها على النساء ليتسترن ، ومنهم من خرج من الحمام والصابون على جسمه ، هكذا الحياة عزيزة عند الناس .

هذا يذكرنا بيوم القيامة : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

حينما قال النبى ﷺ : « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً » قالت عائشة : الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»(٢)، من عنده - فى ذلك اليوم - عقل يفكر فى الغريزة أو فى الشهوة أو فى المرأة ؟! ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٣) .

أراد الله تعالى أن يذكرنا بمثل هذه الأحداث ، فقد نسى الناس القيامة ، مشكلة الناس أن القيامة بمعزل عن عقولهم ، كأنهم مخلدون ، وكأن الموت على غيرهم قد كتب ، العقدة عند الناس أنهم لا يفكرون فى الآخرة ، ولا يرجون لقاء الله ، وهذا هو الخطر .

---

(١) الحج : ٢ .

(٢) رواه عن عائشة البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه .

وروى الطبرانى فى الأوسط بإسناد صحيح عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة » فقالت أم سلمة : فقلت : يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ! فقال : « شغل الناس » قلت : ما أشغلهم ؟ قال : « نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل » ، وثم رواية أخرى ذكرها الطبرانى عن سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٩٢٥ - ٩٢٦).

(٣) عبس : ٣٧ .

ما أحوج الناس أن يتذكروا الآخرة ، لو تذكروا الآخرة ووضعوها نصب أعينهم ، لحلت مشكلات كثيرة ، بل لحلت المشاكل كلها .

وشيء مهم وراء هذا كله وهو الثمرة : هو تنبيه العصاة ليتوبوا ، والضالين ليهتدوا ، والمنحرفين ليستقيموا . تنبيه الناس ليرجعوا إلى الله ليقرعوا بابه ويقولوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

هذه المواقف لا بد من أن ترد الناس إلى فطرتهم ليقولوا : يا ربّ ، فمن يدرى: لعلهم فى هذه اللحظة يقضون نحبهم ، وينتهى أجلهم .

الدرس المهم : أن يتعلم الناس التوبة من العصيان ، أن يتطهروا ويغتسلوا من ذنوبهم . . . من أدرانهم . . . من أطماعهم . . . من شهواتهم ، أن يولدوا من جديد .

الناس أمام الشدائد والبلاء أصناف وأنواع :

هناك صنف عرف الله ، ووضع يده فى يد الله ، واستقام على منهج الله ، أحل الحلال وحرم الحرام ، وعرف أن الخير كل الخير فى اتباع منهج الله ، والسير خلف رسول الله ﷺ ، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون ، عرفوا الله فى الرخاء ليعرفهم فى الشدة ، كما جاء فى وصية النبى ﷺ لابن عباس : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ،تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . . . » (٢) ، هذا هو الصنف الأول ، يشعر أنه دائمًا بحاجة إلى الله فى اليسر والعسر ، فى الفقر والغنى، فى النعماء والبأساء ، فى الصحة والسقم ، فى كل حال ، يعلم أنه فقير إلى الله عز وجل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فهو دائمًا مع الله .

هناك صنف ثان : إذا كان فى عافية ورخاء استرخى ، ونسى ربه ، ولم يذكر إلا نفسه ، ولكن إذا جاءت الشدة ، إذا أحاط به البلاء ، سرعان ما يرجع إلى

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) خرجه الإمام أحمد من رواية حنش الصنعانى عن ابن عباس ، ورواه الترمذى بلفظ آخر وقال : حديث حسن صحيح ، وهو الحديث التاسع عشر من الأحاديث الأربعين النووية ، وانظر (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلى .

ربه ، ويعلم أن هذه المصيبة إنما جاءت لترده إلى الله ردا جميلاً ... لتأخذ بيده إلى الله... ليقف بين يدى ربه متضرعًا مبتهلاً ... ليتوب إلى الله توبة نصوحًا .

والله تعالى ليس على بابه حاجب ولا بواب ، من رجع إليه تلقاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] ، هذا هو الصنف الثانى ، ينسى ساعة الرخاء ، ولكن ساعة الشدة يعرف الله ، ويرجع إليه رجوعًا صادقًا ، ويستقيم على أمره ويثبت عليه .

وصنف ثالث : وهو الذى ينسى الله فى الرخاء ، ويذكره ساعة الشدة ، حتى إذا ما انفرجت الأزمة ، وحتى إذا ما ذهبت الغمة ، عاد إلى طريق الضلال ثانيًا ، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وهذا شأن المشركين الذين حدث الله عنهم فقال : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[2] .

ولأنهم دعوا الله مخلصين له الدين استجاب الله لهم ، لأنهم فى هذه اللحظات رجعوا إلى الفطرة السوية ، ونسوا هبل واللات والعزى والأوثان ، والأصنام : ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴾[3] هكذا شأن هؤلاء يعرفون الله ساعة الشدة وبعد ذلك يرجع كل شىء إلى ما كان عليه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُواْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[4] .

وهناك صنف أسوأ من هذا الصنف : صنف قسا قلبه حتى أصبح كالحجارة أو أشد قسوة ، تنزل به البلايا ، وتحيط به المصائب والكوارث ، ولكنه لا يقول : يا رب

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .
(٢) يونس : ٢٢ .
(٣) يونس : ٢٣ .
(٤) الزمر : ٨ .

يارب ، كأولئك الملاحدة والجاحدين الذين أنكروا على من ربط هذا الحادث بالدين، وأنه وقع بسبب المعاصى ، فقالوا : ما هذا الفكر الخرافى ؟ ما هذا الضلال؟

هؤلاء الناس لم يستطيعوا أن يفهموا الدرس ، ولذلك يقول الله فى أمثالهم : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (١) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

من فضل الله تبارك وتعالى أنه حينما ينزل بالناس البأساء والضراء ، لا يريد أن ينتقم منهم ، ولكن ليعلمهم . . . لينبههم . . . ليذكرهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣) ، الفساد هنا : يعنى اختلال أمر الحياة . . . المصائب . . . الكوارث. . . الغلاء . . . البلاء . . . الأمراض . . . الأوجاع . . . التلوث ، وهذا الفساد بماذا يقع ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ بمعاصيهم . . . بذنوبهم ، ولماذا يقع : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ ، أى أن الله لا يجزيهم بكل ما عملوا، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾(٤) إنما يؤاخذهم ببعض ما عملوا ، ولماذا يؤاخذهم ببعض ما عملوا ؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عسى أن يفهموا الدرس ، لعلهم يرجعون ، لعلهم يتوبون .

كان بعض السلف إذا أصابه أدنى شيء ، يقول : هذا بشؤم معصيتى ، حتى إذا كشرت امرأته فى وجهه ، أو تخانقت معه فى أمر من أمور البيت ، قال : ما الذى جعل المرأة تفعل معى كذا وكذا هذا اليوم ، لا بد أنى قد ارتكبت معصية ، إذا حرنت عليه دابته يقول : لا بد أنى ارتكبت مخالفة ، قال بعضهم : إنى لأعرف شؤم معصيتى فى سوء خلق دابتى .

---

(١) المؤمنون : ٧٦ .
(٢) الأنعام : ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) الروم : ٤١ .
(٤) النحل : ٦١ .

هكذا أصحاب القلوب . . . أصحاب البصائر . . . أصحاب الحس المرهف ، يردّون الأمر إلى أنفسهم ، كما قال الله تعالى عن الربانيين حينما هزموا فى المعركة: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [(١)] . قبل أن يسألوا النصر والتثبيت ، سألوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم فى أمرهم ، فلا بد أنهم فرطوا أو قصروا، هذا هو شأن الإنسان المؤمن ، يرجع باللائمة على نفسه .

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [(٢)] ، ولكن صنفًا من الناس تنزل بهم الشدائد ولا يرجعون . . . ولا يتوبون ، ولا يتضرعون . . . لا يقولون : يا رب ، يقولون كل شيء إلا الله تبارك وتعالى ، يقول الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[(٣)]، أصحاب القلوب القاسية ، الحجرية هذه ، لا تنفع فيها الشدائد ولا غير الشدائد والعياذ بالله .

يا أيها الإخوة : هذه المصائب والأحداث التى يجريها علينا العزيز الجبار ، الواحد القهار ، جديرة بأن توقظ الناس من سباتهم . . . أن تنبههم إلى ما فيها من دروس وعبر ، حتى يفيقوا ويرجعوا إلى الله تبارك وتعالى .

حينما مررت بمصر سألنى بعض الأقارب فقالوا : كنا فى ذلك الوقت لا نعرف ماذا نقول : أليس هناك أذكار أو أدعية نقولها عند الشدة ؟

قلت : هناك الكثير الكثير جدًا ، هناك أدعية وأذكار تسمى (أذكار الكرب) و(أدعية الكرب) ، يلجأ الإنسان إليها حينما ينزل به كرب خاص ، أو ينزل بالأمة كرب عام ، منها ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ، ورب الأرض ، رب العرش الكريم»[(٤)]،

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .   (٢) الروم : ٤١ .   (٣) الأنعام : ٤٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات : باب الدعاء عند الكرب ، ومسلم فى الذكر والدعاء : باب دعاء الكرب .

وفى جامع الترمذى عن أنس ، أن رسول الله ﷺ ، كان إذا حزبه أمر ، قال : « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » [1] ، وعن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ ، كان إذا أهمه الأمر ، رفع طرفه إلى السماء فقال : « سبحان الله العظيم » ، وإذا اجتهد فى الدعاء قال : « يا حى يا قيوم » [2] .

روى سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ قال : « دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت ﴿ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب اللهُ له » [3] ، حينماَ التقمه الحوت نادى فى الظلمات : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر ، فى وسط هذه الظلمات لم يطلب النجاة لنفسه ، ولكنه قال : ﴿ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فنجاه الله ولفظه الحوت ، سأل رجل النبى ﷺ فقال [4]: يا رسولَ الله، هل كانت ليونس خاصة ، أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمع إلى قول الله - عز وجل - : ﴿ . . . وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ﴾[5] .

المؤمنون إذا لجأوا إلى الله موحدين : ﴿ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ ﴾ مسبحين منزهين : ﴿سُبْحَانَكَ ﴾ معترفين بالتقصير ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإن الله يفرّج عنهم .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات ، وفى سنده يزيد بن أبان الرقاشى ، وهو ضعيف (زاد المعاد بتحقيق كل من : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، ٤/١٩٧) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : باب ما يقول عند الكرب ، وفى سنده إبراهيم ابن الفضل المخزومى ، وهو متروك (زاد المعاد : ٤/١٩٧) .

(٣) رواه الترمذى ، واللفظ له ، والنسائى ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى ، وذكره ابن كثير فى تفسيره وعزاه للمسند ، وللنسائى فى (اليوم والليلة) ، وصحح شاكر إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٤٧٦ ، الحديث ٩٢٢) .

(٤) هذه الزيادة فى رواية الحاكم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٩٢٢ ، ١٠٤١) .

(٥) الأنبياء : ٨٨ .

أدعية الكرب كثيرة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، الاستغفار [١] . ويكفى الإنسان إذا لم يتذكر شيئًا أن يقول : يا رب . . . يا رب يا رب يا حى يا قيوم . . . يا الله يا الله . . . سبحان الله . . . الحمد لله . . . لا إله إلا الله . . . الله أكبر [٢] .

هذا ما ينبغى أن يشغل به المؤمن نفسه فى ساعة الشدة ، أما أن يفعل ما يفعله بعض الناس ، صراخ وولولة ، فهذا ليس من شأن المؤمنين .

لا بد من أن يتربى الإنسان التربية التى يواجه بها الشدائد برباطة جأش ، وباللجوء إلى الله تبارك وتعالى ، وليس هناك إلا الله فى مثل هذه المواقف .

هذه دروس تعلمناها من هذه الكارثة ، وتعلمنا أن هناك أناسًا - للأسف - يتاجرون فى أرواح الناس ، فمعظم الذين ماتوا إنما ماتوا بأولئك الطامعين من المهندسين والمقاولين ، الذين يبنون بنايات لا يراعون فيها ما ينبغى أن تكون عليه ، ليكسبوا من وراء ذلك وإن مات الناس وهلكوا ، هؤلاء الذين يتقاتلون على جيفة الدنيا ، ولا يبالون بما يصيب الخلق ، ينبغى أن يراجعوا أنفسهم .

يا أيها الإخوة : هذه الأمة لا يصلحها إلا الدين ، الدين هو الذى يصنع أخلاقها، ويحيى ضمائرها ، ويربطها بالله تعالى وبالآخرة ، هذا الدين هو الذى يستطيع وحده أن يحيى الأمة ويجعل منها خير أمة أخرجت للناس .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يلطف بنا فى قضائه وقدره ،وأن يذهب عنا شر الزلازل والنوازل ، وأن يقينا ما ظهر منها وما بطن ، وألا يهلكنا بما فعل السفهاء منا، اللهم آمين .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، إنه سميع قريب ، فاستغفروه يغفر لكم.

* * *

---

(١) مما جاء فى فضله حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كلّ ضيق مخرجًا ، ورزقه منْ حيث لا يحتسب » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، كلهم من رواية الحكم بن مصعب ، قال الذهبى : والحكم فيه جهالة ، وقال المنذرى فى مختصر السنن : لا يحتج به ، ودافع عنه الشيخ شاكر فى تخريجه للمسند ، وصحح إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٤٦٩/١ ، الحديث ٩٠٥) .

(٢) انظر فى فضل هذه الكلمات وما ورد فيها من ترغيب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : كتاب الذكر والدعاء) .

● الخطبة الثانية :

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية ، فى ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا ، وعن شمائلنا ، ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا .

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وقلوبنا على التقى ، وأنفسنا على الحب فيك ، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل .

اللهم لا تجعل للشيطان على أنفسنا سبيلاً .

اللهم أعنا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا ، وتب علينا توبة نصوحًا .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا ، وارفع مقتك وغضبك عنا ، وآمنا فى أوطاننا ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا ، سخاء رخاء ، وسائر بلادّ المسلمين .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

اللهم انصر إخواننا فى فلسطين ، وانصر إخواننا فى البوسنة والهرسك ، وانصر إخواننا فى جامو وكشمير ،وانصر إخواننا فى كل مكان يقاتلون فيه ، وانصر إخواننا المضطهدين المعذبين .

اللهم فك بقوتك أسرهم ، واجبر برحمتك كسرهم ، وتول بعنايتك أمرهم .

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .

﴿ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [2] .

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ ... وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [3] .

* * *

(١) الحشر : ١٠ .	(٢) الأحزاب : ٥٦ .	(٣) العنكبوت : ٤٥ .

مرض الإيدز
٢٣/ ٤/ ١٤٠٩ هـ
٢/ ١٢/ ١٩٨٨ م

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

حضرت فى الأسبوع الماضى مؤتمرًا للطب الإسلامى فى القاهرة ، عقدته المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية فى الكويت ، بالتعاون مع الأزهر الشريف ، ومع نقابة الأطباء فى مصر .

وكان مما لفت النظر فى هذا المؤتمر موضوع شغل العالم اليوم ، وهو ما يسمى بـ (الإيدز) ، والإيدز حروف لكلمات تدل على مرض هو : (نقص المناعة الطبيعية والمكتسبة لدى الإنسان) ، فإن الله سبحانه وتعالى زود الجسم الإنسانى بجند من جنده : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ . . . ﴾ [1] ، هذه الجنود المجندة الخفية التى لا ترى إلا بالمجاهر - وقد لا ترى - تقاوم كل ميكروب غريب يزحف على هذا الجسم ، وإلا تعرض للهلاك من أقل ميكروب أو فيروس .

يأتى هذا المرض ليحطم هذا الجند المجند المرابط من قبل القدرة الإلهية ، وليقبض عليه ، فيصبح الإنسان فريسة لأى مرض ، يمكنه أن يهاجمه ويقضى عليه .

هذا هو المرض الذى أشير إليه باسم (الإيدز) ، وهو الذى يرعب العالم كله الآن ، وقد عرض الإخوة الأطباء الذين جاءوا من أوروبا وأمريكا ، والذين يعيشون هناك فى أعلى الاختصاصات ، وفى أرقى المراكز ، وعرضوا بالصور ، وعرضوا

---

(١) المدثر : ٣١ .

بالأفلام ، وبلغة الإحصاءات ، ما يهدد العالم من وراء هذا الداء الخطير ، وهذا الوباء الوبيل ، وهذا المرض العضال .

إنها إحصاءات مرعبة ، فآلاف مؤلفة تعانى من هذا المرض ، وآلاف وآلاف تحمل الميكروب ، وآلاف وآلاف ، بل ملايين وملايين ، مهددة أن يصل إليها هذا المرض بوسيلة من الوسائل ، فما سبب ذلك كله ؟

سبب ذلك كله هو الشرود عن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، هو الشرود عن السنن الإلهية التى أقام الله عليها هذا الكون ، هو الشرود عن أحكام الله تبارك وتعالى .

لقد أصيب بهذا المرض الغربيون فى أرقى البلاد التى وصلت إلى القمر ، وتحاول الصعود إلى الكواكب الأخرى .

أصيب به أبناؤها ، وأصيب به بناتها ، وحتى الأطفال أصيبوا بهذا المرض الوبيل الذى وقف الأطباء عاجزون عنه ، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا .

من أجل ذلك تنادى العالم كله للوقوف أمام هذا الوباء الذى يسمونه (الطاعون الأبيض) يتنادى العالم للوقوف ضده ، للوقاية منه ، فالوقاية خير من العلاج ، ودرهم وقاية خير من قنطار من العلاج .

لقد أصابهم هذا المرض نتيجة انتشار الفاحشة ، نتيجة انتشار الشذوذ الجنسى ، نتيجة انتشار الزنا واللواط والاتصال غير المشروع بين الرجل والرجل ، والاتصال المحرم بين الرجل والمرأة ، ونتيجة الإعلان به جهارًا نهارًا ، حتى أن الشواذ أصبح لهم أندية خاصة ، وأصبحوا يسيرون مسيرات ومظاهرات فى شوارعهم الكبرى ، تجوب الطرقات ، وتنادى أن يكون لهم حق الاتصال الشاذ .

بلغ الأمر عند هؤلاء الناس إلى هذا الحد ، يقولون : نحن أحرار ، دعونا كما نشاء ، يتصل الرجل بالرجل ، والرجل بالمرأة ، والمرأة بالمرأة .

هذه هى الحرية عندهم ، حرية الفسوق لا حرية الحقوق ، حرية البهيمة لا حرية الإنسان ، إن الحرية ليست أن تفعل كل ما تشتهى ، ولكن الحرية الحقيقية أن تفعل ما ينبغى .

ليس هناك حرية مطلقة فى هذا الكون ، كل شىء له حدود ، حتى الكواكب السيارة لها مساراتها ومداراتها : ﴿ . . . كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) ، حتى الطائرات لها مسابحها فى الجو ، حتى البواخر فى المحيطات لها مساراتها ، كل شىء لا يمكن أن يكون حرا بإطلاق ، لا بد من قيود وحدود ، وإلا اصطدمت الأشياء بعضها مع بعض .

الحرية المطلقة بهيمية حيوانية وليست من الإنسانية فى شىء ، هؤلاء يطالبون بالحرية المطلقة ، حرية أن يتصل الرجل بالرجل ، أى قذارة ، وأى حقارة ، وأى أذى ؟!

إن الناس سألوا – فى عهد النبى ﷺ – عن اتصال الرجل بامرأته فى وقت الحيض ، فجاء قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) ، إتيان فى موضع الحرث ، ورجل مع امرأته فى الحلال ، ولكن إذا وجد الأذى . . . وجد الدم ، فعلى الإنسان أن يتنزه ، ويتنظف ، ويضبط نفسه ، حتى يأتى وقت الطهر : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، أما هذا فهو يأتى مكانًا هو موضع القذر ، لم يخلقه الله لهذا الأمر ، ما خلق الله الذكر ليركب ، ما خلق الله الشرج ليؤتى ، إنما خلقه لمهمة أخرى قذرة ينبغى للإنسان أن يتنظف منها ويتطهر ، فكيف قلب هؤلاء فطرة الله التى فطر الناس عليها ؟!

إنّ قومًا فى التاريخ فعلوا ذلك ، وهم قوم لوط ، كانوا أول من ابتكر هذه الفاحشة ، ما سبقهم بها أحد من العالمين : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

أرسل الله إليهم نبيه لوطًا عليه السلام يدعوهم إلى الله ، وإلى التنزه عن هذه

---

(١) الأنبياء : ٣٣ . (٢) البقرة : ٢٢٢ . (٣) الأعراف : ٨٠ .

الفاحشة ، ودمغهم بأسوأ الأوصاف ، فقال : ﴿ ... بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾(١) ﴿ ... بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٢) ﴿ ... بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (٣) ﴿ ... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ (٤) ، وصفهم بكل الأوصاف الهازئة ، ثم سأل الله سبحانه وتعالى أن يخلصه منهم ، فنجاه من هذه القرية التى كانت تعمل الخبائث والتى كانت تأتى فى ناديها المنكر ، والتى كانت تتربص حتى بالضيوف ، ولا يسلم منها ضيف ، إنها آفة ، إنها مصيبة ، من أصيب بها فقد عقله ، وفقد ضميره ، وفقد وعيه ، ولم يرع أى قيمة من القيم حتى الضيوف .

هؤلاء استحقوا العقوبة من الله تبارك وتعالى ، عوقبوا بما لم يعاقبه أحد فى العالمين ، جزاء فاحشتهم التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، وجعل عالى بلدانهم سافلهم ، قلبها عليهم كما قلبوا فطرة الله عز وجل ، وأرسل عليهم حجارة مسوّمة كل حجر مصوب لصاحبه لا يخطئه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٥) عقوبة الله ليست ببعيدة عن كل من سلك مسلكهم ، أو اتبع منهاجهم .

الغربيون أعادوا الفاحشة التى ابتدعها قوم لوط ، ولكنهم زادوا على قوم لوط ، فباهوا بها ، وأعلنوا عنها ، وأصبحت لهم أنديتهم ، وأصبحوا يسيرون المظاهرات ، ويكتبون فى الصحف ، بل أصبح هناك من يدعو إلى قانون يتيح لهم هذا الأمر : أن يقنن هذا الخروج عن الفطرة ، وأن يقنن هذا الإجرام .

وللأسف كل الأسف ، وجد من الكنائس المسيحية التى تنتسب إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، الذى كان يقول : لقد كان من قبلكم يقولون : لا تزن ، وأنا أقول : من نظر بعينيه فقد زنى ، هكذا يروون عنه فى الإنجيل ، إنه يحرم النظرة غير البريئة ، فكيف بهؤلاء الذى يستحلون ما حرم الله فى كل جيل ؟ للأسف تقوم

---

(١) النمل : ٥٥ . (٢) الأعراف : ٨١ . (٣) الشعراء : ١٦٦ .
(٤) الأنبياء : ٧٤ . (٥) هود : ٨٢ ، ٨٣ .

بعض الكنائس لتبارك هذا المنكر ، ويقوم بعض القسس بكتابة عقود يزوج فيها الرجل من الرجل !!

أى حضارة هذه الحضارة ؟ وأى مدنية هذه المدنية ؟ ليست الحضارة أن تلعب بالأزرار لتأتيك بالأشياء فى أسرع وقت ، وأن تختصر لك المسافات ، وأن تقرب إليك البعيد ، وأن تنطق لك الحديد .

الحضارة أن ترقى باعتبارك إنسانًا ، أن يكون لك عقل وخلق وضمير ، أن تضبط نفسك أمام الشهوات ، أن تقول : لا ، بملء فيك إذا وجدت ما يصادم إنسانيتك، أن تركل الشهوات بقدميك ، وتقول ما قاله الصديق ابن الصديق ابن الصديق ابن الصديق ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾[1] ، حينما عرضت عليه الفتنة ، هكذا ينبغى أن يكون الإنسان .

وللأسف الشديد أيها الإخوة ، بدأ رذاذ من هذه الحضارة ينتقل إلينا نحن المسلمين، بدأنا - نحن المسلمين - نقلدهم تقليدًا أعمى . . . تقليد القردة ، ونحاكيهم محاكاة الببغاوات ، نريد أن نسير سيرتهم ، ونستن بسنتهم ، ونمشى وراءهم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه ، كما قال النبى ﷺ[2] .

يريد بعض الناس منا أن نسير وراء الغرب ، أن نطلق الحرية ، أن ندع للشباب والشابات الحبل على الغارب ، ليجرب كل منهم صاحبه ، يتعلم بعض شبابنا هذا الأمر عن طريق الفكر المضلل ، وعن طريق المخالطة والاتصال بأولئك القوم فى بلدانهم ، حين يذهب من يذهب إلى أوروبا وأمريكا ، وحينما يذهب من يذهب

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِه وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] .

(٢) ونص الحديث الذى رواه أبو سعيد الخدرى : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : فمن ؟! » متفق على صحته (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ١٤/ ٣٩٢ ، الحديث : ٤١٩٦) .

إلى بلاد الشرق الأقصى ، إلى (بانكوك) وما وراءها ، فيأتون وقد تلوثوا بالأمراض ، وقد أصيبوا بالأدواء ، فى أبدانهم وفى عقولهم !

هكذا بدأنا نذهب إليهم لنأخذ عنهم البلاء والوباء ، أو يأتون إلينا فى صور شتى .

إن الله حصننا نحن المسلمين بتعاليم دينه ، حصننا بأحكام شرعه ، حصننا بالعقيدة التى تجعل المؤمن يقف شامخًا كالجبل الأشم ، أمام الأهواء والمغريات والشهوات ، لا يرضى أن يلوث نفسه ،إن الإسلام قد رباه منذ نعومة أظفاره على غض البصر وحفظ الفرج ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ . . . ﴾ (١) .

إن الله أراد للإنسان المسلم أن يتربى على العفاف والإحصان وخلق الحياء ، فلا يرضى أن يتلوث بالشهوات ، وأن يقع فى بؤرة المعاصى ، حتى لو جاءت الشهوة إليه ساعية فإنه يرفضها ويقول : معاذ الله ، ويقول كما قال أحد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، حينما عرضت له امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين (٢) ، هذا هو شأن الإنسان المسلم .

علّم الإسلام المسلم منذ صباه أن يتعفف ، ويتنظف ، ويتطهر ، ويتنزه ، ويرفض أن يتلوث بهذه الكبائر ، علّمه ألا يتصل بالجنس الآخر إلا فى الحلال .

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله : اجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » [المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢٨٧/١ ، الحديث ٤٥٧] .

من أوصاف المؤمنين فى القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ (١) ، أولئك هم المعتدون على حدود الله ، الظالمون لأنفسهم وللناس .

● أغلق الإسلام أبواب الحرام أمام المسلم ، وفتح له أبواب الحلال ، ودعا الناس إلى أن يتزوجوا ويزوجوا : ﴿ وَأَنكِحُواْ الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُواْ فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

إن الإسلام يعمل على إيجاد الفرد النظيف والمجتمع النظيف ، فدعا المجتمع أن يعين كل من يرغب فى الإحصان ، كما دعاه إلى أن يطهر نفسه من أسباب الفتنة ، ودواعى الإغراء والإفساد ، فلا يجوز لمجتمع مسلم أن يوجد فيه ما يحرض على الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، لا يجوز لمجتمع مسلم أن توجد فيه الصورة العارية أو شبه العارية ، أو الغناء الماجن ، أو القصة الخليعة ، أو المرأة المكشوفة التى تباع لحمًا رخيصًا فى الطرقات والأسواق وعلى الشواطىء ، لا يجوز هذا فى حال من الأحوال ، وبهذا يحصن المسلم نفسه من كل وباء ، ومن كل مرض .

إما إذا شرد الناس عن هذا ، وارتكبوا ما حرّم الله ، وتورطوا فى الموبقات ، وأعلنوا بها كما فعل الغربيون ، فإن عقاب الله تعالى بالمرصاد .

إن لله عقوبات شتى ، منها عقوبات شرعية ينفذها ولى الأمر المسلم ، ومنها عقوبات كونية قدرية ، يتولاها القدر الأعلى ، وفقًا لما ربط الله به هذا الكون من شبكة الأسباب والمسببات ، ومرض (الإيدز) هو نوع من العقوبة القدرية الإلهية كما نبأنا بذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقى عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن [وكانت أولى هذه الخصال الخمس] لم تظهر الفاحشة (٣) فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون

---

(١) المؤمنون : ٥ - ٧ ، المعارج : ٢٩ ، ٣٠ . (٢) النور : ٣٢ .

(٣) الفاحشة تشمل الزنى وعمل قوم لوط الذى يعرف فى عصرنا باسم (الشذوذ الجنسى).

والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . . . » [(١)] .

انظروا إلى هذا الحديث الشريف العجيب ، انظروا إلى هذا الإعجاز النبوى : «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها » : وجود الفاحشة عند فرد أو أفراد قد يعفوا الله تعالى عنه ، أو يؤجل العقوبة عليه ، ولكن حينما تظهر فى قوم . . . فى جماعة . . . فى مجتمع ، وتظهر إلى حد أن يعلنوا بها ، ويجاهروا بها ، ويتباهوا بها ، ويقيموا النوادى من أجلها « إلا فشا فيهم الطاعون » : لقد كان الطاعون يأتى قديمًا ويأكل الأخضر واليابس ، ويفنى الناس بالجملة ، ولا يجد الناس له مقاومة ولا علاجًا ، والغربيون يطلقون على (الإيدز) لفظ : (الطاعون) كما فى جاء فى حديث النبى ﷺ ، فهذا هو طاعون هذا العصر : « إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا » وهذا المرض فعلاً ما كان الناس يعرفون عنه شيئًا قبل عدة سنوات ، فهو مرض جديد ، كلما أحدث الناس معصية أحدث الله لهم عقوبة ، هكذا سنة الله تبارك وتعالى .

إن هناك رقابة على هذا الكون ، رقابة إلهية لا تدع الناس دون أن تأتيهم النذر ، وهذه النذر أيضًا من رحمة الله تبارك وتعالى ، لينبه الغافلين ، ويذكر الناسين ، ويوقظ النائمين ، ويقول : يا أيها الضالون عودوا ، ويا أيها العصاة توبوا ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [(٢)] ، ظهرت المصائب من كل نوع: مصائب فى الفرد ، ومصائب فى الأسرة ، ومصائب فى الجماعة ، مصائب فى الأجسام ، ومصائب فى الأنفس ، ومصائب فى العقول ، ومصائب فى الأموال ، ومصائب من كل ناحية ، فساد شامل ، لماذا ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [(٣)] ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ

---

(١) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبزار والبيهقى من حديث ابن عمر بنحوه ، ورواه الحاكم أيضًا ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبى ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان ٣٩٩ ، ١٤٣٣) .

(٢) الروم : ٤١ .

(٣) يونس : ٤٤ .

أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (١) . ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ ﴾ لا يذيقهم كل ما عملوا، لو أخذ الله الناس بكل ما عملوا لأفنى هذا الكون ، لأباد خضراءهم ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ (٢) ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٣) .

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، أى أنه ينبههم بهذه العقوبات ليتذكروا ، ليذكر الإنسان ضعفه أمام القدرة الإلهية ، ليذكر الإنسان مصيره، ليذكر مبدأه ومنتهاه .

﴿ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ فهل يرجع الشاردون ؟ فهل يتوب العاصون ؟ فهل يهتدى الضالون ؟ فهل يستيقظ النائمون ؟ هيهات . . . هيهات .

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنـــادى

لقد جاءتهم النذر من كل ناحية ، جاءتهم النذر وهم فى غيهم سادرون . . . فى غفلتهم لاهون . . . فى غمرتهم ساهون . . . فعلينا نحن المسلمين أن نأخذ العبرة ، أن نستفيد من غيرنا ، فالسعيد من وعظ بغيره .

نحن مسلمون أكرمنا الله بالإسلام ، وحصننا بهذا الدين ، فلا يجوز لنا أن نكون نسخة من غيرنا ، أن نمسخ أنفسنا ، ونصير أذنابًا لغيرنا ، إن كان ولابد أن نأخذ من الغرب ، فلنأخذ منه العلم والتكنولوجيا ، والعلم هو بضاعتنا فى الحقيقة ترد إلينا .

لقد أخذوا المنهج العلمى التجريبى منّا ، فعلينا أن نستعيده ونستفيد منه و« الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها » (٤) ، أما أن نأخذ عنهم كل شىء كما ينادى من ينادى من الناس ، فهذا هو المسخ .

---

(١) آل عمران : ١٨٢ ، الأنفال : ٥١ .   (٢) فاطر : ٤٥ .   (٣) الشورى : ٣٠ .

(٤) رواه الترمذى فى كتاب العلم من سننه واستغربه ، وفى سنده راو يضعف من قبل حفظه (٢٦٨٨) ، كما رواه ابن ماجه فى الزهد (٤١٦٩) ، كلاهما عن أبى هريرة ، والسند وإن كان ضعيفًا فالمعنى صحيح .

لا يجوز لهذه الأمة بحال أن تنماع شخصيتها ، وأن تسير وراء غيرها من المغضوب عليهم ومن الضالين ، وقد علم الله المسلم أن يقول فى كل يوم ما لا يقلّ عن سبع عشرة مرة مناجيًا ربه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

علينا نحن المسلمين أن نتميز عن غيرنا ، فنحل ما أحل الله ، ونحرم ما حرم الله، وللأسف لا زالت بعض القوانين فى بلاد المسلمين تحل الحرام . . . تحل الزنا الصريح . . . تحل الاتصال غير المشروع ، ما دام ذلك يتم برضا الطرفين ، فالقانون لا سبيل له عليهما ، وكما يقول المثل : « أنا راض ، وأبوى راضى ، وأنت مالك يا قاضى ؟! » .

وفى بعض البلاد حرموا الزواج بامرأة ثانية ، وأباحوا اتخاذ الخليلات والعشيقات ، وهكذا فعلوا : أحلوا الحرام وحرموا الحلال ، وعارضوا شرع الله جهارًا نهارًا ، عيانًا بيانًا .

نحن المسلمين علينا أن نستمسك بشرع الله عز وجل ، فهو سفينة الإنقاذ ، وطوق النجاة فى الدنيا والآخرة .

إن الدين ليس سبيلاً للسعادة فى الآخرة فقط ، بل هو سبيل السعادة فى الدنيا قبل الآخرة ، لا نجاة إلا به ، ولا وحدة إلا به ، ولا قوة إلا به ، ولا نصر إلا به ، من أراد الدنيا فليتمسك بالإسلام ، ومن أراد الآخرة فليتمسك بالإسلام ، ومن أرادهما معًا فليتمسك بالإسلام .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه من كل ذنب ، إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

(١) الفاتحة : ٦ ، ٧ .

● **الخطبة الثانية :**

أيها الإخوة المسلمون :

ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى فلسطين ، وانصر إخواننا المجاهدين فى لبنان ، وانصر إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ، وانصر إخواننا المجاهدين فى الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين فى كل شبر من أرض الإسلام ، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين .

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى ، وقلوبهم على التقوى ، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل ، ونياتهم على الجهاد فى سبيلك : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ ... وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الأحزاب : ٥٦ . (٣) العنكبوت : ٤٥ .

عقبات فى طريق الزواج

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

ما زلنا نتحدث فى محيط الشباب والفتيات ، ومشكلات هذا الجيل ، الذى منّ الله عليه بنعم كثيرة ، ومع هذا يعانى مشكلات كثيرة .

ما زلنا فى مشكلات هذا الجيل من الشباب والفتيات ، ومن هذه المشكلات ما يتعلق بالزواج ، الذى أصبح الآن - بما أدخله الناس من تعقيدات فى حياتهم - عبئًا على الظهور ، يسره الله تعالى فعسره الناس ، وبسطه الشرع فعقده المجتمع ، ووسعه الخالق فحجره الخلق .

الزواج فى نظر الإسلام قربة وشريعة ، وسنة ربما وصلت إلى الفريضة :

شرع الله الزواج ولم يشرع فى الإسلام الرهبانية ، لا رهبانية فى هذا الدين ليس فى هذا الدين اعتزال للحياة ، وانصراف عن المرأة ، واعتبارها وسيلة الشيطان كما كان فى أديان أخرى ، حيث كان الرجل يعتبر المرأة نجسًا ، ويفر منها حتى لو كانت أخته أو أمه ، كما كان يصنع الرهبان فى أوروبا فى العصور الوسطى (١) ، ليس فى الإسلام هذا .

لقد تزوج رسول الله ﷺ ، وتزوج أصحابه ، حتى قال من قال منهم : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام ، لتزوجت فيها حتى لا ألقى الله عزبًا .

الزواج فطرة : لا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده ، لما خلق الله آدم خلق له زوجة، وقال له : ﴿ . . . اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . . . ﴾ (٢) فلا معنى

---

(١) انظر فى ذلك ما نقله العلامة أبو الحسن الندوى فى كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟) عن عجائب الرهبان فى العصور الوسطى .

(٢) البقرة : ٣٥ ، الأعراف : ١٩ .

إذا عاش الرجل فيها بغير أنيس ، بغير من يسكن إليه ، ولهذا خلق الله لآدم زوجة ليسكن إليها .

بل الزواج فطرة من فطر الكون كله ، ليس هناك شيء إلا وله زوج ، إلا وله مكمل ، سواء كان هذا في الحيوانات أم في النباتات أم حتى في الجمادات ، في الكهرباء ، نرى الموجب والسالب ، بل في الذرة ، العلم الحديث يقول لنا : إن في الذرة التي هي الوحدة الصغيرة لبناء هذا الكون ، فيها شحنة موجبة وشحنة سالبة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [(١)] .

وإذا كان هذا هو نظام الكون ، وفطرة الكون ، فلا يبقى للإنسان أن يشذّ عن النظام الكوني ، وعن فطرة الطبيعة ، فلا بد أن يبحث عن إلفه ، وعن أنيسه ، وعن زوجه .

ومن أسرار التعبير في اللغة العربية وفي القرآن الكريم ، أن كلا من المرأة والرجل إذا تزوجا يسمى كل منهما : زوجًا ، وكلمة (زوج) تعني (اثنين) ، كأن كلا منهما يحمل في ضميره الآخر ، كأن كلا منهما في ظاهره فرد ، وفي حقيقته زوج .

الزوجية فطرة إنسانية ، وفطرة كونية :

ومن هنا حث الإسلام على الزواج ، حتى يبقى به هذا النوع ، وتستمر عمارة الحياة بهذا النوع المكرم كما أراد الله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . ﴾ [(٢)] ، وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة ، وينهى عن التبتل نهيًا شديدًا ، ويقول : « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة » [(٣)] .

الزواج من أسباب التناسل : الذي يبقى به هذا النوع ، لا بقاء للنوع بغير هذا

---

(١) الذاريات : ٤٩ . (٢) النحل : ٧٢ .

(٣) أورده الهيثمي في المجمع وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن (٢٥٨/٤) .

الزواج ، ولهذا لا يرى الإسلام تلك النظرة التشاؤمية التى كانت عند بعض الفلاسفة ، وبعض الأديان التى تنظر إلى الحياة على أنها شر ، وإلى هذا العالم على أنه عالم عذاب وويلات ، وينبغى أن يتخلص الناس من هذا العالم بقطع النسل فلا يتزوجوا ، وإذا تزوجوا لا ينجبوا وهكذا .

الإسلام ضد هذه النظرة التشاؤمية ، ويرى أن هذه الحياة خير ، أرادها الله أن تعمر وأن تستمر ، ولهذا على الناس أن يتزوجوا ، ويتزوجوا الودود الولود [(١)] .

الزواج كذلك أساس لتكوين الأسرة ، تلك التى تتربى فيها المشاعر . . . المشاعر الطيبة ، العواطف الإنسانية النبيلة ، عواطف الأبوة والأمومة والبنوة والأخوة والرحم ، عواطف المحبة والتعاون والإيثار والرحمة والتعاطف ، فى ظل الأسرة تتكون هذه المشاعر والذى يكون الأسرة هو الزواج : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ . . . ﴾ [(٢)] .

فى ظل الأسرة يوجد السكون والمودة والرحمة ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . ﴾ [(٣)] آية من آيات الله مثل خلق السموات والأرض ، مثل الآيات الكبرى فى هذا الكون ، أن ينضم رجل إلى امرأة ، وتنضم امرأة إلى رجل ، ويتكون منهما النواة الأولى والخلية الأولى لهذا المجتمع .

ثم بعد ذلك تتسع الدائرة . . . دائرة المودة ، ودائرة المحبة والألفة والتناصر والتعاون بالمصاهرة ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [(٤)] .

---

(١) عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال ، إلا أنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم » رواه أبو داود ، والنسائى ، والحاكم ، واللفظ له ،وقال : صحيح الإسناد (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٥٥٣ ، الحديث ١١٠٧) .

(٢) النساء : ١ . (٣) الروم : ٢١ . (٤) الفرقان : ٥٤ .

الزواج كذلك حماية للإنسان من السقوط الغريزى ، ركب الله فى الإنسان غريزة، هى سوط يسوقه إلى بقاء النوع ، وهذه الغريزة المركبة لحكمة إلهية ، لم يأت الإسلام بمصادرتها ، فلم يأت الإسلام بما يستأصل الفطرة والغرائز ، بل بما يهذبها ويكملها ويسمو بها .

لهذا لم يسر مع أولئك الذين حرموا أى تصريف للغريزة ، واعتبروها رجسًا من عمل الشيطان ، ونظروا إليها نظرة استقذار ، ولم يطلق لها العنان كما فعل أولئك البهيميون ، الذين يعتبرون الإنسان والحيوان شيئًا واحدًا ، وليس عندهم حلال ولا حرام ، إنما وقف موقفًا وسطًا ، فحرم السفاح وأباح النكاح ، جعل هناك مصرفًا شرعيًا لهذا الغريزة بالزواج ، لا حرج على الإنسان أن يستمتع بهذه الغريزة فى حدود ما أحل الله ﴿ ... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾ (١) ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ... ﴾ (٢) لا حرج على الإنسان فى ذلك .

لم يضق الشرع فى هذا ، بل أباح ووسع ، ونادى النبى ﷺ الشباب عامة ، فقال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٣) .

الزواج أغضّ للبصر وأحصن للفرج :

هكذا دعا الإسلام إلى الزواج ، وهكذا استجاب المسلمون الأوائل لهذه الدعوة، فيسروا وسهلوا ، وكانت أمور الزواج من أسهل ما يكون ، ولكن الناس بعد ذلك، وفى عصرنا خاصة ، عسروا ما يسر الله ، وضيقوا ما وسع الله ، شددوا على أنفسهم ولم يشدد الله عليهم ، حتى رأينا العزوبة عند الشبان ، والعنوسة عند الفتيات ، نرى شابًا بلغ الثلاثين من عمره ولم يتزوج ، ونرى فتاة بلغت الثلاثين ولم تتزوج ، ولعلها لا تتزوج بعد ذلك ، حينما يقول الناس : فاتها القطار .

---

(١) البقرة : ١٨٧ .　　(٢) البقرة : ٢٢٣ .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ لهما ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، والباءة فى اللغة : الجماع ، والمراد بها هنا : ما يلزمه من القدرة على مؤنه ونفقاته ، والوجاء : رض الخصيتين ، والمراد : أنه يضعف الشهوة الجنسية ، وذلك إذا داوم عليه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٥٤٩ - ٥٥٠ ، الحديث ١٠٩٥) .

لم هذا كله ؟ ما الذى حدث ؟ ما دام هناك رجال ونساء ، فتيان وفتيات ، فلماذا لا يتزوج هؤلاء من هؤلاء ؟ .

رأيت فى الجامعة - وأنا أدرس للطالبات - أعدادًا غفيرة من الفتيات غير متزوجات ، ولا ينقصهن والله الجمال ، ولا ينقصهن النسب ، ولا ينقصهن الأدب، ولا ينقصهن الدين ، ولا تنقصهن الثقافة ، لماذا لا تتزوج هؤلاء الفتيات؟ ما المشكلة ؟

المشكلة نحن الذين خلقناها ، نرجع إلى أسباب هذا فنجد الناس قد وضعوا عقبات كثيرة فى سبيل الزواج .

هناك عقبات مادية ، عقبات اجتماعية ، عقبات نفسية .

هناك عقبات مادية : لا يستطيع الشاب أن يتزوج إلا أن يكون الشاب صاحب مال، ومال وفير ، فالشاب المتخرج الذى يقف على أول السلم ، لا يستطيع أن يوفر ما يطلب منه ، وما يطلب منه كثير ، من الذى صنع هذا الكثير ؟ الشرع لم يصنعه ، إنه فى حاجة إلى مهر يدفعه ، والناس يغالون فى المهور ، ويتباهون بها ، المفاخرة والمكاثرة ، والرياء الاجتماعى الزائف ، بنت فلان دفع إليها كذا ، وهذه بذل لها كذا ، كأن هذا أصبح مقياس القيمة للإنسان ، أو الدخول فى الجنة ، ما قيمة هذا كله ؟! وفى الحديث الشريف : « خير الصداق أيسره » [(١)] ، «من يمن المرأة تيسير خطبتها ، وتيسير صداقها ، وتيسير رحمها » [(٢)] . وقد خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الصحابة يومًا فقال : « ألا لا تغلوا صدق النساء ، ألا لا تغلوا صدق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا ، أو تقوى عند الله ، لكان أولاكم بها النبى ﷺ ما أصدق رسول الله امرأة من نسائه ، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من ثنتى عشرة أوقية » [(٣)] ، والأوقية - أربعين درهمًا .

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم عن عقبة بن عامر ، كما فى الصحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٢٧٩) .

(٢) أورده الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٥٥) وقال : رواه أحمد وفيه أسامة بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) رواه أحمد فى مسند عمر بأرقام (٢٨٥) و(٢٨٧) و(٣٤٠) وقال الشيخ شاكر : بإسناده =

أجل ، لم يزوج النبى ﷺ بناته على شىء كثير ، فاطمة بنت محمد ﷺ ، سيدة نساء العالمين ، تزوجت على ماذا ؟ على درع قدمها إليها على بن أبى طالب ! وماذا تصنع فاطمة الزهراء بالدرع ؟! هل تحارب بها ؟ إنها شىء رمزى .

سعيد بن المسيب سيد التابعين وأفقههم كما يقول أحمد بن حنبل يرفض أن يزوج ابنته من ابن الخليفة [1] ، ويزوجها لأحد طلاب العلم فى حلقته ، قال له : يا ابن أبى وداعه ، ماذا عندك ؟ قال : والله ما عندى إلا درهم ، قال : قد زوجتك ابنتى بدرهم !

نعم ، زوجه ابنته بدرهم ، لأنه كان يريد لها رجلاً صالحًا لم يكن الناس يتباهون بما يتباهى به الناس الآن ، لم هذا ؟

وليت الأمر يقف عند المهر وغلائه ، إنه فى حاجة إلى هدايا ، فى حاجة إلى ذهب يقدمه .

بعض البلاد هناك (شبكة) أو (تلبيسة) ، وبعض البلاد هناك ذهب ... مصوغات تقدم ، معظمها أشياء لا تلبس ، لأنها بأحجام كبيرة ، وأوزان ثقيلة ، وأشكال قديمة ، لا تلائم ذوق هذا العصر ، حتى إنه قد كثرت على الأسئلة عن هذا الحلى : هل يزكى أو لا يزكى ؟ لأن المرأة لا تلبسه إلا للتباهى فقط ، هو شىء لا يلبس ، ولكن تتباهى بأن عندها الشىء الكثير قدم لها فى عرسها ، لم هذا ؟ لماذا نضيق على أنفسنا ونشدد ؟

الأحفال والولائم التى تقام للعرس ، وقبل العرس ، وبعد العرس ، وتذبح فيها الذبائح ، ويؤكل قليلها ، ويلقى فى سلات المهملات و(الدرامات) كثيرها ، وبلاد أخرى تتضور من الجوع فلا تجد اللقمة ، لم هذا ؟ شدد الناس على أنفسهم ، تراهم يقيمون حفلاً للخطبة ، وحفلاً لعقد القرآن ، وحفلاً للزفاف ، ما هذا كله يا عباد الله ؟!

= صحيح كما رواه أبو داود (٢١٠٦) ، والنسائى (٦/١١٧) ، والترمذى وقال : حسن صحيح (١١١٤) ، رالحاكم وصححه (٢/ ١٧٥ ، ١٧٦) .

(١) هو عبد الملك بن مروان ، خطبها لابنه الوليد حين ولاه العهد .

ثم بعد ذلك يأتى البيت ، وتأثيث البيت ، لا بد من أن تكون هناك شقة مفروشة بأحدث الأثاث ، أو (فيلا) ، أو ما شابه ذلك .

ثم بدعة جديدة اخترعها الناس بعد الزواج : ما سموه (شهر العسل) والسفر إلى الخارج لقضاء شهر العسل ! تكاليف جديدة أضافها الناس ، هى فى النهاية آصار وأغلال فى أعناقهم ، وعقبات فى طريقهم .

كل هذا يعقد الأمور ، ويزيد من صعوبتها ، وما طلب الله منا ذلك ، ولا كلفنا الشرع ذلك ، نحن الذين شددنا على أنفسنا ، ولهذا ينتظر الشاب حتى يمكنه أن يوفر ما يطلب منه ، وربما استدان ، والدين هم بالليل ، ومذلة بالنهار ، أو ربما ذهب إلى البنك يستقرض منه بالربا فيأذن من أول زواجه بحرب من الله ورسوله ، لم هذا ؟ عقبات نحن الذين أنشأناها ووضعناها ، عقبات مادية لا معنى لها .

عقبات اجتماعية : هناك اعتبارات عند كثير من الناس . . . يتقدم إليهم الشاب فيرفضونه ، لم هذا ؟ هذا لأنه من أسرة دون الأسرة ، أو طبقة دون الطبقة ، أو كذا وكذا ، معايير ما أنزل الله بها من سلطان .

إن لكل عصر معاييره ، هناك من الفقهاء من قال بالكفاءة فى النسب والحسب والحرفة وغير ذلك ، ولكن هناك من رفض هذا كله وقال : ﴿ . . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . . . ﴾ (1) ، المقياس هو الدين والخلق ، والنبى ﷺ يقول : «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه ، إن لا تفعلوا ، تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض» (2) وكانوا يقولون : (إذا زوجت ابنتك فزوجها ذا دين ، إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها) لأنه يخاف الله فيها ، فهو يعاشرها بمعروف أو يسرحها بإحسان ، ولا ينس الفضل فيما سبق .

هذا هو الإنسان المؤمن ، هذا هو الذى ينبغى أن يحرص عليه .

---

(1) الحجرات : ١٣ .

(2) رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن أبى هريرة ، ورواه ابن عدى عن ابن عمر، ورواه الترمذى أيضًا ، والبيهقى فى السنن ، عن أبى حاتم المزنى ، ورمز له السيوطى فى (الجامع الصغير) بالصحة .

والذين قالوا بالكفاءة من الفقهاء ، قالوا : إن العالم كفء لبنت السلطان ، لأن العلم يرفع صاحبه ، ويعلى من قدره ، لأنه إذا وقف الأمر عند الحسب والنسب ، معنى هذا أننا أصبحنا طبقات كطبقات الهنود ، لا يستطيع أحد أن يرتقى من طبقة إلى طبقة والإسلام يرفض ذلك .

يستطيع الإنسان بعلمه وعمله أن يرتقى إلى أعلى الدرجات فى المجتمع المسلم ، وهذا ما رأيناه منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم .

كان عطاء بن أبى رباح الفقيه التابعى رجلاً أسود اللون ، أفطس الأنف ، أعرج الرجل ، قصير القامة ، ولكنه جلس بجوار سليمان بن عبد الملك [1] فى الحج ، يفتى الناس فى المناسك ، قالوا : إنما رفعه العلم .

العلم أجلسه بجوار الخلفاء :

والعلم يرفع بيتًا لا عمـــــاد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

ينبغى أن نعيد النظر فى معاييرنا ، فالمهم هو سعادة بناتنا وأبنائنا لا يجور أن نتحجر على مقاييس قديمة ، فالزمن يتغير ، والحياة تتطور ، والأنظار تختلف ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَنكِحُواْ الأَيَامَى منكُمَ [أى زوجوهم] وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُواْ فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] .

لا بد لنا من هذه النظرة ، حتى لا تقف هذه المعايير أحجار عثرة فى سبيل حياة سعيدة لأبنائنا وبناتنا .

هناك عوامل نفسية عند بعض الشباب ، وعند بعض الفتيات أنفسهن :

بعض الفتيان يضع أمام عينيه مثالاً يحلق فى خياله ، يرسم امرأة مثالية يريدها زوجة له ، موصوفة بكل جمال وكمال ، وهذا لا يوجد فى واقع الحياة .

---

(١) هو أحد كبار خلفاء بنى أمية ، أخرج الخلافة من أولاده وعهد بها للخليفة الزاهد عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه .

(٢) النور : ٣٢ .

الحياة قلما نجد فيها الكمال المطلق ، فامرأة عندها الجمال ، وأخرى عندها المال، وأخرى عندها النسب ، أما أن يوجد فيها كل شيء ، فقلما يجتمع فيها هذا .

ولذلك أوصانا النبي ﷺ فقال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » [١] ، « الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » [٢] ، صاحبة الدين هي التي تسرك إذا نظرت ، وتطيعك إذا أمرت ، وتحفظك إذا غبت ، وتخاف الله في عرضك وولدك ومالك : ﴿ . . . فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ . . . ﴾ [٣] .

وكثير من الذين يحلقون وراء هذه الأحلام والمثاليات ، قلما يحققون ما ينشدون.

أعرف قريبًا لي ، كان يريد فيمن يتزوجها أن تكون موصوفة بالحسن والجمال ، بل رائعة الحسن والجمال ، كثيرة الغنى والمال ، ذات حسب ونسب ، ذات علم وثقافة ، ولكنه للأسف حينما تزوج ، تزوج امرأة ليس فيها شرط واحد من هذه الشروط ، مع أنه عاش سنين طويلة يبحث عن مثاله الخيالي .

● لا داعي لهذه الخيالات والمبالغات :

على الشاب أن يبحث عن ذات الدين ، عن المرأة الصالحة التي تحفظه وتصونه ، ويستطيع أن يعيش معها حياة سعيدة ، لا يهمه أن تكون فقيرة في المال ، إذا كانت غنية بالأخلاق ، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها : « تزوجوا النساء يأتينكم بالأموال » [٤] .

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٥٢ ، الحديث ١١٠٦) ،وقوله : « تربت يداك » معناه : الحث والتحريض ، وقيل : هو دعاء له بكثرة المال ، أي اظفر بذات الدين ، ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن ابن عمر ، ومسلم أيضًا ، عن ابن عمر ، كما في صحيح الجامع الصغير (٣٤١٣) .

(٣) النساء : ٣٤ .

(٤) قال الهيثمي (٤/ ٢٥٥) رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا مسلم بن جياد - ولعله جنادة - وهو ثقة .

بعض الشباب يتشددون فى أمور لم يشدد فيها الشرع ، كأن يقول : إننى لا أريد فتاة تعمل ، ولا حرج فى العمل .

لا حرج أن تعمل الفتاة فى أمر مباح ، كأن تعمل مدرسة فى مدارس البنات ، أو تعمل طبيبة فى مكان ليس فيه اختلاط ممنوع ، مثل هذا لا مانع منه [1] .

لماذا يتشدد بعض الشباب أكثر مما يلزم ، وقد قصّ علينا القرآن قصة تلك الفتاتين اللتين رآهما موسى عند ماء مدين : ﴿ . . . قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا . . . ﴾ [2] كانتا ترعيان الغنم ، وتذهبان بها إلى حياض المياه ، لأن أباهما شيخ كبير ، ولا بد للأسرة أن تعيش ، الحياة تحتاج إلى معاونة .

بعض الشباب يخاف من الفتاة المثقفة ، ويقول : لا أتزوج فتاة جامعية ، لماذا ؟ لا يخاف من الجامعية إلا أحد اثنين : إما شاب ضعيف الشخصية ، يخاف من هذه المثقفة المتعلمة أن تحدثه وتسائله ، ولا تكون كما مهملاً فى البيت ، وإما شاب يريد أن ينحرف فهو يريد المرأة التى لا تستطيع أن تحاسبه ، ولا أن تقيد عليه حركاته وسكناته .

أما الشاب المستقيم ، الشاب القوى ، فلا يضيره أبدًا أن يتزوج المتعلمة ، بل المتعلمة تنفع زوجة ، وتنفع أمًا ، تكون نعم المربى لأولادها وبناتها ، تستطيع أن تساعدهم فى مدارسهم ، وفى أداء واجباتهم المدرسية والمنزلية .

هناك عقبات نفسية عند الشباب ، وعند الفتيات أيضًا :

بعض الفتيات أيضًا يحلقن ، يرون فارس أحلام بأوصاف غير معقولة ، وقلّما يأتى هذا ، وبعض الفتيات تشترطن أن يكون لهن كذا وكذا ، وتريد سيارة (مرسيدس ٢٨٠)، و(فيلا) موصوفة بكذا وكذا ، وأثاث كذا وكذا ، وخادم كذا وكذا ، ما هذا ؟

إن فاطمة بنت محمد ﷺ ، تزوجت على بن أبى طالب ، ولم يكن فى بيتها

---

(١) راجع فتوى الشيخ القرضاوى : (عمل المرأة) فى الجزء الثانى من (فتاوى معاصر) ص ٣٠٣ - ٣٠٦ .

(٢) القصص : ٢٣ ، ٢٤ .

موقد كهربائى ، ولا غسالة أتوماتيكية ، ولا مكنسة كهربائية ، كانت تكنس البيت بيديها ، كانت تدير الرحا بيديها فما كانت عندهم مطاحن ، كانوا يأخذون الشعير ويطحنونه على الرحا ، حتى يصبح دقيقًا خشنًا ، فتأخذه وتعجنه وتخبزه ، وكانت تحمل قربة الماء على كتفها ، حتى أثر ذلك فى يديها ، وذهبت هى وزوجها إلى النبى ﷺ يشكوان ، يريدان خادمًا ، فقال النبى ﷺ لهما : « ألا أدلكما على ما هو خير من خادم » ؟ قالا : بلى يا رسول الله ، قال : « عندما تأويان إلى النوم تسبحان الله ثلاثًا وثلاثين ، وتحمدانه ثلاثًا وثلاثين ، وتكبرانه أربعًا وثلاثين ، فهذا خير لكما من خادم » (١) ، نصحهما أن يستعينا على هذا التعب والمعاناة بالقوة الروحية ، بذكر الله عز وجل ، ولم يعطهما الخادم .

لماذا تريد المسلمة حياة الرفاهية ؟ ما أجمل أن تكون معوانًا لزوجها ، وأن تعمل فى بيتها ، وأن تكافح معه حتى يرتقى السلم إلى أعلى درجاته .

لماذا تريد إنسانًا - من أول الأمر - غنيًا ذا مال ؟ والله أعلم هذا المال من حلال أو من حرام ؟

لتبدأ درجات السلم من أوله مع فتى أحلامها ، مع زوجها هذا ، وتعيش حياة كفاح وعناء ، كما عاشت نساء المسلمين فى الزمن الأول : فاطمة الزهراء ، وأسماء ذات النطاقين ، وغيرهما من نساء الصحابة (٢) .

يا أيها الإخوة ، ويا أيتها الأخوات . . .

هذا هو ديننا ، ديننا جاء بالتيسير ، فما لنا نلجأ إلى التعسير ؟ ديننا جاء بالتوسيع، فلماذا نلجأ إلى التضييق ؟ ديننا خفف عنا ، فلماذا نشدد على أنفسنا ؟

علينا أن ندرك هذا ، ونعلم أبناءنا وبناتنا هذا ، حتى نحل تلك العقدة ، وحتى يتزوج الشبان والشابات ، بدل أن يلجأ الشباب إلى طرق تعرفونها ، يجدون الحرام

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن على رضى الله عنه ، أنظر (اللؤلؤ والمرجان ، حديث ١٧٣٩) .

(٢) انظر كتاب (نساء المؤمنات) للأستاذ القرضاوى .

فيها ميسراً هنا وهنالك ، أو بدل أن يلجأ إلى الزواج من أجنبية ، ويدع ابنة بلده ، وأقرب الناس إليه .

هذا هو الإسلام ، فإذا أردنا الخير كل الخير ، والسعادة كل السعادة ، فلا بد أن نرجع إلى هذا الدين ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، إنه سميع قريب .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● الخطبة الثانية :

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ، ﴿ ... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٢) ، ﴿ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) . اللهم آمين، وأقم الصلاة .

* * *

(١) الحشر : ١٠ .   (٢) الفرقان : ٧٤ .   (٣) آل عمران : ١٤٧ .

المسلمون فى مواجهة القوى المعادية [1]

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

حديثنا اليوم عن المسلمين فى مواجهة القوى المعادية والتيارات الغازية .

مر على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه سادة العالم ، وقادة الدنيا ، سادوه بالإيمان والقرآن ، وقادوه بالعلم والإحسان ، حكموا فعدلوا ، واؤتمنوا فأدوا ، وكانوا للدنيا هداة خير ، ودعاة رشد .

ذهبت جيوشهم إلى كل مكان ، المصحف فى يد ، والسيف فى يد ، لا يكرهون أحدًا على الدخول فى دينهم ، ولكن ليحقوا الحق ، ويبطلوا الباطل ، ويقفوا مع الضعيف ضد القوى ، ومع المظلوم ضد ظالمه .

كانت لهم حضارة شامخة الذرا ، جمعت بين العلم واليقين ، ووصلت الأرض بالسماء ، وربطت الدنيا بالآخرة ، ووفقت بين العقل والقلب ، بين المادة والروح ، بين حق الفرد ومصلحة المجموع .

كانت كتب المسلمين تدرس فى جامعات العالم ، كان علماء المسلمين أشهر أسماء أهل العلم فى الدنيا ، كانت اللغة العربية لغة العلم فى كل أقطار العالم .

بلغ من مجدنا أن جلس أحد الخلفاء [2] يومًا ينظر إلى السحابة فى السماء ويقول لها : شرقى أو غربى فسيأتى ثمرة خراجك إلى بيت مال المسلمين .

هكذا كنا ، حتى جاء هذا العصر ، ودار الفلك دورته ، وإذا بنا نصبح فى

---

(١) ألقيت هذه الخطبة فى أحد جوامع الكويت ، وأذيعت من الإذاعة والتليفزيون ، وكانت بعد الإعلان - فى مؤتمر المصارف الإسلامية المنعقد بالكويت - عن ضرورة تأسيس صندوق إسلامى أو هيئة إسلامية عالمية ، للوقوف فى وجه الغزو التنصيرى الذى يهدد المسلمين .

(٢) هو (هارون الرشيد) خامس الخلفاء العباسيين .

المؤخرة ، بعد أن كنا فى المقدمة ، نصبح وراء الأمم بعد أن كنا فى مأخذ الزمام من القافلة ، أصبحنا نسمى العالم الثالث أو البلاد النامية ، وهو تعبير ملطف للبلاد المتخلفة .

ولم يكف هذا ، بل طمعت فينا كل القوى ، طمع فينا من لا يدفع عن نفسه ، وغلبنا كل مغلب ، وأصبحنا نهب الطامعين والناهبين من الشرق ومن الغرب .

كل القوى وكل الجبهات تألبت علينا ، وتكالبت علينا ، تختلف فيما بينها ، ولكن إذا كنا نحن العدو اتفقت كلمتها جميعًا ، وهذا ما قاله فقهاؤنا من قبل : (الكفر كله ملة واحدة) ، بل هذا ما قاله الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [١] .

جبهات الكفر جميعًا كلها تألبت علينا : الجبهة الشيوعية التى لا تؤمن بالله ، ولا تؤمن بالوحى ، ولا تؤمن بالآخرة ، ولا تؤمن بدين من أديان السماء ، وتقول: ليس صحيحًا أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا .

هذه الجبهة لا تكتفى بأن تغزونا من الداخل بواسطة أحزابها وعملائها ودعاتها وأدعيائها ، بل غزتنا من الخارج ، غزتنا بقوة السلاح ، ودخلت جحافلها بلدًا مسلمًا ما زال يعانى من آثار الغزو ، ويقاتل بكل ما يستطيع ، ذلكم هو أفغانستان[٢] .

---

(١) الأنفال : ٧٣ .

(٢) كان ذلك فى ٢٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٩ م ، وفى ١٣ فيراير (شباط) ١٩٨٩ م تم انسحاب جميع القوات السوفياتية من أفغانستان ، بعد الهزائم والخسائر التى منيت بها على أيدى المجاهدين الأبطال ، ثم كان فتح (كابل) ودخول المجاهدين إليها فى إبريل (نيسان) ١٩٩٢ م .

لكن الفرحة التى امتلأت بها صدور المؤمنين بدخول كابل ، والإعلان عن تشكيل حكومة المجاهدين لم تكتمل ، بسبب هذا الاقتتال الدامى الذى نشهده بين بعض قادة المجاهدين وفصائلهم هناك ، ولا نملك إلا أن ندعو الله عز وجل ، أن يوحد كلمتهم ، ويلم صفوفهم ، ويحقن دماءهم ، ويأخذ بأيديهم إلى الاعتصام بحبله ، امتثالاً لقوله : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ =

الجبهة اليهودية . . . اليهود الذين عاشوا متفرقين فى أنحاء العالم ، ولم يجدوا لهم صدرًا حنونًا إلا فى ديار الإسلام ، فى بلاد المسلمين ، وفى ظل دار الإسلام ، عاشوا آمنين مطمئنين ، يكسبون المال ، ويكسبون الغنى ، وتكون لهم المكانة ، هؤلاء التفوا على المسلمين أخيرًا ، ولم يرضوا أن تكون لهم دولة إلا فى قلب ديار العروبة والإسلام .

وقامت (إسرائيل) تغتصب أرضنا ، وتخرج أهلها من ديارهم ، وتقيم دولة على أساس دينى ، ولذلك سمتها : (إسرائيل) .

جاء اليهود من أنحاء متفرقة ، ومن أوطان شتى ، ولم يجمعهم جامع إلا الدين. . . إلا التوراة . . . وإلا أحلام ، ونبوءات دينية فى أسفارهم المقدسة ، ولم يكتفوا بهذا. . . لم يكتفوا بأن يقيموا دولة يطردون أهلها من أرضهم ، ليعيشوا عليها ، حتى ناوشوا كل من حولهم ، واقتطعوا أراض أخرى ، وما زالت لهم أطماع وأطماع ، ولعلنا نقرأ فى هذه الأيام ما يكتبه المفكر الفرنسى الذى هداه الله إلى الإسلام : (رجاء جارودى) (١) ، وتنشر صحف القاهرة وصحف الكويت كلام هذا المفكر عن أحلام الصهيونية وأباطيلها ، وأنّ لهم أحلامًا أخرى غير هذه الأحلام، إنهم يقولون : إن ملك (إسرائيل) من الفرات إلى النيل ، إنهم يخططون لتقسيم البلاد العربية حولهم ، حتى يطمئنوا على وجودهم ، فهم يحلمون بتمزيق سوريا ، وتمزيق مصر ، يريدون أن يقيموا فيها دولة للنصارى فى الصعيد ، كما رأيتم فى صحف اليوم ، بل حتى دول الخليج يحلمون بتمزيقها ، ولا تقولوا : هذه أحلام وأمانى ، فكثيرًا ما رأينا الأحلام والأمانى انقلبت إلى واقع ونحن لا نفعل شيئًا .

= جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وقوله : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . . ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(١) كان عضوًا بارزًا فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، وبعد رحلة طويلة ومطالعات مستمرة ، ودراسات للحضارات والأديان ، شرح الله صدره للإسلام ، حيث أعلن إسلامه فى رمضان عام ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م بـ (جنيف) . . وانظر الدراسة التى أعدها محمد عثمان الخشت بعنوان: (لماذا أسلمت ؟) .

اليهود الذين هم أبخل الناس ، وأجبن الناس ، يقاتلون عدة دول وينتصرون ، ويبذلون المال بالملايين والبلايين ، هذا ما حدث أيها الإخوة .

الجبهة النصرانية تعمل لنشر دينها فى أنحاء العالم ، فى أقطار شتى ، ومنها أقطار الإسلام ، الكاثوليكية تملك ما لا يقل عما تملكه دولة عظمى فى أنحاء العالم ، وتمول به جيشًا جرارًا من المبشرين والمبشرات ، والرهبان والراهبات ، وتعمل على تنصير المسلمين فى العالم .

فى أندونيسيا أكبر بلد إسلامى أكثر من خمسين مطارًا للإرساليات التبشيرية ، وهم يخططون لتنصير أندونيسيا فى خمسين عامًا ، فى إفريقيا . . . فى نيجيريا رأينا من المسلمين من تركوا دينهم ، وخاصة من الفقراء ، واليتامى الذين لا يجدون راعيًا ، فى الصومال ثلاثون ألف طفل ممن شردوا ، ومات آباؤهم وعائلوهم فى الحرب والكوارث ، تبناهم مليونير بليجيكى كاثوليكى ، هل تبناهم لوجه الله تعالى ؟ أم لينشئهم على عقيدته ؟ هل منا من استجاب للنداء ، وقال : أنا أتبنى هؤلاء ؟ مسؤولية هؤلاء فى عنق من ؟ إثم هؤلاء فى عنقنا نحن جميعاً .

وليست الجبهة الكاثوليكية هى التى تعمل فقط ، بل البروتستانتية تعمل أيضًا ، فى سنة ١٩٧٨ م اجتمع مائة وخمسون مبشرًا أمريكيًا فى ولاية (كلورادو) ، وبحثوا أحوال المسلمين فى أربعين بحثًا قدم لهذا المؤتمر - الذى يطلق عليه البعض : (مؤتمر حكماء كلورادو) تشبيهًا (لمؤتمر حكماء صهيون) - وقرروا العمل على تنصير المسلمين فى العالم ، ورصدوا لذلك (ألف مليون دولار) ، وهذا أمر ليس خفيًا ، بل هو منشور فى كتب يقرأها المسلمون ، وتحدثت عنها المجلات والصحف .

ولا نلوم القوم على حماسهم لنشر دينهم ، إنما نلوم أنفسنا لأننا تقاعسنا عن نشر ديننا ، بل تقاعسنا عن الدفاع عن شخصيتنا ، بل تقاعسنا حتى أصبح المسلمون يغلبون من كل جانب ، وتنتقص أطرافهم ، وتؤخذ أرضهم ، وتنتهك حرماتهم ، وينصرّ أبناؤهم .

وهناك الجبهة الوثنية التى تحاربنا أيضًا ، ولعلكم سمعتم عن الآلاف الذين ذبحوا

فى ولاية (آسام) الهندية ، ماذا جنى هؤلاء ، كل ذنبهم أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ، ولا يعبدون البقر ، ما ذنب هؤلاء حتى يقتلوا ويذبحوا ذبح النعاج ؟ بل إن الذين يذبحونهم لا يذبحون النعاج ، لأنهم يعتقدون أن أى ذى روح حرام قتله ، ولا يجوز ذبحه .

إنهم يتركون الفئران تأكل القمح ، ولا يستعملون المبيدات الحشرية حتى لا يقتلوا ذا روح ، كنا ننزل الفنادق فلا نجد أى مادة يمكن أن نقتل بها البعوض ، لأن قتل البعوض لا يجوز ، وقتل أى ذى روح لا يجوز ، الدم الوحيد الذى يجوز سفكه هو دم المسلمين .

لقد أصبح الدم الإسلامى أرخص دم فى العالم ، المسلمون يقتلون ويذبحون فى كل مكان ، ولا يبدو من يغيثهم ، هذا ما حدث للمسلمين مع الأسف ، فأين الألف مليون مسلم ؟ المسلمون ألف مليون أو تزيد ، مليار منتشرون فى القارات الخمس فأين هم ؟ لماذا لا يدافعوا عن أنفسهم ؟

لقد قال رجل ممن قرأ عن الإسلام وأعجب بتعاليمه : (يا له من دين لو كان له رجال) ، فأين الألف مليون ، أليسوا رجالاً ؟ أين الذين ينسبون إليه ؟ ويحسبون عليه ؟ أين هم ؟ إننا نجدهم ما بين مشغول بنفسه ، لا يهمه أمر غيره ، و« من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . . . » (١) أين هؤلاء من قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . . ﴾ (٢) ؟ أين هؤلاء من قول الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . . . ﴾ (٣) ، أين هؤلاء من قول رسول الله ﷺ: « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه . . . » (٤) ؟ أى لا يظلمه ، ولا يتركه يظلم ويؤذى ، ويهان ، دون أن يقدم له شيئًا .

---

(١) الحديث عن حذيفة بن اليمان ، رواه الطبرانى من رواية عبد الله بن أبى جعفر وهو مختلف فيه ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥١٤ ، الحديث ٩٩٧) ، وتتمة الحديث : « ومن لم يصبح ويمسى ناصحًا لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولإمامه ، ولعامة المسلمين ، فليس منهم » .

(٢) الحجرات : ١٠ . (٣) التوبة : ٧١ .

(٤) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود واللفظ له ، والترمذى وقال : حديث حسن =

المسلمون ما بين مشغول بنفسه ومصلحته الشخصية ، وما بين تائه لا يعى حجم المأساة التى يعيشها المسلمون ، يشغل نفسه بتوافه الأمور ، ويقيم معارك من أجل أمور سطحية فى الدين ، وقد ترك الصلب ، وترك القضايا الكبرى المصيرية ، وترك أمته تصطلى بنار الهزائم والنكسات والمصائب وهو لا يفعل شيئًا .

وهناك من يعى حجم المأساة ولكنه يائس ، ألقى السلاح وقال : لا فائدة من الكفاح ، كتب علينا الهوان ، وهذا لا يتفق مع طبيعة الإيمان ، فـ : ﴿ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (1) ، ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ ﴾ (2) .

وهناك إناس لم يكتفوا بالصمت والسكوت ، ولكنهم ذهبوا يمزقون الصفوف ، ويثبطون الهمم ، ويذكون نار الفتن بالوقود ، حتى تظل مشتعلة ، تأكل اليابس والأخضر .

يا أيها الإخوة : إن المسلمين قادرون على أن يحتفظوا بشخصيتهم ، قادرون على أن يكون لهم مكانهم تحت الشمس ، قادرون على أن يكونوا أمة قوية كما أراد الله لهم : ﴿ . . . أُمَّةً وَسَطًا . . . ﴾ (3) ، وعندهم من الطاقات والإمكانات ما يغنى.

عندهم الكثرة العددية . . . الألف مليون ، والكثرة نعمة كما قال الله تعالى : ﴿ . . . وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ . . . ﴾ (4) ، هذه الكثرة تستطيع أن تفعل الكثير لو وجدت من يوظفها ، ومن يفجر ما فيها من إمكانات .

= صحيح غريب (المنتقى : ٢/ ٦٤٧ ، الحديث ١٣٨٦) ، وتتمة الحديث : « من كان فى حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة » .

(1) يوسف : ٨٧ . (2) الحجر : ٥٦ .

(3) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(4) الأعراف : ٨٦ .

والمسلمون يملكون القوة المادية ، عندنا من الثروات المذخورة فى باطن الأرض ، ومن الثروات المنشورة على ظاهرها ، عندنا من الرصيد النقدى ، عندنا من موقعنا الجغرافى ، عندنا من كل ذلك الشيء الكثير .

ونملك - قبل ذلك كله - القوة الروحية ، لأننا وحدنا نملك الرسالة الخالدة ، رسالة محمد ﷺ التى بعثه الله بها لينقذ العالم ، ويكون رحمة للعالمين ، عندنا رسالة الشمول والتوازن التى لا يمكن أن يشفى الدنيا من أدوائها غيرها .

كل ما فى الأمر أننا نحن المسلمين حجاب حاجزعنها ، ينظر الناس إلى الإسلام من خلال المسلمين ويقولون : أين أثر الإسلام فى هؤلاء ؟

نحن نملك الوثيقة السماوية الوحيدة المنزلة من السماء إلى الأرض ، التى لم يعترها تحريف ولا تبديل ، نملك القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نحن نملك تراثًا حضاريًا عريقًا ممتدًا إلى أربعة عشر قرنًا من الزمان نحن نملك من القوى والإمكانات ما هو جدير بأن يجعلنا فى المقدمة وفى الطليعة ، ولكننا لا نستغل طاقاتنا ، غافلون لاهون متفرقون متنافرون ، فمتى نعود إلى ديننا ، نستمسك بعراه ، ونهتدى بسناه ، ونسير خلف رسول الله ﷺ ، نقتدى بسنته ، ونسير بسيرته ؟

إن الإسلام وحده هو سفينة الانقاذ ، هو حبل النجاة ، لو وعيناه حق الوعى ، وفهمناه حق الفهم ، كما أنزل الله على رسوله ، وكما فهمه أصحابه وتابعوهم بإحسان .

نريد الإسلام الحق ، الإسلام شاملاً بلا تجزئة ، خالصًا بلا شركة ، سالمًا من الشوائب والزوائد والفضول التى ألحقت به على مر العصور وليست من صلبه ، نريد العودة إلى هذا الإسلام ، ويوم نعود إليه ثقوا أننا سنقود الدنيا بزمام ، وسيعود لنا شأننا من جديد .

إن للإسلام لدولة وظهورًا ، وإقبالاً قبل قيام الساعة ، وإننا لننتظر هذا اليوم الذى تنطلق فيه أنوار الإسلام فى كل مكان ، وتخفق فيه رايات هذا الدين فى آفاق الدنيا كلها ، إننا لننتظر هذا اليوم : ﴿ . . . وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ

الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [1] ، يقول رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ، قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس » [2] .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

إن الجبهات المعادية للإسلام تصنع ما يمليه عليها حماسها لعقائدها ودينها ، فماذا صنعنا نحن أمام هذه الجبهات والتحديات ؟ ماذا صنعنا ونحن نملك الكثير ؟

كما قلت لكم إننا قادرون على أن نرصد لديننا كما رصد بعض هؤلاء لدينهم ، إذا كان المبشرون الأمريكان قد رصدوا (ألف مليون دولار) لتنصير المسلمين فى العالم ، فلماذا لا نرصد نحن مثلها ؟ لماذا لا نرصد (ألف مليون دولار) لحماية المسلمين فى العالم ؟ لانقاذ المستضعفين ، لإيواء المشردين ، لرعاية اليتامى وأبناء السبيل ، لإطعام الجائعين ، لهداية الحائرين ، لتشغيل العاطلين ، لتعليم الأميين .

المسلمون فى العالم فى حاجة لأى معونة ، لقد طفت كثيراً من بلاد العالم الإسلامى ، وزرت كثيراً من الجاليات والأقليات المسلمة خارج العالم الإسلامى ، فوجدت هناك من يحتاج إلى اللقمة ، هناك من يموت جوعًا ولا يجد ما يسد

---

(1) التوبة : ٣٢ ، ٣٣ .

(2) رواه أحمد والشيخان عن معاوية ، وروى الحديث بألفاظ مختلفة عن عدد من الصحابة فى الصحيحين أو أحدهما أو كتب السنة الأخرى : عن المغيرة ، وثوبان ، وأبى هريرة ، وجابر ، وعمران بن حصين ، وعقبة بن عامر ، وقرة بن إياس ، انظر : الجامع الصغير وزيادته : الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) .

جوعته ، وهناك من يموت من البرد ولا يجد من يستر عورته ، هناك مدارس زرتها تحتاج إلى الكراسة وإلى القلم فلا تجده ، بينما الكنيسة تمد المدارس الإرسالية والتبشيرية بالآلاف من الكتب والكراسات والأدوات ، وتقول للمسلمين : ما عليكم إلا أن تحضروا مع هؤلاء ونحن نمدكم بكل شيء ، وجدت هذا أيها الإخوة .

في بعض البلاد وصلت المجاعة بأهلها إلى أن كان الكلب والإنسان يتصارعان من شدة الجوع ، يريد كل منهما أن يصرع الآخر حتى يأكله ، وصل الأمر فى بعض بلاد الإسلام إلى هذا الحد ، فماذا صنعنا نحن ؟ نحن الذين أفاء الله علينا من رزقه، ووسع علينا فى العيش ، وأفاض علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ماذا صنعنا ؟

اليهود الذين عرفوا فى التاريخ بالبخل والشح ، إذا نزلت بإسرائيل ضائقة ، ذهب (بيجن) وأمثاله إلى يهود أمريكا ، وعاد بمئات الملايين فى أيام معدودات ، فماذا صنعنا نحن المسلمون ؟

الفكرة التى أطرحها عليكم وعلى المسلمين فى العالم ، وقد طرحتها من قبل فحمّلنى المسلمون أن أبلغها إلى كل مكان أذهب إليه ، وأولى هذه الأماكن هذا البلد الذى منّ الله عليه بالكثير ، والذى نرى فيه تيارًا إسلامياً قويًا ، واتجاهًا إلى الإسلام فى سائر النواحى ، هذه الفكرة هى : أن نجمع (ألف مليون دولار) [1] .

إن فى الكويت أموالاً لو دفعت زكاتها لكان هناك : (ألف مليون دولار) (أربعون ألف مليون دولار) زكاتها : (ألف مليون) ربع العشر ، ولو أن المسلمين فى أنحاء العالم دفع كل واحد منهم (دولارًا) لأنقذ ذلك بقية المسلمين .

كان اليهود يقولون فى الأربعينات : ادفع دولارًا تقتل عربيًا ، ونحن نريد أن نرفع شعارًا يقول : ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا ، ولكن من ينادى المسلمين ؟ ليس عندنا

---

(١) انظر (قضايا إسلامية معاصرة على بساط البحث ص ١٣٥ - ١٤٧) للأستاذ القرضاوى حفظه الله ، لتعرف كيف بدأت هذه الفكرة وما دورها ؟ كما دعا المسلمين أن يشدوا أزر الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - التى تسعى جاهدة لتحقيق هذه الفكرة - ويقفوا بجانبها فى عدد من كتبه مثل : (لقاءات ومحاورات ص ١٥٦ - ١٥٧) و(هموم المسلم المعاصر ص ٥٠ - ٥٥) .

خليفة يقول للناس : ابذلوا فيبذلون ، وليس عندنا بابًا ، وليس عندنا شيخ إسلام، ليس عندنا من يقول للناس ذلك ، إلا أهل العلم ، وأهل الغيرة على الإسلام ، وهؤلاء يجب أن يجتمعوا ويجب أن يفعلوا ، وفى استطاعتهم ذلك لو أرادوا .

إن تشاكى الهموم لا ينفع ، المسلمون يستشعرون ما هم فيه من مآسٍ ومن آلام ، وكلما جلس بعضهم إلى بعض تشاكوا الهم ، ولكن إلى متى نتشاكى ، ولا نفعل شيئًا ، ولا نقدم خطوة إلى الأمام ؟ لا بد أن نفعل ، لا بد أن نبدأ .

لقد ذكرت هذه الفكرة فى الجلسة الختامية لمؤتمر المصرف الإسلامى المنعقد فى الكويت أول أمس ، فجاء إلىّ أحد الخيرين من أهل الكويت وقال : سجل اسمى بمليون دولار لهذا المشروع [(١)] ، وأعتقد أن من أمثاله يوجد الكثيرون فى هذا البلد من رجال ومن نساء .

إننا فى حاجة إلى صندوق عالمى للإغاثة الإسلامية ، إننا فى حاجة إلى مال نحافظ به على شخصية المسلمين ، ونحن قادرون على هذا لو صدق منا العزم ، فإذا صدق العزم وضح السبيل ، ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ [(٢)] ، ولا بدّ من أن نغير ما بأنفسنا بالعمل بدل القول ، وبالإيجابية بدل السلبية .

يا أيها الإخوة المسلمون : آن لنا أن نخرج من إطار الهزائم والنكسات ، وأن نرجع إلى أيام الانتصارات ، آن لنا أن نعود أمّةً كما كنّا ، لو أننا وضعنا أيدينا بعضنا فى يد بعض .

إننا قوة كبيرة ولكنها متفرقة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [(٣)] ، المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، ضعيف بمفرده قوى بجماعته .

---

(١) هو الأخ الفاضل : الشيخ عبد الله على المطوع ، التاجر المعروف ، ورئيس جمعية الإصلاح الاجتماعى بالكويت ، وقد أوصى بعدم ذكر اسمه ، ولكنه عرف بعد .

(٢) الرعد : ١١ .　　(٣) الصف : ٤ .

تبنوا هذه الدعوة ، الدعوة إلى صندوق للأمة الإسلامية ، ننقذ به ضحايا الفقر والفاقة والحرمان والضياع ، نحافظ به على المسلمين . . . نعلمهم . . نرعاهم ، ندافع به عن ديننا أمام الهجمات الشرسة من الشرق والغرب ، حتى لا نكون مخذولين إذا وقفنا أمام الله تعالى وقال لنا : ماذا فعلتم لدينكم ؟ ماذا فعلتم لأمتكم؟ ماذا فعلتم لإخوانكم ؟ فحضّروا للسؤال جوابًا .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يشرح صدورنا للعمل بدينه ، وأن يهيىء من أمرنا رشدًا ، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وقلوبنا على التقى ، وأنفسنا على عمل الخير وخير العمل ، اللهم لا تدع لنا ذنبًا إلا غفرته ، ولا عيبًا إلا سترته ، ولا مريضًا إلا شفيته ، ولا حاجة هى لك رضا ولنا فيها صلاح إلا قضيتها ويسرتها يا رب العالمين ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية ، فى ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ، ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا ، اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى ، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن ، وحبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، وصل على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ، يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

توحيد العرب تحت راية الإسلام

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

استبشرنا واستبشر المسلمون فى أنحاء الأرض ، باجتماع قادة العرب فى قمة تعمل على أن تصلح ذات بينهم ، وأن توحد كلمتهم ، وتجمع شتاتهم ، فليس هناك أنفع للمسلمين من الوحدة ، وليس هناك أشد ضرراً عليهم من الفرقة .

والعرب هم ذؤابة المسلمين ، وهم عصبة الإسلام ، وأرضهم هى حرم الإسلام، ففيها المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها [1] ، ولغتهم لغة العبادة الإسلامية ، ولغة الثقافة الإسلامية ، ولغة القرآن والسنة .

لهذا فإن اجتماع كلمة العرب ، واقتراب بعضهم من بعض ، يسر المسلمين فى كل مكان ، وقد جاء فى الأثر : « إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام » [2] ولا يعز العرب إلا بالإسلام ، ولن يذل العرب إلا بالبعد عن الإسلام .

اتحاد الكلمة واجتماع الصف أمر جاء به الإسلام ، وأمر به ، ورغّب فيه ، وجعله من القواعد الأساسية التى لا تقوم الأمة إلا عليها ، فللإسلام مهمتان فى هذا الوجود : بناء الفرد المسلم على أقوى الدعائم الإيمانية والفكرية والأخلاقية والسلوكية، وبناء الأمة المسلمة على كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة .

---

(١) وفى الحديث الصحيح : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » رواه أحمد ، والشيخان ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه عن أبى هريرة ، ورواه أحمد ، والشيخان ، والترمذى ، وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى ، ورواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو ، كما فى الجامع الصغير للسيوطى .

(٢) أورده الهيثمى فى « المجمع » وقال : رواه أبو يعلى (عن جابر) وفيه : محمد بن الخطاب البصرى ، ضعفه الأزدى وغيره ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح (١٠/٥٣) ، وقواه المناوى فى فيض القدير (١/٣٤٨) حديث (٦١٧) ونقل عن العراقى أنه صححه ، وخالفهم الألبانى فى سلسلة الضعيفة فحكم على الحديث بالوضع ! أنظر: حديث (١٦٣) ، ويلاحظ أن الشيخ ذكره على أنه أثر .

الأمة التى يريدها الإسلام أمة واحدة ، لا تعرف الفرقة ، ولا تعرف العداوة ولا البغضاء بين بعضها وبعض ، والعرب أولى الناس بأن يمثلوا الإسلام ، ووحدتهم فيما بين بعضهم وبعض ، هى السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية الكبرى ، ووجود وحدة جزئية لا ينافى قيام وحدة كلية ، إذا لم يكن هناك دعوة إلى انغلاق أو انعزال.

لهذا يفرح المسلمون إذا اجتمع العرب ، وصفوا ما بينهم من خلافات ، ووقفوا صفًا واحدًا ليواجهوا المشكلات ، ويواجهوا الكوارث التى يحاول أعداء الأمة أن يصبوها عليهم من كل جانب ، عن يمين وعن شمال .

نحن فى عصر لا يعرف إلا التكتل ، فلو تكلمنا بمنطق العصر ، أو بمنطق المصلحة ، أو بمنطق الدين ، فكل هذا يفرض على المسؤولين فى هذه الأمة ، وعلى كل ذى رأى ووعى ، أن يسعى إلى الوحدة ، وأن تبتعد هذه الأمة عن الفرقة .

منطق الدين يجعل هذه الأمة أمة واحدة ، وحد الإسلام عقيدتها ، ووحد الإسلام شريعتها ، ووحد الإسلام قبلتها ، ووحد الإسلام أسوتها ، ووحد الإسلام مفاهيمها ، ووحد الإسلام مشاعرها ، ووحد الإسلام تقاليدها ، فهى أمة واحدة فى كل هذه النواحى .

أمة واحدة تجتمع على عقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، تجتمع على شريعة الإسلام . . . على أحكام واحدة فى شؤون دينها ودنياها ، تجتمع على قبلة واحدة ، تصلى دوائر دوائر حول الكعبة ، تصغر وتضيق ، ثم تتسع حتى تشمل الكرة الأرضية جميعها .

قبلة واحدة ، زعامة واحدة ، وأسوة واحدة ، هى زعامة رسول الله ﷺ : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (١) .

مفاهيم واحدة ، أفكار واحدة ، المفاهيم الأساسية عند المسلمين مستقاة من القرآن والسنة ، فقد وحد الإسلام طريقة تفكيرهم ومنهجهم ، كيف يفكرون ، وكيف

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

يرفضون الظن ، واتباع الهدى ، والتقليد الأعمى ، وكيف لا يقومون إلا على اليقين، ولا يقبلون شيئًا إلا ببرهان ﴿ ... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١) . فهذه هى العقلية الإسلامية التى كوّنها القرآن عند كل مسلم .

حتى عواطفهم : الحب والبغض ، فهم يحبون فى الله ، ويبغضون فى الله ، يحبون الحق ويكرهون الباطل ، يحبون الخير ويكرهون الشر ، يحبون الصالح ويكرهون الفاسق ، يحبون الله ويكرهون الطاغوت .

التقاليد ، حتى فى الأكل والشرب ، واللبس ، والركوب ، والمشى ، والجلوس، والنوم واليقظة ، والسفر والحضر ، تجد المسلمين متحدين ، أو متقاربين جدًا فى تقاليدهم ، فالمسلم إذا أكل يأكل بيده اليمنى ، ويبدأ ببسم الله ، وإذا فرغ قال : الحمد لله ، وإذا لقى أخاه قال : السلام عليكم ، فيرد : وعليكم السلام ، وإذا عطس قال : الحمد لله ، فقال له أخوه : يرحمك الله (٢) ، تقاليد واحدة تجعل المسلمين متفاهمين فى كل شىء .

المسلمون أمة واحدة فى حياتهم كلها ، ولكن الخطر يأتى من الدسائس التى تريد أن تفرق جماعتهم ، وقد بدأ هذا منذ عهد رسول الله ﷺ ، حينما جمع الله الأوس والخزرج على الإسلام ، وعلى رسول الله ﷺ ، وألف بين قلوبهم ، وأزال منها البغضاء والشحناء التى كانت بينهم فى الجاهلية ، مر بهم أحد اليهود الخبثاء اسمه : (شاس بن قيس) فغاظه أن يرى هؤلاء الذين طالما تحاربوا ، وطالما سفكت منهم الدماء ، وطالما قامت بينهم المعارك ، أن يراهم مجتمعين على عقيدة واحدة ، فجلس بينهم بخبث ودهاء ، يذكرهم بأيام الجاهلية ، وينشد بعض الأشعار التى

---

(١) النمل : ٦٤ .

(٢) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «حق المسلم على المسلم ست ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه» رواه مسلم ، ورواه الترمذى ، والنسائى بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٧١٦/٢ ، الحديث ١٦١٧) .

قالها الأوس يوم انتصارهم ، فيرد عليهم الخزرج : بأننا انتصرنا يوم كذا ، وقال شاعرنا كذا ، وما زال يذكى هذه النار ، وما زال يطعمها بالوقود حتى تأججت ، ونادى الرجال من الأوس : يا للسلاح ، والرجال من الخزرج : يا للسلاح ، يا للأوس ، يا للخزرج ، وسمع النبى ﷺ بذلك ، فأقبل عليهم يقول لهم : «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟! » وتلا عليهم الآيات ، فندموا واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح (١) .

التداعى بالقبيلة ... الأوس ... الخزرج ، انتهى هذا ، اسمكم الآن : الأنصار ، لا أوسية ، ولا خزرجية الآن ، بل هناك الإسلام الذى جمع بينكم ، وذكرهم الله وتلا عليهم القرآن ، فبكوا وذرفت أعينهم الدموع ، وعانق الرجال من هؤلاء الرجال من هؤلاء ، وعرفوا أنها نزعة شيطان ، كان الشيطان هو ذلك اليهودى الماكر .

وأنزل الله آيات تتلى من سورة آل عمران : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٢) - أى بعد وحدتكم متفرقين ، سمى الله الوحدة إيمانًا والتفرق كفرًا - ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) ، ثم دلهم على طريق الوحدة ، وهى تقوى الله عز وجل ، والاعتصام بحبله ... بكتابه ... بدينه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

لا بد من أن يكون هناك شىء يجتمع عليه الناس ، هذا الشىء هو حبل الله المتين، هو الذكر الحكيم ، هو الصراط المستقيم ، هو القرآن الكريم ، هو الذى يجمع المتفرقين ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٥).

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن محمد بن إسحاق (١/٣٨٩) ط . الحلبى .

(٢) آل عمران : ١٠٠ .

(٣) آل عمران : ١٠١ .

(٤) آل عمران : ١٠٢ .

(٥) الأنعام: ١٥٣ .

« ولا تتبعوا السبل » ولكن اتبعوا هذا الصراط المستقيم ، فهناك سبل على رأس كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، فإذا اتبعتم هذه المناهج وهذه السبل ، وهذه الدعوات المستوردة من هنا وهناك ، ستتفرق بكم الطرق والمناهج ، هذا إلى اليمين وهذا إلى اليسار ، وهذا يوالى الشرق وهذا يوالى الغرب .

ولا بد من حبل تعتصمون به : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

ثم أرشدهم إلى أمر من شأنه أن يجمع كلمتهم ، هو أن يكون لهم رسالة، أن يكونوا أصحاب دعوة ، أن يكون هناك مبرر لوجودهم بين الناس ، فما هى مهمتهم ؟

إنها الدعوة إلى الله . . . إلى الخير ، إنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إنها رسالة الهداية للعالم ، إنهم إذا انشغلوا بذلك اجتمعت كلمتهم ، ولذلك قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ، وقال بعد آيات : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ . . . ﴾ (٣) .

ثم حذرهم . . . حذرهم من الفرقة والاختلاف ، وأن يقع بهم ما وقع بالذين من قبلهم من أهل الكتاب ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . . ﴾ (٤) .

وضح الله لهم الطريق ، ولكنهم تركوا الطريق الواضح ، وذهبوا إلى بينات ،

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٤ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

(٤) آل عمران : ١٠٥ ، ١٠٦ .

وإلى طرق ملتوية هنا وهناك ، فتفرقت كلمتهم ، لا تكونوا كهؤلاء : « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » (١) .

هذا ما حذر منه القرآن : الخلاف والفرقة ، وخصوصًا فى أوقات الشدائد . . . فى أوقات المعارك ، فالله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً . . . ﴾ من أعدائكم فى معركة ﴿ فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

ونحن الآن فى معركة مع عدو يريد أن يمزق صفوفنا ، وأن يضرب بعضنا ببعض، وأن ينفرد بكل منا على حدة ، هذا العدو هو اليهودى الصهيونى الصليبى الشيوعى، أعداء من كل ناحية ، يفترقون فيما بينهم ويجتمعون علينا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . . . ﴾ (٤) فلا بد من أن نعرف هذا ، وأن نوحد صفوفنا .

إذا لم يجتمع الناس عند المعركة ، فمتى يجتمعون ؟! وإذا لم يتحدوا عند الشدة، فمتى يتحدون ؟!

المصائب يجمعن المصابين ، والشدائد تجمع المتفرقين ، والمعارك تؤلف بين المتخاصمين ، فآن لنا أن نفهم هذا .

منطق الدين يفرض علينا نحن العرب والمسلمين أن نتحد . . . أن نجتمع .

منطق المصلحة ، منطق العقل ، يقول : إننا لا يمكن أن ننتصر ، ولا يمكن أن نحقق ذاتنا ، ونثبت وجودنا ، ونتبوأ مكاننا تحت الشمس إلا بأن نتحد .

لا ننتصر فى الحرب ، ولا نتقدم فى السلم إلا بالاتحاد ، لا نستطيع أن ننتصر على عدونا ونحن متفرقون ، ولا يمكن أن نبنى تكنولوجيا متطورة ، أو تقدمًا علميًا معاصرًا ، إلا بالاتحاد . . . بالاجتماع . . . بالتكتل ، فإن الشعوب الصغيرة لا مكان لها .

---

(١) رواه البخارى عن ابن مسعود ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٧٢٥٥) .

(٢) الصف : ٤ . (٢) الأنفال : ٤٥ ، ٤٦ . (٤) الأنفال : ٧٣ .

إذا تكلمنا بمنطق العقل والمصلحة ، فالعقل والمصلحة يفرضان علينا أن نتحد ، وإذا تكلمنا بمنطق العصر الذى نعيش فيه ، فهو عصر لا يتكلم إلا بلغة التكتل .

الآن بعض الدول المتقدمة أصبحت ترى أنه لا مكان لها وحدها ، الدول الأوروبية الصناعية الكبيرة ، اتحدت فى سوق أوروبية مشتركة ، اتحاد اقتصادى أوشك أن يكون اتحادًا سياسيًا .

هؤلاء الذين طالما تحاربوا فيما بينهم من قبل ، ولكنهم وجدوا المصلحة ، ووجدوا منطق العصر يحتم عليهم أن يتحدوا اقتصاديًا ، ويتحدوا سياسيًا .

ما بالنا نحن نريد كل منا العيش فى حدوده الإقليمية الضيقة ، كل منا يريد كما قال الشاعر قديمًا :

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

الذى ضيع المسلمين فى الأندلس ، وأخرجهم من تلك البلاد - بعد أن أقاموا فيها حضارة عظيمة ، وظلوا فيها ثمانية قرون ، زرعوا فيها الخير والعلم والإيمان والأخلاق - هو تفرقهم بسبب ملوك الطوائف ، أن كل طائفة أصبح لها ملك ، وأصبح بعض هؤلاء يحارب بعضًا ، بل بعض هؤلاء كان يستعين على خصمه بالنصارى .... بالصليبيين المتربصين ، وكانوا يستجيبون لهم ، إنها فرصة أن يحالفوا بعضهم على بعض ، ويضربوا بعضهم ببعض ، ثم ينقضوا عليهم جميعًا ، وقد فعلوا .

بعد أن فرحوا بهذه الألقاب التى جعلت منهم شيئًا مذكوراً ، كما قال شاعرهم فى ذلك الوقت :

مما يزهدنى فى أرض الأندلس   ألقاب معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخًا صورة الأسد !

ضاعت الأندلس بسبب التفرق .

جربنا فى تاريخنا الكثير ، وجربنا فى حياتنا المعاصرة الكثير ، لا بد أن نتكتل ، رأينا العالم يتقارب ، ورأينا المتباعدين يقتربون ، والمختلفين يتفقون ، المختلفين دينيًا، والمختلفين فكريًا وأيدلوجيًا ، والمختلفين سياسيًا .

النصارى اقترب بعضهم من بعض رغم اختلاف مذاهبهم ، فكل مذهب كأنه دين مستقل .

اليهود والنصارى حاولوا أن يتقاربوا ، وأصدر (الفاتيكان) منذ سنين قليلة ، وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح ، بعد أن ظلوا عشرين قرنًا يحملونهم وزر ما اعتقدوا أنه صلب المسيح .

العمالقة ممن يعتنقون الرأسمالية والشيوعية تقاربوا ، تقاربت أمريكا مع روسيا ، وتقارب الفريقان مع الصين .

العالم يتقارب ، ونحن العرب والمسلمين - وحدنا - الذين نتباعد ؟! هل هذا منطق ؟ هل هذا عقل ؟ هل هذا يجيزه الدين ؟ أو تجيزه المصلحة ؟ أو يجيزه أى منطق كان ؟

إن كل منطق يفرض على هذه الأمة أن تتوحد ، أن تنسى ما بينها .

إن الذى يجرى بين المسلمين شىء عجيب ، إنها الدسائس والمؤامرات ، إنه الكيد. . . المكر الكبير ، المكر الذى يمزق هذه الأمة من داخلها .

فى كل بلد توجد خلافات ، إذا كان هناك مسلمون وغير مسلمين ، وجدت مسألة الأقليات الدينية ، وإن كان هناك مسلمون من عروق مختلفة ظهرت قضية الأقليات العرقية ، وإذا كان هناك مسلمون من مذهب ومسلمون من مذهب آخر وجدت الخلافات المذهبية ، إذا كانت هناك خلافات سياسية وأيدلوجية وجد الخلاف أو الصراع السياسى والأيدلوجى ، وغذى هذا وذاك ، لا بد من أن يوجد نوع من التفريق والتمزيق بين هذه الأمة !

ونحن للأسف ننصاع ونستجيب لهؤلاء ، ولا ندرى ما يكاد لنا ، وما يدبر لنا بليل .

إن على هذه الأمة أن تتفق ، نحن العرب حوالى مائتى مليون ، والمسلمون حوالى ألف مليون ، ونحن نرى تكتلات فى العالم . . . الصين ألف ومائة مليون ، الكتل الكبيرة موجودة ، فلماذا يراد بنا نحن أن نظل ممزقين ؟

إن علينا نحن المسلمين عامة ، ونحن العرب خاصة ، أن نستجيب لأمر الله ، وأن نستجيب لداعى الحق ، وداعى الخير ونتحد .

العرب يجمعهم الدين ، وتجمعهم اللغة ، ويجمعهم التاريخ ، ويجمعهم المصير المشترك ، وتجمعهم الآمال والآلام ، يجمعهم هذا كله ، ولكن أهم ما يجمعهم. . . الشيء الذى يجمع الجميع : هو أن يتذكروا الله سبحانه وتعالى ، أن يتقوا الله حق تقاته ، ألا يموتوا إلا وهم مسلمون ، ولن يموتوا على ذلك إلا إذا عاشوا مسلمين ، أن يعيشوا بالإسلام وللإسلام ليموتوا عليه ، فالإنسان إنما يموت على ما عاش عليه.

أما الذين أبعدوا الإسلام عن الساحة ، وقالوا : أتركوا الإسلام حتى يتحد الجميع ، لنتجه اتجاهًا علمانيًا لا دينيًا ، حتى لا توجد طوائف مختلفة ، فهؤلاء والله ضد كل منطق .

العلمانية كيف يمكن أن تجمع هذه الأمة ؟ ، وقد رأينا بلادًا علمانية كالهند ، ومع هذا تتقاتل الطوائف بعضها مع بعض ، لبنان بلد عريق فى العلمانية ، ومع هذا رأينا الاقتتال الذى لم ير له مثيل فى التاريخ ، وآخر ما رأيناه من ذلك : قتل ذلك العالم الفاضل الشيخ (حسن خالد) مفتى جمهورية لبنان .

العلمانية لا تحل العقدة ولا المشكلة ، بل الذى يحل عقدة هذه الأمة : أن تعرف الله حق معرفته ، وتتقى الله حق تقاته ، وترجع إلى الإسلام .

ما عرفنا فى التاريخ أن هذه الأمة انتصرت إلا بالعودة إلى الإسلام ، الإسلام الصحيح ، الإسلام الأول ، الإسلام قبل أن تدخله الشوائب والبدع والانحرافات .

الإسلام يجمع ولا يفرق ، ويبنى ولا يهدم ، ويقوّى ولا يضعّف ، هذا هو الإسلام الذى ندعو إليه : إسلام القرآن والسنة ، إسلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، الإسلام الذى انتصرت به هذه الأمة ، وفتحت العالم ، وورثت ممالك كسرى وقيصر ، وأقامت دولة العدل والإحسان ، وحضارة العلم والإيمان ، هذا الإسلام وحده هو الذى يجمعنا ولا يفرقنا .

يجب أن يعود الجميع إلى هذا الدين ، المسلم وغير المسلم ، ما يضر غير المسلم أن يتقى المسلم ربه ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحل الحلال ويحرم الحرام .

هل يضر غير المسلم أن يلتزم المسلم بدينه ؟ لا والله ، بل هذا ينفعه ولا يضره ،

بل هذا هو الضمان له ، لأن الإسلام يبقى على عقيدته وعلى عبادته وعلى مشاعره، ولا يرضى بالاعتداء عليه فى دم أو عرض أو مال .

هذا هو الإسلام ، ونحن نرحب بأن يكون هؤلاء متمسكين بدينهم ، بدل أن يكونوا ملاحدة ، أو منحلين يعيثون فى الأرض فسادًا .

نحن نحب الناس أن يتدينوا بدين كتابى سماوى الأصل ، بدل من أن يعيشوا سائبيّن لا دين لهم .

إن الإسلام هو الضمان الوحيد لوحدة هذه الأمة ، هو الضمان الذى يبقى عليها فلا تفترق ولا تتشتت ولا تتشرذم ، ولا يعادى بعضها بعضًا ، ويقتل بعضها بعضًا ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع كلمة هذه الأمة على الهدى ، وقلوبها على التقى ونفوسها على الحب ، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل ، اللهم آمين ، أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لا زال إخوتنا فى الأرض المحتلة يقاومون ويقاتلون ذلك العدو الماكر الغادر الشرس ، الذى لا يريد أن يعترف بالحق لأهله ، وهيهات أن يعترف هؤلاء بالحق، إلا إذا أجبرناهم بالقوة .

لا بد من الجهاد ، الجهاد هو الطريق الوحيد لإجبار هؤلاء على أن يعترفوا لأصحاب الحق بحقهم ، والذين يريدون أن تسلّم الانتفاضة وأن تستسلم ، وأن تلقى السلاح ، هؤلاء واهمون ومخدوعون .

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

لا بد أن تستمر الانتفاضة ، وأن تدعم ، أن تظل ثورة المساجد حتى يعترف هؤلاء مرغمين ، وإن شاء الله النصر للمؤمنين .

التضحيات كبيرة ، والدماء تسيل ، والشهداء يتساقطون ، والمعتقلون يتزايدون ، ولكن الله من ورائهم محيط : ﴿ ... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] .

يا أيها الإخوة هذه ملاحظة ، وملاحظة ثانية أحب أن أذكر بها : لا زلت أذكر الإخوة بمعركة أخرى نخوضها ضد القوى التى تريد أن تقتلع المسلمين ، وأن تهدم وجودهم العقائدى والمعنوى ، وهى التى أقمنا من أجلها (الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية) .

نحاول أن نجمع مبلغًا كبيرًا من المال ، من كل من تجود نفسه بالخير ، حتى يمكننا أن نقاوم هذه القوى الجبارة المدعومة ، التى تجمع آلاف الملايين .

أقمنا الهيئة لما جمع (ألف مليون دولار) لتنصير المسلمين ، ولكنّا علمنا أن هذا ليس نهاية المطاف ، إنهم يجمعون آلاف الملايين باستمرار لينشروا دينهم ، هؤلاء ينشرون الباطل ، أفلسنا أولى بنشر الحق ؟ أفلسنا أولى على الأقل بالدفاع عن الحق؟، بحماية وجودنا ، بالحفاظ على هويتنا وشخصيتنا ؟

لهذا كان لا بد لنا من أن نبذل ، الحساب مفتوح للصدقة الجارية ، حساب الألف دولار ، نريد ألف شخص ، كل واحد منهم يدفع ألف دولار ، فنكون مليونًا ، ونحن نريد (ألف مليون) ، والقليل على القليل كثير .

وهناك بعض الإخوة من الموظفين الذين طلبوا الاستقطاع من راتبهم كل شهر ، لتستمر له هذه الصدقة ، وهذا أيضًا ميسور لمن أراده إن شاء الله .

إن باب الجنة مفتوح ، وإن الباب إلى رضوان الله تعالى مفتوح على مصراعيه لمن أراد الخير ﴿ ... وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [2]

---

(١) الأنفال : ٣٠ .

(٢) المطففين : ٢٦ .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا للرد عن أنفسنا ، والدفاع عن وجودنا ، والحفاظ على ديننا .

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وقلوبنا على التقى ، اللهم أصلح ذات بيننا ، اللهم هيىء لنا من أمرنا رشدًا ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ، اللهم ألف بين قلوب العرب والمسلمين ، اللهم اجمع كلمتهم على الإسلام والإيمان ، اللهم اجمع كلمتهم على القرآن والسنة ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك فنهلك ونضيع ، اللهم كن لنا ولا تكن علينا ، وأعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا ، وامكر لنا ولا تمكر علينا : ﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ، اللهم آمين.

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

ذكرى مولد الرسول ﷺ

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كلما أهلّ علينا شهر ربيع الأول ، تذكر الناس مولد أعظم شخصية في الوجود، وهي شخصية محمد ﷺ (1) ، الذى اصطفاه الله تعالى من خلقه ، وصنعه على عينه ، وأرسله رحمة للعالمين .

وللناس فى هذا الشهر أحوال فى الاحتفاء أو الاحتفال بمولد محمد ﷺ ، واحتفاؤنا واحتفالنا واهتمامنا بمولده ﷺ ، ليس كما يصنع الجهال والغافلون من الناس .

ليس بأن نقيم الزينات ، أو نرفع الرايات ، أو نوزع الحلوى ، إنما احتفالنا به أن نتذكر هذا الرسول العظيم ، أن نعيش فى ذكراه ، أى أن نعيش فى ذكرى سيرته، أو ذكرى رسالته ﷺ .

إن هذا الرسول العظيم قد ترك لنا سيرة طاهرة عاطرة ، وترك لنا رسالة عامة خالدة ، صالحة مصلحة لكل زمان ومكان ، والاحتفاء والاحتفال به ، أن نتذكر هذه السيرة وتلك الرسالة ، رسالة محمد ﷺ وسيرته ، هى موضع أحاديثنا فى هذه المدة من الزمن .

إن السيرة النبوية هى من أنصع الأدلة ، على أن محمداً ﷺ مرسل من ربه ، لا يمثل نفسه وإنما يمثل الإرادة العليا ، إرادة الله عز وجل : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (2) .

---

(1) المشهور أن ولادته ﷺ كانت يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٥٣ ق .هـ) (٥٧٠م) عام هجوم الأحباش على مكة ، ويقول الشيخ محمد الغزالي حفظه الله : وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال ، فالأحفال التى تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشريعة (فقه السيرة للغزالي) ص (٥٨) ط . دار القلم .

(2) النجم : ٣ – ٥ .

من قرأ هذه السيرة ، عرف بصدق ويقين ، أن صاحبها لا يمكن أن يكون دعيًا ، لا يمكن أن يكون دجالاً ، كما لا يمكن أن يكون ملكًا ، أو طالب ملك ، لا يمكن أن يكون رجل دنيا .

صاحب هذه السيرة صادق كل الصدق ، يتمثل الصدق فى هذه السيرة فى كل جنباتها ، ومن هنا كان علينا أن نقف وقفات فى جوانب العظمة والخلود ، والطهارة والإشراق فى هذه السيرة النبوية المحمدية .

ومن حسن حظنا نحن المسلمين ، أن هذه السيرة محفوظة ... مروية ... مسجلة ... مخلدة .

سير الأنبياء معظمها ضاعت ، وما بقى منها لا يكوّن حلقات متصلة ، وليس له إسناد يصلنا بهم ، ولكن سيرة محمد ﷺ بقيت محفوظة .

محفوظة فى كتاب الله عز وجل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، محفوظة فى أحاديث رسول الله ﷺ ، وفى سننه التى رواها الثقات فى كتب الحديث الجامعة فى الصحيحين ، فى الكتب الستة ، فى الجوامع والمصنفات والمسانيد ، محفوظة فى كتب السيرة التى عنيت بهذا الأمر خاصة ، ككتب ابن اسحاق [(١)] ، وابن هشام ، وابن كثير [(٢)] ، وغيرهم ، محفوظة فى كتب الشمائل[(٣)] ، التى عنيت بأخلاقه ، وشمائله ، وهديه ﷺ محفوظة فى كتب الدلائل [(٤)] ... ودلائل النبوة والآيات والمعجزات الحسية والمعنوية المتكاثرة الوفيرة،

---

(١) توفى سنة (١٥١ هـ) ، ويعد كتابه : (السيرة النبوية) أقدم كتاب فى السيرة ، وقد هذبه من بعده ابن هشام (ت ٢١٣ هـ) ، وهو الذى انتهت إليه هذه السيرة ، وغلب اسمه عليها، فعرفت به ، وشاع ذكره بها .

(٢) وهى مأخوذة من كتابه الكبير فى التاريخ (البداية والنهاية) وقد نشرت مستقلة بتحقيق د / مصطفى عبد الواحد .

(٣) ومن أجمعها كتاب (شمائل الرسول) لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) وقد حققه د / مصطفى عبد الواحد .

(٤) ككتاب (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة) لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٥٨ هـ) .

التى أظهرها الله على يديه ﷺ ، محفوظة فى كتب التاريخ العام ، التى خصصت جزءًا كبيرًا لحياته ﷺ، كل هذا موجود عندنا نحن المسلمين .

والسيرة محفوظة من ألفها إلى يائها ، من المولد إلى الوفاة ، هذا مذكور فى كتب وفى سجلات السيرة عندنا .

فى السيرة : كيف ولد ؟ ومتى ولد ؟ ومن أرضعه ؟ ومن احتضنه ؟ وكيف نشأ ؟ وماذا عمل فى صباه ؟ وماذا عمل فى شبابه ؟ وماذا صنع فى كهولته قبل البعثة وبعد البعثة ، قبل الهجرة وبعد الهجرة ، كل هذا تحكيه لنا سيرة محمد ﷺ .

حلقات متصلة مروية بأسانيدها الصحاح ، لا يوجد هذا لأى نبى من الأنبياء ، ولا لأى عظيم من العظماء ، لأن الأنبياء الذين بعثهم الله ، بعثهم لمراحل موقوتة ، لزمن محدود معلوم ، ولأقاليم معينة ، وأقوام مخصوصين .

أما محمد ﷺ فكانت رسالته عامة ، خالدة خاتمة ، « امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن ، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة » (١) .

لهذا تكفل الله بحفظ سيرته وسنته ﷺ فى مجموعهما ، باعتبارهما البيان النظرى ، والشرح العملى للكتاب الكريم ، وحفظ المبين يقتضى حفظ البيان ، كما قال الإمام الشاطبى - رضى الله عنه - (٢) .

الله تكفل بحفظ كتابه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) ، والسنة والسيرة هما الشرح النظرى ، والتطبيق العملى لكتاب الله ، لهذا حفظهما الله تبارك وتعالى .

---

(١) هذا الوصف للرسالة من مقال للإمام حسن البنا ، ذكره الأستاذ القرضاوى فى كتابه (الخصائص العامة للإسلام) : خصيصة الشمول .

(٢) راجع : الدليل الثانى (السنة) فى الجزء الرابع من كتاب (الموافقات فى أصول الشريعة) لأبى إسحاق الشاطبى (ت ٧٩٠ هـ) ،وهو كتاب لا ند له فى بابه .

(٣) الحجر : ٩ .

عندنا نحن المسلمين سيرة رسولنا ﷺ ، تحكى لنا كل أحواله : أقواله ، وأعماله، وتقريراته ، وأوصافه الخلقية ، وصفاته الخلقية ، وسيرته كلها .

ليس هناك دائرة حمراء فى هذه السيرة ، يقال هذه لا تروى ، أو هذا شيء خاص لا يذكر للناس ، لا ، حياته كلها ﷺ ملك للناس ، أكله إذا أكل ، شربه إذا شرب ، لبسه إذا لبس ، ركوبه الدابة إذا ركب ، نومه إذا نام ، استيقاظه إذا استيقظ، خروجه من بيته ، كل هذا ،حتى صلته بأهله ، حتى الصلة الجنسية تروى للناس ، لأن فيها تشريعًا ، ولأن فيها اقتداء .

روت لنا السيرة كل حياته ﷺ فى علاقته بربه ، فى علاقته بنفسه ، فى علاقته بزوجاته ، فى علاقته بأولاده ، فى علاقته بأحفاده ، فى علاقته بالناس ، فى علاقته بالأعداء ، فى سلمه إذا سالم ، فى حربه إذا حارب ، فى صلحه إذا صالح ، كل هذا مروى فى سيرة رسول الله ﷺ حتى حياته الخاصة ، ترويها تسع نسوة [(١)] ، لو نسيت واحدة ذكرتها الأخرى ، ليكون كل شيء أمامنا واضحًا جليًا ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [(٢)] .

ما أحوجنا نحن المسلمين إلى أن نتدبر سيرة رسولنا ﷺ ، أن نعيش مع هذه

---

(١) وهن اللاتى توفى عنهن ﷺ : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، وهند أم سلمة بنت أبى أمية ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وأما أرواجه ﷺ اللاتى تزوجهن ، ودخل بهن فهن إحدى عشرة امرأة ، يضاف إلى التسع الآنفات: خديجة بنت خويلد ، وهى أم المؤمنين الأولى أو الكبرى ، وهى أم بناته ﷺ ، وزينب بنت خزيمة ، وهاتان توفيتا قبله عليه الصلاة والسلام ، أما عن سبب تعدد أزواج النبى ﷺ ، فأحيل القارىء الكريم إلى ما كتبه الأستاذ القرضاوى فى (فتاوى معاصرة : ١/٥٤٦ - ٥٥٠) ، وللدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله رسالة نافعة بعنوان (تعدد الزوجات فى الإسلام والحكمة من تعدد أزواج النبى ﷺ)، كما كتب الشيخ محمد على الصابونى رسالة بعنوان (شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ) .

(٢) الأحزاب : ٢١ .

السيرة ، أن نستجلي جوانب العظمة المحمدية ، العظمة التى أشار إليها رب العزة فى كتابه .

أشار إلى جانب من جوانبها ، وهو الجانب الخلقى حينما قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [(١)] ، الله زكى نبيه هذه التزكية ، وليس بعدها تزكية .

ما أحوجنا إلى أن ندرس هذه السيرة دراسة المتأمل البصير ، لنعرف كيف نقتدى برسول الله ﷺ ، وكيف نأخذ الأسوة ، ونقتبس النور من هذه السيرة الجامعة لحياتنا ... لأنفسنا ... لبيوتنا ... وأسرنا ... لأبنائنا وبناتنا ... لمجتمعاتنا ... لحكامنا ومحكومينا ... نأخذ من هذه السيرة هديًا ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ .

إننا كثيرًا ما نقف عند الأشياء التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، طالما كنت أسمع وأنا صغير قصة المولد ، يقرأونها فى القرى والأرياف ، ومعظم هذه القصة تدور على أشياء وخوارق ليس فيها هذا الأمر الذى نريده : جانب القدوة ، جانب التأسى ، جانب العظمة فى سيرة محمد ﷺ ، وفى رسالته .

طالما رأينا المؤذنين يؤذنون على المآذن والمنائر ، يقولون : الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله [(٢)] !! وما ثبت أنه أول خلق الله ، الصلاة والسلام عليك يا مليح الوجه يا رسول الله !! أفى ملاحة الوجه هذه مجال للقدوة ؟!

المسلمون - أو أقل : الكثيرون منهم - أخطأوا فهم شخصية رسول الله ﷺ ، هذه الشخصية التى أنزل عليها الرسالة الخالدة العامة ، اختاره الله سبحانه وتعالى ليختم النبوات والرسالات ، ويعلن أنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبى بعده .

هذه الشخصية فى حاجة إلى أن ندرسها ، إلى أن نعرفها ، وما أكثر الجوانب التى يمكن أن نقف عندها لنعرف عظمة الشخصية المحمدية .

---

(١) القلم : ٤ .

(٢) وهو كلام لم يصح به نقل ، ولا يقره عقل ، هذا ما أثبته الأستاذ القرضاوى فى فتوى له نشرت ضمن (فتاوى معاصرة) الجزء الأول ص (١٧٨ ، ١٧٩) .

خذوا الجانب الربانى من سيرته وحياته ﷺ ، جانب التعبد لله تبارك وتعالى ، إن من يقرأ فى هذا الجانب ، جانب العبادة ... الصلاة ... الصيام ... الذكر ... التسبيح ... التهليل ... التكبير ... الدعاء ... الاستغفار ، يجد قلبًا نابضًا بحب الله تبارك وتعالى ، يجد لسانًا رطبًا بذكر الله تعالى ، لا ينساه على كل حال ، يذكر الله فى كل أحواله ، وعلى كل أحيانه .

أنظروا إلى الرسول العابد الذى أمره الله تعالى بقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (١) ، فكان يعبده فى ليله ونهاره ، وصباحه ومسائه ، فى خلوته وجلوته ، لا يفتر عن عبادة ربه .

كان يعلم أن الإنسان ما خلق إلا لعبادة الله ، وأن عبادة الله هى المهمة الأولى لهذا المخلوق ، الذى خلقه الله بيده ، وسواه ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وجعله خليفة فى الأرض .

كان يعلم أن مهمته أن يعبد الله عبادة مبنية على معرفة به ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) . لهذا كان ﷺ أكثر الناس إقبالاً على الله .

شرع الله الصلوات الخمس ، لتربط المسلم بربه كل يوم خمس مرات ، لا يوجد دين يربط الإنسان بمولاه هذا الربط الوثيق ، ليكون دائمًا على موعد مع ربه ، كلما شغلته الشواغل ، كلما غرق فى لجة الحياة ، كلما أنسته مطالب الدنيا ، كلما غرق مع التجارات ، مع الدينار والدرهم ، لكنه حين يسمع المنادى ينادى : الله أكبر الله أكبر ... حى على الصلاة ... حى على الفلاح ، يترك البيع والشراء ، ويترك دنياه ودنيا الناس ، ويهرع إلى بيت الله ، هكذا علّم محمد ﷺ الناس .

علمهم أن الحياة إنما تكون لله وبالله ، وأن الإنسان يجب أن يتحرر لمولاه ، هكذا علمه ربه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) الحجر : ٩٩ .   (٢) الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .   (٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

ولهذا كان ﷺ المسلم الأول فى كل أمر ، المسلم الأول فى عبادته إذا تعبد ، فى ذكره إذا ذكر ، فى دعائه إذا دعا ، فى خلقه إذا تخلق ، فى جهاده إذا جاهد .

كان المسلم الأول فى عبادته لله ، ولم تكن عبادته مجرد تسديد خانة ، أو امتثالاً لأمر ، بل كانت عبادته عبادة الحب والشوق إلى الله سبحانه وتعالى .

كان إذا قرب وقت الصلاة يتشوق إليها ويحن لها ، ينتظر وقتها بفارغ الصبر ، حتى إذا حان الوقت قال لمؤذنه : « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة » (١) ، وما أعظم الفرق بين من يقول : أرحنا بها ، ومن يقول أرحنا منها .

إنها صلاة الحب ، لا مجرد صلاة الأمر ، إنه كان يجد فيها نفسه ، يجد فيها غذاء قلبه ، وانشراح صدره ، وحياة روحه ، وقرة عينه ، وقد قال ﷺ : « . . .وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (٢) .

كان يصلى الصلوات الخمس فى ميقاتها . . . فى جماعتها ، بخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وإسباغ وضوئها ، وما كان يكتفى بها ، بل كان له صلوات .

كان يصلى من الليل ، ما كانت متاعبه لتشغله عن وقوفه بين يدى ربه ، إذا جن الليل ، وأرخى ستوره ، وغارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأوى كل ذى فراش إلى فراشه ، كان يقوم من الليل ، ويصف قدميه مصليًا لله عز وجل ، ويناجيه فيقول : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّام السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ،

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب من سننه ، أنظر الحديثين (٤٩٨٥ ، ٤٩٨٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤ ، ٣٧١) .

(٢) جزء من حديث : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » رواه النسائى فى عشرة النساء (٧/ ٦١) ، وأحمد فى المسند (٣/ ١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥)، وإسناده حسن ، ورواه الحاكم من طريق آخر وصححه ، ووافقه الذهبى (٢/ ١٦٠) .

وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وأخرت ، وما أسررت وأعلنت ،أنت إلهى لا إله إلا أنت » [١] .

هذا هو النبى العظيم ، ما شغلته متاعب الحياة ، ومتاعب الدعوة ، وما شغلته حياته الخاصة ، تسع نسوة لهن مطالب ، ولهن حاجات ، ولهن تطلعات ، ومسلمون لهم حاجات ، ولهم مطالب ، وعليه توجيههم وهدايتهم ، وجبهات تقف له بالمرصاد ، تريد أن تقتلع جذوره ، وأن تهدم دعوته من أساسها : الجبهة الوثنية ، والجبهة اليهودية ، والجبهة النصرانية البيزنطية ، والجبهة المجوسية المتربصة ، والطابور الخامس من المنافقين الذين يعلنون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢] .

متاعب الحياة ، ومتاعب الدعوة وهمومها ، ما كانت لتشغله أن يقف بالليل مع ربه .

يقف ويطيل الوقوف حتى تتورم قدماه . . . حتى تتفطر وتتشقق من طول القيام، حكى عنه حذيفة رضى الله عنه قال : صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلى بها فى ركعة ، فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربى العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ،ثم قال: سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع ، ثم سجد فقال : سبحان ربى الأعلى ، فكان سجوده قريبًا من قيامه » [٣] .

إنها صلاة يشعر فيها بحلاوة العبادة ، يجد حلاوتها فى قلبه ، فلا يمل ولا يضجر ولا يسأم ، وأصحابه الذين كانوا أصغر منه سنًا ، وأقوى منه شبابًا ، ما كانوا

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما (شرح السنة للبغوى ، بتحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ٤/٦٨) .

(٢) البقرة : ٩ .

(٣) رواه مسلم (رياض الصالحين للنووى : باب فضل قيام الليل) .

يصبرون على هذه الصلاة الطويلة ، حتى قال ابن مسعود ، وهو من الصحابة : صليت مع النبى ﷺ ليلة ، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء ، قيل : ما هممت؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه [1] ، لم يصبر على طول القيام .

« كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه - من طول القيام - فقالت له زوجته عائشة - مشفقة عليه - : لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدًا شكورًا » [2] ؟ أى أن هذه المغفرة تجعلنى أزداد فى الإقبال على الله شكرًا لنعمته ، ووفاء بحقه ، وقيامًا بحبه ، هكذا كان ﷺ .

كان متعبدًا لله عز وجل عبادة الخشية ، وعبادة المحبة ، كان يصلى ويطيل السجود ، ويطيل الركوع ، ويطيل القيام ، وله فى سجوده وركوعه وما بين التكبيرات ، أدعية وأذكار تملأ القلب بالخشية والخشوع ، وتهز كيان النفس هزًا ، ما أحوجنا أن نقرأها ونحفظها وندعو له .

كان إذا ركع يقول : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » [3] ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ، ومخى وعظمى وعصبى » [4] .

وإذا قام من ركوعه يقول : « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات والأرض ، ومِلء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[5] .

وكان إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ،

---

(١) ، (٢) متفق عليه (رياض الصالحين للنووى : باب فضل قيام الليل) .

(٣) رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها ، وأبو داود ،والنسائى (الأذكار للنووى بتحقيق محيى الدين مستو ، الحديث ١٠٨) .

(٤) رواه مسلم عن على رضى الله عنه (الأذكار للنووى ، الحديث ١٠٧) .

(٥) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وأبو داود ، والنسائى (الأذكار للنووى ، الحديث ١١٥) .

سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين»[1] .

وفيما بين السجدتين يقول : « رب اغفر لى وارحمنى ، واجبرنى وارفعنى ، وارزقنى واهدنى » [2] .

هكذا كانت صلاته ﷺ ، صلاة الخشية . . . صلاة الحب .

أما صيامه ، فكان يصوم رمضان ، هذا الشهر الكريم ، الذى كان يعتبره موسمًا لطاعة الله والإقبال عليه ، فإذا جاء رمضان كان مع جبريل يدارسه القرآن ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة .

« وكان إذا دخل العشر - الأواخر - شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله»[3] واعتكف فى المسجد . . . اعتزل عزلة مؤقتة عن شواغل الحياة لعبادة الله عز وجل[4] .

كان قبل رمضان يقوم بعض الليل وينام بعضه ، ولكن فى هذه العشر الأواخر يحيى الليل كله لعبادة الله ، ويوقظ أهله . . . نساءه ، ليشاركنه هذا المغنم . . . هذا الخير ، ما كان يحب أن يكون وحده فى طاعة الله ، روت عنه أم سلمة : أنه استيقظ ليلة ، فقال : « سبحان الله ! ما أنزل الليلة من الفتن ؟ ماذا أنزل من الخزائن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات ؟ - يعنى نساءه - يا رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة » [5] .

---

(١) رواه مسلم عن على رضى الله عنه ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى (الأذكار للنووى، الحديث ١٢٠) .

(٢) رواه البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى حديث مبيته عند خالته ميمونة رضى الله عنها، ورواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم (الأذكار للنووى ، الحديث ١٢٩) .

(٣) رواه الستة إلا الترمذى عن عائشة (فقه الصيام للقرضاوى ص ١١٠) وقوله : « شد مئزره » كناية عن النشاط التام فى طاعة الله .

(٤) الإسلام لم يشرع الرهبانية ، ولا التعبد بالعزلة الدائمة ، ولكنه شرع الاعتكاف لفترات مؤقتة ، لترتوى القلوب الظامئة إلى المزيد من التعبد والتجرد لله رب العالمين (فقه الصيام ص١١١) بتصرف قليل .

(٥) رواه البخارى عن أم سلمة فى كتاب التهجد من صحيحه (البخارى مع الفتح ١١٢٦) ط. دار الفكر المصورة عن السلفية .

هكذا كان ﷺ يصوم ويقوم ، ولم يكن يكتف بصيام رمضان ، كما لم يكن يكتف بالصلوات الخمس .

كان يصوم الأيام البيض من كل شهر : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر [1] ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، ولما سئل فى ذلك قال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم » [2] .

كان يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويفطر حتى يقال لا يصوم ، وكان أحيانًا يصوم ويواصل الصيام [3] ، وينهى أصحابه عن الوصال رفقًا بهم ، فيقولون له : إنك تواصل يا رسول الله ، فيقول : « وأيكم مثلى ؟ إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى»[4].

لا تظنوا أنه يطعمه اللحم والأرز ، أو الفاكهة ، أو يسقيه الماء ، لا ، إنه غذاء آخر ، وشراب من نوع آخر .

إنه غذاء القلب ، وشراب الروح ، إنه مشغول بمعرفة ربه وحبه وخشيته ، لذلك شغله هذا عن الشراب والطعام والدنيا ، كما قال القائل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلهـــا ... عن الشراب وتلهيها عن الـــزاد

لها بوجهك نور يستضـــاء لــــه ... ومن حديثك فى أعقابها حـــادى

إذا شكت من كلال السير أو عدها ... روح القدوم فتحيا عنـد ميعـــاد

من فى الناس يصل إلى هذه المرحلة ؟!

---

(١) عن جرير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر ، وأيام البيض : صبيحة ثلاثة عشر ، وأربعة عشر ، وخمسة عشر » رواه النسائى بإسناد جيد ، والبيهقى ، قال الشراح : أى وأفضلها أيام البيض صبيحة الثلاث المذكورة ، وسميت بيضًا لطلوع القمر فيها طوال الليل ، وتفضيل هذه الأيام لحكمة يعلمها الله ، وقيل : ليتناسب نور القمر مع نور العبادة ، ومثل هذا يعد من ملح العلم لا من صلبه وجواهره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٢٠ ، الحديث ٥٤٠) .

(٢) رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال : حديث حسن غريب ، وروى النسائى نحوه فى حديث عن أسامة بن زيد (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٢٠ - ٣٢١، الحديث ٥٤١) .

(٣) أى يأتى الغروب فلا يفطر ، ويستمر صائمًا ليوم أو يومين .

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة (سبل السلام للصنعانى : ٢/ ٣٠٧) .

إن فى الحديث عن عبادته ﷺ . . . عن هذا الجانب الربانى من سيرته يطول ، ولعل لنا عودة إليه لنجلى هذا الجانب - جانب الذكر والشكر وحسن العبادة - فى حياة النبى العظيم ﷺ ، فإنه من أنصع الأدلة على أنه رسول الله .

إن الدجالين لايمكن أن يحملوا بين جنوبهم مثل هذا القلب الشاكر ، ولا يمكن أن يكون لهم مثل هذا اللسان الذاكر ، ولا يمكن أن يكون لهم مثل هذا البدن الصابر على طاعة الله وعبادته .

إن هذا القلب . . . قلب النبى المحب لربه ، الخائف من عذابه ، الراجى لرحمته، المقبل عليه بكل همته ، إنه دليل من أسطع الأدلة على أنه رسول الله ، على أنه يتكلم عن الله ، لا يتكلم عن هواه ، ولا يصدر من عند نفسه ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١) .

صلى الله عليك وسلم يا رسول الله ، وجعلنا الله من المهتدين بهديك ، المقتدين بسنتك : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● الخطبة الثانية :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

ورد أنه فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يدعو بها عبد مسلم بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة .

---

(١) النجم : ١ - ٤ .

(٢) الأحزاب : ٢١ .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هوْ عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا ﴿ . . . رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

اللهم صل وسلم وبارك على نبيك ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأقم الصلاة .

* * *

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) الأحزاب : ٥٦ .

قضية المرتد سلمان رشدى

٤/٣/١٩٨٩ م

• الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كان فى خاطرى أن أحدثكم اليوم عن أحد موضوعين ، الموضوع الأول : موضوع المسجد الأقصى ، بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج ، بمناسبة هذه الذكرى كان يهمنى أن أتحدث عن المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، وعن أرض النبوات التى بارك الله فيها للعالمين ، وعن أطفال الحجارة ، وعن الانتفاضة الإسلامية ، وعن الحركة الإسلامية التى أزعج انتصارها فى الأرض المحتلة (شامير) [١] وأتباعه.

كنت أريد أن أتحدث عن قضية العرب والمسلمين الأولى بهذه المناسبة ، مناسبة الإسراء والمعراج .

كان هذا موضوعًا ، وكان هناك موضوع آخر : هو موضوع النصر ، أعظم نصر حققه المسلمون فى هذا العصر ، وهو انتصار الإخوة المجاهدين الأفغان على أعتى قوة ملحدة فى الأرض ، قوة الإلحاد الأولى فى العالم بل فى التاريخ كله ، واضطرار هذه القوة إلى أن تسحب جيوشها وجنودها ، وتولى الأدبار عن أرض الجهاد ، وينسحب آخر جندى من جنود الروس من أرض الأفغان الصامدة ، المجاهدة ، كنت أريد أن أتحدث عن هذا أيضًا فى هذه المناسبة .

ولكن أعداء الإسلام لا يريدون لنا أن نفرح بشىء ، لم نتذوق حلاوة النصر منذ زمن بعيد ، فنحن نعيش فى زمن المآسى والنكسات ، فإذا حدث لنا فرح حولوه إلى أحزان ، وإذا احتفلنا بعرس أطلقوا فيه رصاصة أردت قتيلاً ، فتحول عرسنا إلى

---

(١) رئيس وزراء إسرائيل السابق .

مأتم ، لهذا شغلونا هذه الأيام بقضية فرضت نفسها على الساحة ، كان لا بد من أن أحدثكم عنها هذا اليوم .

تلك قضية المرتد المتزندق المدعو : (سلمان رشدى) ، الذى نشأ فى أرض إسلامية ، ومن أسرة مسلمة ، ثم ذهب إلى الغرب ، ليصنع هناك ، وليستدير إلى أمته فيطعنها فى صدرها ، وليتوجه بسهامه المسمومة ، إلى قدس الأقداس ، إلى أطهر خلق الله ، إلى محمد ﷺ ، وإلى بيته الطاهر ، فيتهم رسول الله ﷺ ويتهم نساءه ، ويكيل الشتائم المقذعة ، بأقذر الألفاظ ، وأقبح العبارات ، فى قصة سماها (الآيات الشيطانية) ، ذلكم هو المسمى (سلمان رشدى) ، إنسان هندى الأصل، يدل عليه اسمه ، اسم مسلم ، ليس فيه من السلامة ولا من الرشد شيء .

كنا فى الأسبوع الماضى فى مجمع الفقه الإسلامى ، فشغلنا يومين كاملين بقضيتين: قضية جاءت من بريطانيا ، وهى قضية (سلمان رشدى) ، وقضية جاءت من أمريكا وهى قضية آخر يدعى (رشاد خليفة) ، وكلاهما للأسف فى اسمه (الرشد) أو (الرشاد) ، وليس لأحدهما من الرشد ولا من الرشاد شيء ، واحد طبخ فى المطبخ البريطانى ، والآخر طبخ فى المطبخ الأمريكى .

(رشاد خليفة) هذا كذب بالصلاة ، وأنكر السنة إنكارًا مطلقًا ، وادعى أن فى القرآن آيات ليست من القرآن ، ثم ختم هذا كله بادعاء أنه رسول الله ، وجاءت رسائله يبعث بها هنا وهناك : أن رشاد خليفة رسول الله [(١)] .

شغلنا يومين بهذين الأمرين ، بدل أن نشغل بقضايا المسلمين ، وما تحتاج إليه من فقه وفتوى ، هكذا أراد أعداء الإسلام .

كان أحد عتاة المبشرين [(٢)] فى أوائل هذا القرن يقول : لن ننجح فى تبشيرنا

---

(١) ونحمد الله أن باطله لم يمكث فى الأرض طويلاً ، إذ أهلكه الله بعد مدة وجيزة ، وخرست دعوته فى مهدها .

(٢) هو القسيس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير فى البحرين ، ذكر ذلك فى كتابه (العالم الإسلامى اليوم) الذى نشره بمؤازرة زملاء له ، جمعوا فيه تقارير وملاحظات كتبها المبشرون عن حال المسلمين القاطنين فى مناطقهم التبشيرية ، وفى مقدمة الكتاب يقول (زويمر) « تبشير =

وتنصيرنا ، إلا إذا جندنا من أبناء المسلمين أنفسهم من يقوم بمهمتنا ، إن الشجرة لا يقطعها إلا أحد أبنائها .

وهكذا استطاعوا أن يجندوا بعض هؤلاء الناس ، الذين لا دين لهم ، ولا عقل لهم ، ولا ضمير لهم ، باعوا دينهم ، وباعوا أمتهم ، وباعوا تراثهم ، وباعوا كل شىء ، من أجل مال . . . من أجل شهوة . . . من أجل شهرة . . . من أجل أن يتبعوا أهواء الشياطين ، الذين يوحون إليهم بتلك الوساوس والهواجس .

سلمان رشدى ألف قصة ، هذه القصة تقوم على أن هناك فى (مكة) ، ويسمى مكة (مدينة الجاهلية) ، أما (المدينة المنورة) فأبقى على اسمها القديم : (يثرب)، وأن فى (مدينة الجاهلية) بيتًا للدعارة والبغاء ، وأن هذا البيت يضم اثنتى عشرة امرأة ، سمى هؤلاء النساء الداعرات بأسماء أمهات المؤمنين ، زوجات رسول الله ﷺ ، وسماهن : بغايا الأستار ، كأنه يشير إلى أستار الكعبة ، أو بغايا الحجاب ، وكيف يكون الحجاب سببًا للبغاء ، أو قرينًا له ؟!

هكذا تهجم هذا الرجل ، وخلط الخيال بالتاريخ ، والتاريخ بالواقع ، وخلط الأمور بعضها ببعض ، بحيث تخرج منه بأن هذا شىء لا يمكن أن يطاق ، ولا أن يقبل بحال من الأحوال .

هذا الرجل أساء إلى أمة الإسلام ، أساء إلى رسول الله ﷺ ، أساء إلى أمهات المؤمنين ، أطهر خلق الله ، اللائى خاطبهن الله فى القرآن بقوله : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (1) .

= المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » نقلاً عن كتاب : (الغارة على العالم الإسلامى) تأليف ا . ل . شاتليه ، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى ، ص ٥٠ .

(1) الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣ .

أول من خوطب بهذا نساء النبى ﷺ ، فالله يريد أن يذهب عنهن الرجس ، وأن يطهرهن تطهيرًا .

وحين افترى مفتر كذاب على إحداهن : عائشة بنت أبى بكر ، الصديقة بنت الصديق ، فى حديث الإفك المعروف ، نزلت آيات السماء ، نزلت عشرات الآيات فى سورة (النور) تبرىء هذه الطاهرة المطهرة المبرأة رضى الله عنها ، وتلعن أولئك الذين أشاعوا هذا الإفك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

أزواج رسول الله ﷺ ، وأمهات المؤمنين ، يوصفن عند هذا الفاجر الفاسق العربيد بأنهن مومسات ، هكذا صنع .

ولهذا غضب المسلمون فى بريطانيا ، الذين قرأوا هذا الكتاب أو هذه الرواية الشيطانية باللغة الإنكليزية ، احتجوا فى أول الأمر ، وطالبوا أن يصادر هذا الكتاب ويمنع نشره ، حتى لا يسىء إلى الإسلام ، ولا يجرح مشاعر المسلمين ، ولكن صيحاتهم ذهبت سدى ، ولم تؤت أكلها ، ثم ساروا فى مظاهرات وجاءوا فيها بنسخة من الكتاب ، وأحرقوها فى بعض الميادين ، حتى يسمع لهم السامعون ، وتعرف قضيتهم الجهات المختصة ، ولكن أحدًا لم يبال بهم ، بزعم أن هناك حرية . . . حرية الرأى وحرية الفكر ، ولكن أى رأى وأى فكر فى هذا الكلام الساقط البذىء ؟!

ليس هناك علم ولا رأى ولا فكر ، يمكن أن نقارع فيه الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، والرأى بالرأى ، من شتمك ، كيف تقول : إن الشتيمة هذه رأى ، وأن صاحب هذا اللسان القذر ، حر فى أن يقول ما شاء ؟!

لو أن إنسانًا يبحث ، وانتهى إلى رأى ، يمكن أن نقول : إن هذا رأى ، يرد عليه برأى مثله ، ولكن إذا جاء إنسان وقال لك : أنت ابن كذا ، وكذا ، شتم أباك أو سب أمك ، ماذا تقول فى هذا ؟ أهذا رأى يحترم ، ويدافع عنه ؟!

---

(١) النور : ٢٣ ، ٢٤ .

لو أن إنسانًا - أى إنسان - اعتدى على أبيه أو أمه بكلمة بذيئة ، فلا يسعه إلا أن يغضب، ولا يسعه إلا أن يثور ، فكيف إذا سب أشرف الخلق وسيد الوجود : محمد ﷺ ؟ كيف إذا سبت نساؤه أمهات المؤمنين ؟

من سب أباك أو أمك لا تصبر عليه ، فكيف من سب نبيك ورسولك وهاديك إلى الله ؟ وكيف من سب أمهات المؤمنين جميعًا ؟ والله تعالى يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . . ﴾ [1] ، كيف يقال إن هذا رأى ؟! كيف يقال إن هذا فكر ، وإن هذا من حرية الفكر ؟!

إن رئيسة وزراء بريطانيا صادرت كتابًا ، كان فيه بعض الفضائح السياسية ، المعروف باسم : (صائد الجواسيس) ، من أجل المصلحة ، فلماذا لا يصادر كتاب من أجل مصلحة المسلمين ؟ أم أن المسلمين فى العالم لا قيمة لهم ؟ ألف مليون مسلم تتحدى مشاعرهم فى العالم كله ، ولا يقام لهم وزن .

من أجل ذلك ثارت الثوائر ، وقامت المظاهرات فى بلاد العالم الإسلامى ، وخصوصًا الذين يقرأون الإنكليزية .

ثارت المظاهرات فى بريطانيا ، وفى الهند ، وفى باكستان ، وفى غيرها من البلاد، وقتل من قتل ، وأطلق الرصاص على بعض الناس فقتلوا ، إنما ثاروا لكرامتهم ، لكرامة دينهم ، لكرامة نبيهم ، لكرامة أمهات المؤمنين ، حفاظًا على المقدسات .

إن هذا الرجل اتهم أبا الأنبياء جميعًا . . . الخليل إبراهيم ، اتهمه بأنه وغد ، وابن زانية ، هكذا لم يدع شيئًا إلا وجرحه ، أثخنه بالجراح ، فمن حق الناس أن يثوروا .

لئن كنت محتاجًا إلى الحلم إننى	إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم	ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن رام تقويمى فإنى مقوم	ومن رام تعويجى فإنى معوج
وما كنت أرضى الجهل خدنًا وصاحبًا	ولكننى أرضى به حين أحرج

(١) الأحزاب : ٦ .

لقد استغضب المسلمون ، وكان من حقهم ، بل من واجبهم ، أن يغضبوا ، ومن استغضب فلم يغضب فهو حمار ، كما أن من استرضى فلم يرض فهو جبار .

استغضب المسلمون ، حينما مست عقائدهم فى شخص رسولهم محمد ﷺ ، ونسائه أمهات المؤمنين ، وعدد من الصحابة ، وبعض الأنبياء العظام .

أشياء كثيرة تحدث عنها هذا الإنسان ، كان من حق المسلمين أن يثوروا ، وأن يغضبوا ، ما دامت السلطات المختصة فى تلك البلاد لم تأبه للأمر ، ولم تشغل نفسها به .

هناك من قال : إننا يجب أن نستتيب هذا الإنسان ، وصدرت بعض الفتاوى فى ذلك ، وأصدر هذا الشخص اعتذارًا ، هذا الاعتذار ليس فيه أى نوع من التوبة ، ولا أى نوع من التكذيب لنفسه ، ولا أى نوع من التراجع عما قال ، كل ما قاله : إنه يأسف أنه آلم المسلمين وأزعجهم ، أما كلامه نفسه فلم يتراجع عنه ، ولم يقل إنه أخطأ ، ولم يكذب نفسه فى شىء ، ولذلك رفض اعتذاره .

على أن جمهور المسلمين يرون أن من شتم رسول الله ﷺ ، لا تقبل له توبة ، وليس له إلا السيف ، حتى لا يجرؤ الناس على هذا الحمى المحرم .

هذا ما قرره العلماء من قديم ، وألف فيه شيخ الإسلام ابن تيمية ، كتابه الشهير: (الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ) ، وقال : إن من شتم رسول الله ﷺ من مسلم أو ذمى ، حتى الذمى - الذمى غير المسلم الذى يعيش بين ظهرانى المسلمين ، وفى ضمانهم وذمتهم ، وله مالهم وعليه ما عليهم ، فى حدود أصول الإسلام وقواعده - هذا إذا شتم رسول الله ﷺ ، فقد نقض عهد الذمة وحل دمه .

أراد المسلمون ألا يفتحوا باب فتنة فيجرؤ الناس على رسول الله ﷺ . من حقهم أن يردوا على الإسلام ، وعلى عقائد الإسلام ، ويقولوا : إن عقائدنا أفضل من عقائدكم ، هذا الرأى يسمح به ونرد عليه ، أما الشتم ، أما الإهانة ، أما التجريح، أما السب واللعن ، فهذا شىء آخر لا يقبل من مسلم ولا من غير مسلم .

لقد أهان هذا الإنسان الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن العجب العجاب : أن نجد هذا الغرب يقف عن بكرة أبيه ، ضد المشاعر الإسلامية.

وحينما احتجت (إيران) على هذا الأمر ، سحبوا سفراءهم من هناك ، واجتمع المجلس الأوروبى ، ويكاد يجتمع مجلس الأمن ، أو الأمم المتحدة ، من أجل هذا الأمر !

أليس من حق المسلمين أن يغضبوا لدينهم ، ولنبيهم ، ولمقدساتهم ، ولأنبياء الله جميعًا ؟

إن المسلمين فى بعض البلاد الأوروبية سيروا مظاهرات من أجل (فيلم) تناول المسيح عليه السلام بسوء وهؤلاء الناس للأسف أصدروا من الأفلام ما يجرح المسيح عليه السلام ، ويتهمه بالشذوذ الجنسى ، ويصوره فى أقبح صورة ، ومن الأفلام ما صور (مريم) العذراء عليها السلام أسوأ تصوير .

قام المسلمون وتظاهروا ضد ذلك ، حتى أن (أسقف) بعض البلاد شكر المسلمين على هذا الأمر وقال : ما كنت أظن أن تغضبوا لمريم مثل غضبتنا وأكثر ، قالوا له : إن مريم عندنا صديقة : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(٢) .

قالوا له : إن فى القرآن سورة اسمها : سورة (مريم) ، نزلت من أجل هذه الصديقة . . . العظيمة . . . المطهرة . . . البتول . . . المبرأة .

المسلمون يغضبون إذا نال نائل من أى نبى من الأنبياء ، أو أى رسول من الرسل، فنحن لا يصح لنا دين ، ولا يكمل لنا إيمان ، إلا إذا آمنا بكل كتاب أنزل ، وبكل نبى أرسل ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ . . . ﴾ (٣) .

هذا هو إيماننا نحن المسلمين ، فلماذا نكافأ على هذا بأن يشتم نبينا ، ويشتم ديننا، وتسب أمهات المؤمنين ؟

---

(١) آل عمران : ٤٢ .   (٢) التحريم : ١٢ .   (٣) البقرة : ٢٨٥ .

أيسعنا أن نسكت على هذا الضيم ؟ أن نغض العيون على القذا ؟ أن نسحب الذيول على الأذى ؟ لا والله ، ما كان لنا أن نفعل ذلك .

كنا نود لو أن هذا الكتاب مات في مهده ولم يذكر ، ولكن للأسف قالوا : إنهم هناك يكافئون هذا الكاتب ، ويعطونه الجوائز على مثل هذه الأشياء [1] ، فثار المسلمون الذين يعرفون هذا الأمر عليه ، أما وقد سار الأمر وعرف وانتشر ، فلا بد لنا من وقفة .

نعجب من تلك الحرب الصليبية التى ما زالت قائمة حتى اليوم ، تظهر ما بين الحين والحين ، حينما دخل (اللنبى) القائد البريطانى ، القدس الشريف سنة ١٩١٧م ، قال كلمته الشهيرة : اليوم انتهت الحروب الصليبية ، أى بدخول بيت المقدس ، الذى فشل فيه الصليبيون قديمًا .

ولكن الحروب الصليبية لم تنته ، ما انتهت الحروب الصليبية ، الحرب مستمرة ، ولكنها بأدوات غير الأدوات ، وبأساليب غير الأساليب ، وفى ساحات شتى ، ومجالات كثيرة ، الحرب الصليبية ما زالت قائمة ضدنا نحن المسلمين .

نحن نحاول أن نسالم ، أن نرفع شعار السلام ، أن نمد أيدينا ، ولكن القوم لا يقابلوننا بمثل ما نقابلهم به ، لا يردون التحية بمثلها ، فضلاً أن يردوها بأحسن منها، وهكذا يساء إلينا يومًا بعد يوم .

وأعجب من هذا أن نجد فى بلد المسلمين أنفسهم ، ومن أقلام عربية مسلمة ، تدعى أنها نصيرة الحرية ، تدافع عن هذا المرتد الملحد المتزندق ، وتدافع عنه باسم حرية الرأى وباسم حرية الفكر ! أى رأى ، وأى فكر يا قوم ؟! أى رأى وأى فكر فى السباب والقذارة والإقذاع ؟! ليس هناك رأى يمكن أن يناقش ، أو يرد عليه .

إن هذه القضية كان من حسناتها : أن نبهت العالم الإسلامى ، ورب ضارة نافعة، نبهته إلى ما يحاك له فى الخفاء ، وما يبيت له بليل ، وما يدبر له من وراء ستار ، لكى يظل دائمًا فى بلبلة وحيرة .

---

(١) والتى كان آخرها جائزة الأدب الأوروبى ، التى منحتها حكومة النمسا لهذا الكاتب المارق - أى بعد مرور خمس سنوات على إصدار رواياته الشيطانية - ضاربة عرض الحائط بمشاعر أكثر من مليار مسلم ، ومتجاوزة نصوص الدستور النمساوى نفسه ، والذى يجرم صراحة كل من يتطاول على المعتقدات الدينية المعترف بها رسميًا هناك ومن بينها الإسلام (نقلاً عن مجلة المجتمع الكويتية فى عددها ١٠٩٦ الصادر فى ٨ ذى القعدة ١٤١٤ هـ) .

علمتنا هذه القضية أن من أبناء المسلمين ، من يستخدم ضد المسلمين أنفسهم ، ومن حسنات هذه القضية أن وقف العالم الإسلامى جميعه ضد هذا الأمر ، وإن كان السياسيون للأسف ، لم يعيروا هذا الأمر التفاتًا بما يستحق ، وما ينبغى له .

كان لا بد من أن تسمع أصوات تستنكر هذا الأمر ، وتعلّم هؤلاء القوم أن المسألة لا ينبغى أن تمر بسهولة ، وأن العالم الإسلامى لا يقبل أن يهان فى شخص إهانة رسول الله ﷺ ، وبيته الشريف الطاهر .

يا أيها الإخوة : إن الإسلام والحمد لله ، لا يمكن أن يتزعزع بهذه الأشياء ، الإسلام طود شامخ ، وجبل راسخ ، بل هو أرسى من الجبال ، لا تزعزعه هذه الرياح مهما عصفت .

الإسلام أرسخ قدمًا ، وأثبت جذورًا ، وأعمق أصولاً ، من أن تؤثر فيه هذه الأباطيل ، إن هذا الإسلام يمتد هنا وهناك ، ويكسب كل يوم أرضًا ، ويدخل فيه الكثيرون ، ونحن موقنون أن الغد لهذا الدين ، وأن المستقبل للإسلام ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

نحن ننتظر يومًا يظهر فيه الإسلام على الأديان كلها ، ويعم الأرض نوره ، وقد سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً يا رسول الله رومية أم قسطنطينية ؟ كأن الصحابة عندهم علم سابق أن المدينتين كلتيهما مفتوحتان بالإسلام ، رومية عاصمة إيطاليا ، التى يعبر عنها الآن بـ (روما) ، والقسطنطينية التى يعبر عنها الآن باسم : (استانبول) التى كانت عاصمة الخلافة العثمانية ، عدة قرون - فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولاً » (٢) .

---

(١) التوبة : ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) روى الإمام أحمد فى مسند عبد الله بن عمرو عن أبى قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أىّ المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول =

مدينة هرقل هى القسطنطينية ، وقد فتحت[(١)]

فتحها ذلك الشاب التركى العثمانى ، ابن الثالثة والعشرين : (محمد بن مراد) الذى لقب فى التاريخ باسم : (محمد الفاتح) ، الذى قرأ فى الحديث : «لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » [(٢)] ، فتاقت نفسه، وطمحت إلى أن يكون هو هذا الأمير ، وأن يكون جيشه هو هذا الجيش .

تعلقت بذلك نفسه ، وهو فى ريعان شبابه ، فما زال يعد لذلك ويخطط ، حتى أذن الله أن يكون له هذا الشرف ، الذى سعى إليه الصحابة ولم يدركوه ، وادخره القدر لهذا الفتى المسلم الطموح ، ابن الثالثة والعشرين .

فتحت (القسطنطينية) ، وبقى أن تفتح (رومية) إن شاء الله ، معنى هذا : أنه لا بد من أن يدخل الإسلام إلى أوروبا من جديد ، وقد طرد منها مرتين : طرد منها بعد الأندلس ، بعد أن بقى فيها ثمانية قرون ، وأقام تلك الحضارة العظيمة ، طرد منها طردًا سجله التاريخ : القتل والتعذيب ، والإجبار على التنصير ، ومحى الإسلام من تلك الديار [(٣)] .

= الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله : أى المدينتين تفتح أولاً : قسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولاً » يعنى قسطنطينية ، الحديث (٦٦٤٥) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦:٢١٩) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبى قبيل وهو ثقة ، ورواه الحاكم (٤/ ٤٢٢) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

(١) كان ذلك يوم ٢٩ (آيار) (مايو) من عام ١٤٥٣ م ، بعد معارك دامت واحدًا وخمسين يومًا .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٥) ، والحاكم فى مستدركه عن بشر الغنوى ، وصححه ووافقه الذهبى (٤/ ٤٢٢) ورمز له السيوطى بالصحة فى الجامع الصغير (٢/ ١٢٣) .

(٣) من أراد أن يتأمل تلك الحقبة السوداء ، وما جرى فيها للمسلمين من مآس يندى لها الجبين ، ويتقطع لها نياط الفؤاد ، فليرجع إلى كتاب : (محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها) للدكتور عبد الرحمن على الحجى ، أو (المسلمون المنصرون) للدكتور عبد الله محمد جمال الدين، أو(تاريخ مسلمى الأندلس) تأليف الأسبانى : أنطونيو دومينقير هورتز ، والفرنسى : برنارد بنثنت .

وطرد مرة أخرى بعد أن كاد العثمانيون يدخلون (فيينا) [1] ، وطرقوا أبوابها عدة مرات ، ثم عادوا إلى آسيا ، وإلى ذلك الشريط الصغير من أوروبا ، واقتسمت تركة (الرجل المريض) كما يسميه المؤرخون فى ذلك الوقت .

لا بد من عودة للإسلام إلى أوروبا إن شاء الله ، لا بد من أن ينتصر الإسلام ، إذا قمنا له بحقه ، إذا كنا نحن صورة طيبة للإسلام ، واستطعنا أن نقدمه لغيرنا ، حتى يرى فى الإسلام ، ما يهديه من ضلال ، وما يؤمنه من خوف ، وما يسعده من شقاء .

إننا أصحاب الدين الأقوى ، إننا أصحاب الرسالة العظمى ، التى فيها نجاة الإنسانية من كل شر ، ومن كل خطر ، إنها رسالة محمد ﷺ ، أما هذه الأكاذيب، وهذه الأباطيل ، وهذه الزوابع التى تثار ما بين الحين والحين ، فلن تزيد الإسلام إلا قوة ، ولن تزيد العاملين للإسلام إلا ثباتًا عليه ، وإصرارًا على الدعوة إليه ، وإنا إن شاء الله لمنتصرون ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [2] .

نسأل الله أن ينجز لنا وعده ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدًا ، وأن ينصر الإسلام ويعز المسلمين ، اللهم آمين .

أقول قولى هذا واستغفر الله تعالى لى ولكم ، فاستغفروه من كل ذنب ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

ظهرت ظاهرة ما كان يعرفها المجتمع الإسلامى ، تحدثنا عنها خطبة كاملة فى العام

---

(١) عاصمة (النمسا) حاليًا .

(٢) النور : ٥٥ .

الماضى ، هذه الظاهرة هى : تفكك الأسرة المسلمة ، تخلى الإنسان عن أبويه فى حالة الشيخوخة ، والله تعالى وصى على الأبوين فى كل الأحوال ، ولكنه وصى عليهما فى حالة الشيخوخة خاصة : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُواْ إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (١) .

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ﴾ : أصبحا أمانة عندك ، أصبحا فى حضانتك كما كنت من قبل فى حضانتهما ؟ ألا ترد الجميل ؟ ألا تعرف المعروف ؟ ألا تجازى الإحسان بالإحسان ؟ وكيف تجازى الإحسان بالإحسان ؟ وهل تستطيع .

إن الرجل الذى جاء إلى عمر وقال : يا أمير المؤمنين : لقد بلغ من مرض أمى وعجزها ، أننى أصنع لها ما كانت تصنع لى فى صغرى ، وفى طفولتى ، أنا الذى أطعمها ، وأنا الذى أسقيها ، ولا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية - أى إذا أرادت أن تقضى حاجتها البشرية من البول والغائط ، يحملها ويذهب بها حتى تقضى حاجتها - أأوفيتها حقها ؟ فقال عمر : لا ، إنها كانت تفعل ذلك لك ، وتتمنى لك عمرًا طويلاً ، أما أنت فتفعل لها ذلك ، وتنتظر موتها غدًا أو بعد غد !

روى البزار : أن رجلاً كان يطوف بالكعبة وهو يحمل أمه على كتفه ، فرآه النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : أأوفيت لها حقها ؟ فقال ﷺ : « لا ، ولا بزفرة واحدة» (٢) زفرة من زفرات الطلق وألم الوضع .

فما هذه الظاهرة : أن يذهب الناس بآبائهم وأمهاتهم إلى مستشفى العجزة ، ويلقون بهم هناك ، كأنما وضعوا فى سلة المهملات ، لا يسأل عنهم أحد ، ولا يزورهم أحد .

أين عاطفة البنوة ؟ أين روح الدين . . . روح البر والوفاء ؟ أين قوله تعالى :

---

(١) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) ذكره الحافظ بن كثير فى تفسير سورة الإسراء (٣/ ٣٥) ط . الحلبى من رواية الحافظ البزار فى مسنده عن بريدة ، وفى سنده الحسن بن أبى جعفر ضعيف ، وأورده الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٣٧) .

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ ؟ أين : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ ؟ أين البَر الذى جعله الإسلام مَن أصول الفضائل وجعله فى المرتبة بعد توحيد الله تبارك وتعالى ؟

كنا نسمع عن مثل ذلك فى أوروبا وأمريكا ، ونقول هذا مجتمع مادى ، أنانى ، لا يعرف المشاعر ، ولا يعرف العواطف ، ولا يعرف الفضائل ، فهل انتقلت إلينا العدوى ؟ هل انتقلت سموم المجتمع المادى إلى مجتمعنا ، حتى يلقى الآباء والأمهات فى دور العجزة ، ثم يتركون ولا يسأل عنهم أحد ؟ .

لا يا أيها الإخوة المسلمون ، لا ينبغى أن نتخلى عن مكارمنا وفضائلنا ، فيتخلى الله عنا ، وبر الوالدين سلف ، اعمل ما شئت كما تدين تدان أنت اليوم شاب وغدًا شيخ ، ما صنعته بآبائك ، سيصنعه بك أبناؤك ، فاعمل لغدك ، واعمل قبل كل شيء لإرضاء الله تبارك وتعالى ، وأوف الحق الذى عليك ، يوف أبناؤك بالحق الذى لك .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يهيىء لنا من أمرنا رشدًا ، وأن يجعلنا من عباده الأبرار الأوفياء ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ،واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، واهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها ، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ، اللهم أعز الإسلام وأيد المسلمين ، اللهم انصر إخواننا فى فلسطين ، وانصر إخواننا فى أفغانستان ، واجمع على الحق كلمتهم ، ووحد صفوفهم ، وقرب النصر العزيز منهم ، اللهم أرنا يومًا قريبًا ينتصر فيه الإسلام ، وتعلو فيه راية القرآن ، اللهم اهدنا صراطًا مستقيمًا ، وافتح لنا فتحًا مبينًا ، وانصرنا نصرًا عزيزًا ، وأنزل فى قلوبنا سكينتك ، وانشر علينا فضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

عباد الله يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ ... وأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

ذكرى الإسراء والمعراج

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

نحن الآن فى الأسبوع الأخير من شهر رجب ، شهر الله الحرام [(١)] ، وفى الأسبوع الأخير من رجب يتذكر المسلمون حادثًا جللاً من أحداث السيرة النبوية العاطرة ، ذلكم هو حادث الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ .

يتذكر المسلمون هذا الحادث ، ويحتفون به فى ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر الكريم ، وليس هناك قطع بأن الإسراء حدث فى تلك الليلة ، بل هناك خلاف كثير حول ميقات الإسراء : فى أى ليلة كان ؟ وفى أى شهر كان ؟ وفى أى سنة كان ؟ وهل وقع مرة واحدة أو وقع أكثر من مرة ؟ [(٢)] إلى آخر ما بحثه العلماء المسلمون من وقائع السيرة وتواريخها ، التى لم يضبطها الصحابة وتابعوهم بإحسان، فإنهم ما كانوا يهتمون إلا بما كان وراءه عمل .

ما كان وراءه حلال أو حرام ، أو شىء يوجب عليهم عملاً معينًا ، فكانوا يبحثون عنه ويدققون فيه .

---

(١) هو أحد الأشهر الأربعة الحرم التى عظمها الله فى القرآن حين قال : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وهذه الأشهر هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب (ثلاثة سرد وواحد فرد) ، وسميت حرمًا لأنها معظمة محترمة ، تتضاعف فيها الطاعات ، ويحرم فيها القتال ، وقد ورد استحباب الصيام فيها ، وبخاصة المحرم، وللشيخ القرضاوى فتويان تخصان شهر رجب والصيام فيه ، وما يذكره بعض الخطباء، ويتناقله الناس ، من مبالغات وتهويلات فى فضله ، راجع فتاوى معاصرة : (١/ ٣٨٤- ٣٨٦) .

(٢) راجع فى هذا كله ما كتبه الأستاذ المحقق محمد الصادق إبراهيم عرجون ، فى الجزء الثانى من كتابه الفذ : (محمد رسول الله ﷺ) .

ولم يشرع فى الإسراء والمعراج صيام نهار ولا قيام ليل ، ولهذا حدث هذا الاختلاف .

ولكن المسلمين قد اشتهر بينهم فى الأعصر الأخيرة ، أن الإسراء والمعراج فى ليلة السابع والعشرين من رجب ، ونحن لا يهمنا : هل كان الإسراء فى تلك الليلة أو لم يكن ؟ إنما يهمنا الحادث نفسه .

الإسراء واقع بنص القرآن الكريم ، سميت باسمه سورة من سوره ، وافتتح الله بذكره هذه السورة حينما قال عز وجل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

ومن هنا كان من كذب الإسراء ، ولم يؤمن به ، كافرًا بإجماع المسلمين ، لأنه كذب صريح القرآن المقطوع به ، المجمع عليه ، المعلوم من حياة نبى الله ﷺ بالضرورة .

أما المعراج فلم يذكر فى القرآن إلا من باب الإشارة ، وذلك فى سورة (النجم)، حيث قال الله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ الكلام عن جبريل الذى كان يأتى بالقرآن للنبى ﷺ - ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِه مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٢) ، رأى النبى ﷺ جبريل على صورته الملائكية مرتين : مرة فى الأرض ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء والمشار إليها فى قوله تعالى فى سورة التكوير : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ (٣) ، والرؤية الثانية هى التى عند سدرة المنتهى فى ليلة المعراج هذه.

---

(١) الإسراء : ١ .   (٢) النجم : ١ - ١٨ .   (٣) التكوير : ٢٣ .

المعراج جاء فى القرآن بهذه الإشارات فى هذه الآيات ، ولكن الإسراء جاء صريحًا ، وجاءت أحاديث رسول الله ﷺ تثبت الإسراء والمعراج .

الإسراء : رحلة أرضية ، بين المسجدين المباركين المقدسين : مسجد مكة ، ومسجد القدس « من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ، ربط الله بينهما بهذه الرحلة النبوية المباركة ، الأول هو بداية الإسراء والثانى هو نهايته .

أما المعراج : فهو رحلة تبتدىء من الأرض إلى السموات العلى ، إلى مستوى لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، كما قال الشاعر :

حتى بلغت سماء لا يطار لهـا   على جناح ولا يسعى على قدم

هناك بلغ مستوى لم يبلغه بشر قبله ﷺ .

كان الأنبياء فى استقباله فى كل سماء ، كبار الأنبياء استقبلوه فى الأرض ، وصلوا خلفه ﷺ ، ثم وزع الله أعاظم الأنبياء على السموات ، فكانوا يرحبون بمقدمه ﷺ .

كان هذا التكريم لرسول الله ﷺ بعد أن نال ما نال من إعراض الخلق ، ومن إيذاء البشر .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يسرى عنه ، وأن يعوضه ، وأن يقيم له هذا الحفل التكريمى ، فى الأرض وفى السماء .

إن النبى ﷺ قد قاسى ما قاسى هو وأصحابه ، عشر سنوات يعرض على القوم دعوته ، يتلو عليهم القرآن ، ويبلغهم الإسلام ، ولكنهم استقبلوه بأشد ما يستقبل به نبى .

واشتد الأذى أكثر وأكثر بعد موت عمه أبى طالب ، الذى كان ذائدًا مدافعًا عن النبى ﷺ ، وبعد موت زوجه خديجة ، كلاهما كان سندًا له ، أبو طالب سنده فى الخارج ، وخديجة كانت سنده فى الداخل ، ماتا فى أيام قريبة فى عام واحد [1] ، فسماه النبى ﷺ : (عام الحزن) .

---

(١) قيل فى العام العاشر من البعثة ، قبل الهجرة بثلاث سنين .

وأراد عليه الصلاة والسلام أن يجرب موقعًا جديدًا ،وأرضًا جديدة ، فيها بذور دعوته ، فقرر أن يتوجه إلى الطائف ، إلى حيث تسكن قبيلة (ثقيف) ، عسى أن يجد عند (ثقيف) ما لم يجد عند قومه من (قريش) .

ذهب ومعه مولاه (زيد بن حارثة) ،ولكنه لم يجد عند القوم إلا شرًا مما وجد عند قريش .

استقبلوه أقبح استقبال ، قال له منهم من قال : ألم يجد الله فى جزيرة العرب غيرك حتى يرسله إلى الناس ؟ وقال له آخر : إن كنت صادقًا فأنت أعظم من أن أكلمك ، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك ، فلن أكلمك صادقًا ولا كاذبًا ! حتى مجرد الكلام معه حرموه منه ، لم يريحوه بالكلام .

سلطوا عليه العبيد والسفهاء والصبيان ، يرمونه بالحجارة ، حتى أدموا عقبيه ﷺ، وسال دمه الشريف من عقبيه ، ولم يجد بدًا من أن يعود .

عاد ولكن الله سبحانه وتعالى لم يدعه ، لقد عاد يشكو إلى ربه ، يناجيه تلك المناجاة المعروفة الرقيقة الندية ، التى يقول فيها لربه : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

لم يبال بغضب الناس إذا كان الله تعالى قد رضى عنه ، ولكنه يسأل الله العفو والعافية .

---

(١) القصة التى رواها ابن اسحاق فى السيرة عن محمد بن كعب القرظى مرسلاً بسند صحيح (٢/ ٦٠ - ٦٣) ط . دار إحياء التراث العربى ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، إلا الدعاء فذكره بغير سند ، لكن رواه الطبرانى فى الكبير ، وأورده الهيثمى فى المجمع (١/ ٣٥) وقال : فيه ابن اسحاق مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

هنالك غضبت له الملائكة من فوق السموات العلى ، وأرادوا أن يكونوا رهن إشارته ﷺ ، إن شاء أن يطبق عليهم الجبلين ، أو يخسف بهم الأرض ، أو ينزل بهم ما نزل بالكفار من قبل ، ولكنه ﷺ أبى ذلك كله ، وقال : « بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا » (١) .

وشاء الله سبحانه ألا تضيع رحلته سدى ، فكان من أمره وهو عائد إلى مكة ، أن جلس إلى حائط . . . بستان ، لأحد مشركى قريش ، لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة، ابنى ربيعة ، من بنى عبد شمس ، وأحسّا به ، فأرسلا إليه بقطف من العنب، مع غلام نصرانى خادم عندهما ، فأخذ النبى ﷺ بعض العنب ، وقال : بسم الله ، فعجب الغلام أن يسمع هذا ، وقال : هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فقال : من أى البلاد أنت ؟ قال : من نينوى قال : من بلدة العبد الصالح (يونس بن متى) ؟ قال : ومن أين لك العلم به ؟ قال : هو نبى ، وأنا نبى وعرض النبى ﷺ عليه الإسلام ، وتلا عليه بعض القرآن ، فأسلم الرجل .

كان هذا أول ثمار الرحلة .

وفى عودته أيضًا أرسل الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن ﴿ . . . فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ (٢) يقولون لهم : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِىَ اللهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣) .

ثم كان هذا التكريم ، كان الإسراء ، وكان المعراج .

بعث الله أمين الوحى (جبريل) عليه السلام إلى محمد ﷺ ، فغسل صدره بماء زمزم ، وأخرج منه حظ الشيطان ، وذهب به ، راكبًا البراق : دابة كأنها من البرق،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه : كتاب الجهاد والسير ، باب : (ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين) رقم (١٧٩٥) .

(٢) الأحقاف : ٢٩ ، ومطلع الآية : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ . . . ﴾ .

(٣) الأحقاف : ٣١ .

كأنها شيء يتصل نسبًا بالكهرباء ، ركب هذه الدابة التى لا نعرف كنهها ، من المسجد الحرام إلى القدس الشريف ، فك الله أسره .

وأراه الله ما أراه ، أراه أجزية وعقوبات لأناس كثيرين .

رأى رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمتك ، الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون ؟ (1) ، ورأى عقوبة الذين يغتابون الناس ، يخمشون وجوههم بأظافر من نحاس ، ثم تعود كما كانت ، ثم يخمشونها ، وهكذا (2) .

رأى ما رأى فى طريقه ، وفى مسيرته ﷺ ، حتى وصل إلى بيت المقدس ، وكان هناك الأنبياء ينتظرونه .

ثم من هناك صعد إلى السموات العلى ، إلى حيث ناجى ربه عز وجل ، وفرض عليه الصلوات ، كانت فى أول أمرها خمسين صلاة ، ولكنه بمشورة من أخيه موسى عليه السلام ظل يراجع ربه ، فخففها من خمسين حتى بلغت خمسًا ، وقال الله تعالى : « ما يبدل القول لدى هى فى العمل خمس وفى الأجر خمسون » (3) .

كانت هذه بداية فرضية الصلوات ، عمود الدين ، التى هى الصلة اليومية بين الإنسان وربه ، هى المعراج اليومى للمؤمنين .

إذا كان رسول الله ﷺ قد عرج به إلى السموات العلى ، فالصحيح أنه أسرى به ،

---

(1) رواه ابن حبان فى صحيحه عن أنس (الإحسان : ٥٣) وذكر محققه أن له متابعات ترتقى به إلى الصحة ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦ ، الحديث ١٣٨٢) .

(2) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٢٤) ، ورواه أبو داود فى الأدب (٤٨٧٨) ، عن أنس بسند صحيح ، وروى مرسلاً ، ولكن السند أصح كما قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ١٤١) ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧٤٣ ، الحديث ١٧١٠).

(3) راجع حديث المعراج الذى رواه البخارى فى كتاب الصلاة (باب كيف فرضت الصلوات فى الإسراء) رقم (٣٤٩) ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان (باب الإسراء برسول الله ﷺ رقم١٦٢) .

وعرج به ، بجسده وروحه معًا ، ولا بعيد على قدرة الله عز وجل ، إن البشر استطاعوا - بوسائلهم الخاصة ، وبما علمهم الله ما لم يكونوا يعلمون - أن يطووا المسافات ، ويختصروا الأزمان ، ويصلوا إلى القمر ، فكيف بصاحب القدرة التى لا تقهر ؟! بمن لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ؟! لا نستبعد عليه أن يسرى برسوله ، وأن يعرج به إلى السموات العلى ، جسمًا وروحًا [(١)] .

عرج به حتى فرض الله عليه فى السموات هذه الصلوات ، وكان هذا فضلاً لهذه الفريضة على غيرها من الفرائض والشعائر ، فالفرائض كلها فرضت فى الأرض ، وهذه الصلاة فرضت فى السماء ، دلالة على مكانتها فى دين الله ، دلالة على منزلتها ، وأنها عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الإسلام ، ومن هدمها فقد هدم هذا الدين .

الصلاة هى معراج كل مؤمن إلى ربه ، تستطيع أن ترقى إلى الله يوميًا بهذه الصلوات ، التى تنتزعك من دنيا الناس ، مما عليه يتصارع الناس ، تنتزعك من دنيا الغفلة ، من دنيا الصراع ، إلى حيث تقف بين يدى ربك تناجيه ، فتناجى قريبًا غير بعيد ، وتسأله ، فتسأل كريمًا غير بخيل ، وتستعينه ، فتستعين قويًا غير ضعيف ، وكأنك تسمع له ، وهو يقول فى الحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، إذا قال العبد : ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدنى عبدى ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال : أثنى على عبدى ، فإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال : مجدنى عبدى ، فإذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

---

(١) انظر تحقيق القول فى هذه المسألة (الجزء الثانى) من كتاب الأستاذ (محمد الصادق إبراهيم عرجون) المشار إليه آنفًا ، حيث أكد إجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف العلماء ، على أن الإسراء والمعراج كان بالنبى ﷺ وهو فى أكمل حالات بشريته روحًا وجسدًا ، ومن أقوى الدلائل على ذلك : أن النبى ﷺ عندما أعلن ذلك بين قريش فتن بعض الذين أسلموا ، وارتد من ارتد ، ولو كان بالروح فقط ، أو رؤيا رآها النبى لما كان فى ذلك غرابة ، فالإنسان العادى يرى فى المنام ما لا يخطر ببال أحد .

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » [1] ، هناك تجاوب بين الله وبين عبده المصلى .

إن التحفة والهدية والذخيرة التى بقيت لنا من ذكرى الإسراء والمعراج ، هى هذه الصلوات .

الصلوات التى نرى كثيراً من المسلمين يفرطون فيها ، ويضيعونها ﴿ . . . أَضَاعُواْ الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا ﴾ [2] .

نرى من أبناء المسلمين ، ممن يتسمى بأسماء المسلمين . . . بأسماء الأنبياء . . . بأسماء الصحابة ، من اسمه محمد وأحمد ، وعلى ، وعمر ، وحسن ، وحسين ، ومع هذا لا يعرفون المساجد ، ولا ينحنون لله راكعين ، ولا يعفرون الجباه لله ساجدين ، أهذا من الإسلام فى شىء .

الصلاة بقية الإسراء والمعراج .

وكذلك بقى لنا من الإسراء والمعراج شىء مهم : هو الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى .

ربط الله بينهما فى كتابه ، فى هذه الآية الكريمة ، التى بدئت بها سورة الإسراء، وذلك حتى لا يفصل المسلم بين هذين المسجدين ، ولا يفرط فى واحد منهما ، فإنه إذا فرط فى أحدهما أوشك أن يفرط فى الآخر .

إذا تركنا المسجد الأقصى تأخذه (اليهود) ، ويعبث به (اليهود) ، ويعمل على تهديمه (اليهود) ،ليقيموا مكانه (هيكل سليمان) ، إذا فرطنا فى المسجد الأقصى، فلا يبعد أن نفرط يومًا فى مسجد رسول الله ﷺ ، أو فى المسجد الحرام .

ولليهود أطماع فى المدينة ، حيث كان هناك : بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير .

---

(١) رواه مسلم ، ومالك ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٤٢٦ ، الحديث ٨٠٣) ،وقوله : « قسمت الصلاة » يعنى القراءة أو الفاتحة ، بدليل تفسيره بها ، وقد تسمى القراءة صلاة ، لكونها جزءًا من أجزائها .

(٢) مريم : ٥٩ ، ومطلعها : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . . . ﴾ .

لهم أطماع فى مسجد رسول الله ﷺ ، ولا تستبعدوا شيئًا ، كنا نستبعد ما وقع الآن حتى وقع ، كل ما نراه الآن ، كان عندنا قديمًا شبه مستحيل ، ولكن الأجيال التى تنشأ اليوم على ما تراه ، أصبح هذا الأمر واقعًا عندها ، لا تستبعدوا شيئًا إذا نحن غفلنا وفرطنا .

ربط الله بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، حتى لا تهون عندنا حرمة المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، وإذا كان قد بارك حوله ، فما بالكم بالمباركة له هو؟!

إذا كان ما حوله مباركًا ، الأرض التى حوله كلها أرض مباركة ، أرض النبوات . . . أرض الذكريات ، وصفها الله فى القرآن بالبركة فى جملة مواضع ، كما قال عز وجل فى إبراهيم : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾(١) .

إنها أرض النبوات ، الأرض التى رواها الصحابة والتابعون بدمائهم ، وسقط فيها الشهداء ، لا ينبغى للمسلمين أن يفرطوا فيها ، أو يضيعوها .

مما نتعلمه من رحلة الإسراء والمعراج ، أن الله قد ربط بين المسجدين : المسجد الحرام والمسجد الأقصى .

المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة ،التى لا تشد الرحال إلا إليها ، كما جاء فى الحديث الصحيح المتفق عليه : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد - أى للصلاة فيها قصدًا ، كل المساجد بعد ذلك تتساوى - المسجد الحرام ،ومسجدى هذا- أى مسجده ﷺ - والمسجد الأقصى » (٢) .

فعلينا أيها المسلمون : أن نتذكر قضية المسجد الأقصى ولا ننساها ، لا ينبغى أن يصبح الأمر الواقع مفروضًا علينا ، ونتقبل هذا بهزيمة نفسية منكرة ، ويصبح اليهود سادة المسجد الأقصى ، وسادة أرض النبوات .

---

(١) الأنبياء : ٧١ .

(٢) حديث صحيح ، رواه أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه عن أبى هريرة ، ورواه أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وابن ماجة عن أبى سعيد ، ورواه ابن ماجة عن ابن عمرو (الجامع الصغير للسيوطى ٢/ ٢٠١) .

إن علينا أن نجاهد ، حتى نسترد هذا المسجد ، حتى نسترد القدس الشريف ، حتى نسترد الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وهى أرض الإسلام ، وهى جزء من دار الإسلام ، ووطن الإسلام ، لا يجوز لأحد أن يفرط فيه ، أو يبيعه ، أو يخونه .

حتى لو أن الفلسطينيين أنفسهم تخلوا عن هذا الوطن الإسلامى ، عن هذه الأرض المقدسة ، لوجب على المسلمين أن يدافعوا عنها ، لأن هذه الأرض الطيبة المباركة ، ليست أرض الفلسطينيين وحدهم ، ولا أرض الأردنيين وحدهم ، ولا أرض العرب وحدهم ،ولا أرض المسلمين المعاصرين وحدهم بل هى أرض الإسلام، أرض الأمة الإسلامية فى مختلف أجيالها .

فلو أن هذا الجيل فرط ، أو ضيع ، أو خان ، فإن الأجيال التالية ستلعنه ، وستحاول أن تتدارك ما فات ، ولا بد أن يأتى يوم يقاتل المسلمون فيه ، عن إيمان ويقين .

لا بد من يوم تقع فيه المعركة مع اليهود ، يكون فيها النصر المؤزر للإسلام ، هذا ما جاء فى الصحيح عن النبى ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود » (١) .

وإنا لهذا اليوم لمنتظرون ، وما ذلك على الله بعزيز ﴿ ... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ ، لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) حديث قتال المسلمين اليهود رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، ورواه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة وهذا لفظه ، وقد روياه عن أبى هريرة وابن عمر من أكثر من طريق ، وقد أوضح الشيخ القرضاوى - فى فتوى له - ما تضمنه هذا الحديث من معانٍ ، وأجاب عن بعض التساؤلات التى تثار حوله ، انظر (فتاوى معاصرة : ٢/٦٨ - ٧٢) .

(٢) الروم : ٤ - ٦ .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

هناك فتاتان من الفلبين أسلمتا ، وهما تصليان معنا الآن عند الأخوات ، أرجو من الأخوات المصليات أن يبادرن بمصافحتهما والسلام عليهما ، وإشعارهما بروح الأخوة الإسلامية . وإن واجبًا علينا نحن المسلمين ، أن نعمل على أن يدخل هؤلاء الذين يعملون فى دورنا وبيوتنا إلى الإسلام .

كان الأولى أن نستقدم المسلمين والمسلمات ، فهم أولى ، كما جاء فى حديث النبى ﷺ : « لا تصاحب إلا مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » (١) .

أما وقد أصبح مئات وآلاف من هؤلاء فى بيوت المسلمين ، فعلى المسلمين أن يبلغوهم دعوة الإسلام ، عليهم أن يعرضوا عليهم هذا الدين ، فقد يجدون كثيرًا من الاستجابة .

كثير من هؤلاء ليسوا على دين حقيقى ، بل هو دين وراثى ، إذا وجدوا من يشرح لهم الإسلام شرحًا مبسطًا ميسرًا ، يعرفهم حقيقة هذا الدين ، دون تكلف أو تعمق ، العقيدة الإسلامية الواضحة ، عقيدة التوحيد ، الشعائر الإسلامية الميسرة، الأخلاق الإسلامية ، الأخوة الإسلامية ، هذه كلها ينبغى أن تعرض على هؤلاء قولاً وفعلاً ، فعسى أن نجد منهم من يستجيب و« لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » (٢) « . . . خير لك مما طلعت عليه

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، ابن حبان ، والحاكم ، عن أبى سعيد (الجامع الصغير ٢/٢٠١) .

(٢) أخرجه البخارى عن سهل بن سعد فى (كتاب فضائل الصحابة) / باب : مناقب على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، و(حمر النعم) هى الإبل الحمراء اللون ، وكان العرب يعتبرونها من أنفس الأموال .

الشمس وغربت» (١) ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن ، وانصرنا على أعدائك أعداء الدين ، اللهم انصرنا على اليهود ، اللهم انصرنا على الصليبيين ، اللهم انصرنا على الشيوعيين ، اللهم انصرنا على الملاحدة والمنافقين ،. اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الدين ، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (٤) اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحابته والتابعين .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٥) .

* * *

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى رافع ، وحسنه السيوطى فى (الجامع الصغير ٢/ ١٢٢): ونصه كاملاً : « لأن يهدى الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

(٢) فصلت : ٣٣ .

(٣) الحشر : ١٠ .

(٤) الأحزاب : ٥٦ .

(٥) العنكبوت : ٤٥ .

ليلة النصف من شعبان

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

نحن الآن في شهر شعبان ، مضى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التي عظم الله تعالى شأنها في كتابه : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ (١) .

مضى رجب وجاء شعبان ، ويأتي بعد شعبان رمضان ، أشهر من أشهر الله تبارك وتعالى ، ليس رجب شهر الله وحده ، كما جاء في حديث لا يثبت ولا يصح : «رجب شهر الله ، وشعبان شهري ، ورمضان شهر أمتي » (٢) ليس هذا بصحيح عن النبي ﷺ ، الشهور كلها شهور الله ، والشهور كلها شهور الأمة ، هو شهر الأمة لمن ينتفع به .

شعبان شهر كان النبي ﷺ يصوم فيه أكثر مما يصوم في غيره من الشهور ، وكانت سنة النبي ﷺ كما رواها عنه أصحابه أنه كان يصوم حتى يقال إنه لا يفطر ، ثم يفطر أيامًا تطول حتى يقال لا يصوم (٣) ، وكان أكثر ما يصوم في شعبان ، كان

---

(١) التوبة : ٣٦ .

(٢) هو حديث منكر وضعيف جدًا ، بل قال كثير من العلماء إنه موضوع ، يعني أنه مكذوب ، فليس له قيمة من الناحية العلمية ولا من الناحية الدينية (فتاوى معاصرة للشيخ القرضاوي : ١/ ٣٨٤) ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات بطرق عديدة ، وكذا الحافظ ابن حجر في كتاب : تبيين العجب فيما ورد في رجب (كشف الخفا للشيخ إسماعيل العجلوني) ، وانظر (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني) ص (٤٣٩) ط . دار الكتب العلمية ببيروت ، بتحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وعبد الوهاب عبد اللطيف .

(٣) ونص الحديث الذي رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود : « كان يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم . . . » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٣١٨/١، الحديث ٥٣٢) .

يصوم أكثره ، بل فى بعض الروايات أنه كان يصومه كله ، ولكن روايات أخر تقول : إنه ما استكمل صيام شهر قط غير رمضان [١] ، وروى عنه أسامة بن زيد أنه سأله : يا رسول الله ، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان، قال : «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » [٢] . كما صح عنه ﷺ أنه كان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وفى بعض الأحاديث أنه سئل [٣] عن سر الحرص على صيامهما فقال : « ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، وأحب أن يعرض عملى ، وأنا صائم » . فالصيام يقرب العبد من الله تبارك وتعالى ، ويجعله أهلاً لاستجابة دعوته وتقبل عمله .

من هنا حرص النبى ﷺ على كثرة الصيام فى شهر شعبان ، الذى يغفل الناس عنه بين رجب الشهر الحرام وبين رمضان الشهر المكرم ، شهر القرآن ، ومن هنا جاء فضل شعبان أنه يشرع فيه الصيام ، وعلى من فاته شىء من رمضان ، كأن كان مريضًا أو مسافرًا ، أو كانت امرأة فاتها شىء بحكم الدورة الشهرية فى رمضان ، عليها أن تتدارك قبل أن يأتى رمضان القادم .

يسأل كثير من الناس : هل يجوز قضاء ما فات الإنسان من رمضان فى شعبان ؟ نعم يجوز [٤] ، وإذا لم يكن قد قضى ما فاته خلال عشرة أشهر ماضية ، فعليه أن يتدارك الأمر ، ويقضى ما فاته فى شهر شعبان ، فإن أحدًا لا يضمن عمره ، وإن أحدًا لا يضمن صحته ، فالصحيح قد يمرض ، والحى قد يموت ، بل كل امرىء وكل نفس ذائقة الموت .

---

(١) فلعل المراد بها : أنه لم يكن يواظب على صيام شهر كامل إلا رمضان ، أما غيره فربما أتمه ، وربما أفطر بعضه ، وانظر (فقه الصيام للشيخ القرضاوى ص ١٢٤ ، ١٢٥) .

(٢) رواه النسائى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٣١٨/١ ، الحديث ٥٣١) .

(٣) سأله أسامة بن زيد رضى الله عنهما فى حديث رواه أبو داود (٢٤٣٦) ، والنسائى (٢٠١/٤ ، ٢٠٢) .

(٤) أجاب الشيخ القرضاوى عن هذا السؤال بالتفصيل فى (فتاوى معاصرة : ٣٤٠/١-٣٤١) .

هذا هو شهر شعبان ، أما ما جاء عن ليلة النصف منه ، فقد وردت أحاديث وده
بعض العلماء جميعًا ، وقالوا : لم يصح فيها شيء ، كالإمام ابن الجوزى والإما
ابن العربى ، وهناك من حسن بعض أحاديثها ، كحديث معاذ بن جبل : «يطل
الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لجميع خلقه ، إلا لمشر
أو مشاحن» [١] .

يطلع الله عليهم اطلاع رحمة ومغفرة ، ينظر إليهم نظرة مغفرة وعطف ، ونظر
إلى الخلق جميعًا دائم ، وهو لا يغفل عنهم طرفة عين ، ولا ينام عن عباده ، إ
النظر هنا والاطلاع هنا ، اطلاع رحمة ومغفرة وعناية خاصة .

يطلع عليهم هذه الليلة فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن ، أما المشرك فقا
قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن
يَشَاءُ . . ﴾[٢] وأما المشاحن فهو الذى تكون بينه وبين أخيه المسلم شحناء ، خصومة ،
عداوة ، قطيعة ، جفوة ، هذا يحرم من المغفرة ، يحرم منها فى كل أسبوع .

فى يوم الإثنين ويوم الخميس ، أو ليلة الإثنين وليلة الخميس ، حيث يغفر الله
تعالى لجميع خلقه إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول : أنظروا هذين حتى
يصطلحا . . . انظروا هذين حتى يصطلحا . . . أنظروا هذين حتى يصطلحا [٣] .

هكذا فى الموسم الأسبوعى ، ثم يأتى هكذا فى شهر شعبان فى ليلة النصف ،
أى أن أبواب المغفرة موصدة ، مغلقة أمام هؤلاء الذين لم يصفوا قلوبهم من

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، ورجالهما ثقات ، وابن حبان فى صحيحه ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٣١٨ - ٣١٩ ، الحديث ٥٣٣) .

(٢) النساء : ١١٦ .

(٣) إشارة إلى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة : « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا ، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : انظروا هذين حتى يصطلحا ، انظروا هذين حتى يصطلحا » يعنى أخروهما ، قال أبو داود : إذا كانت الهجرة لله فليس من هذا فى شيء ، فإن النبى ﷺ هجر بعض نسائه أربعين يومًا ، وابن عمر هجر ابنًا له إلى أن مات (المنتقى للقرضاوى : ٢/٧٢٩ - ٧٣٠ ، الحديث ١٦٦٦) .

الأحقاد ، هؤلاء الذين لم يعرفوا معنى الصفاء والنقاء ، الذين لا يدعون بهذا الدعاء: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

سلامة الصدر من الضغائن والأحقاد أمر أساسى فى الإسلام فالإسلام يقيم حياة الناس على أمرين : على أن يحسنوا صلتهم بربهم الذى خلقهم فسواهم ، وعلى أن يحسنوا الصلة بين بعضهم وبعض ، بحيث تقوم على الأخوة .. على المحبة ، إن لم تقم على الإيثار : ﴿ ... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾ (٢) كما كان الصحابة رضوان الله عليهم ، وإن لم تقم على هذا المعنى العظيم الذى جاء فى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٣) إن لم تقم على هذا وذاك ، فلتقم على سلامة الصدر من الحقد ، من الضغينة ، من الغل ، من الحسد والبغضاء ، داء الأمم من قبلنا ، كما جاء فى الحديث : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » (٤) .

هكذا علمنا النبى ﷺ وحذرنا ، فلماذا يعيش الناس ... لماذا يصبحون ويمسون ويضحون ، وقلوبهم مليئة بهذه الأمراض ؟ بهذه الأوبئة الفتاكة التى تعمل فى قلوب الناس وأرواحهم أكثر مما تعمل الأمراض والأوبئة الحسية بالأجساد ؟ إنها داء الأمم... داء المجتمعات .

ألا ما أجمل أن يعيش الإنسان نقيًا صافيًا ! علام يتباغض الناس ؟ ... على

---

(١) الحشر : ١٠ . (٢) الحشر : ٩ .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه (المنتقى : ٢/ ٥١٤ ، الحديث ٩٩٨) .

(٤) أخرجه أحمد والترمذى ، وإسناده ضعيف ، لكن له شواهد يتقوى بها ، وذكره الهيثمى فى المجمع ٨/ ٣٠ ، ونسبه البزار ، وقال المنذرى : سنده جيد ، انظر (شرح السنة للبغوى ، بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١١٧/١٣ ، الحديث ٣٥٣٨) و(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧١٦ ، الحديث ١٦١٥) .

الدنيا ؟ والله إن الدنيا لأهون من أن يتقاتل عليها الناس ، الدنيا تسعك وتسع أخاك فلماذا تضيق ما وسعّ الله ؟ لن يأكل أحد رزقك ، كما لن تأكل رزق أحد .

علام يتحاسد الناس ؟ . . . على الدنيا ؟ وهى لا تزن عند الله جناح بعوضة فليت شعرى على أن جزء من جناح البعوضة يتقاتلون ويتباغضون ؟

يأتى الاثنين ويأتى الخميس ، وتأتى الجمع والأشهر ، ويأتى النصف من شعبان، ويأتى رمضان ، والأحقاد كما هى ، يغفر الله لمن يشاء أن يغفر لهم ، ولكنه يؤخر أهل الحقد كما هم ، أهل الحسد والبغضاء الذين لا تصفى الأيام سرائرهم ، الذين لا تنقى الأحداث ضمائرهم لا يتسامحون . . . لا يعفون . . . لا يغفرون ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ . . . ﴾ [1] .

لما فعل ما فعل بعض الناس - مثل مسطح وغيره - الذين أشاعوا الإفك عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وقالوا فيها أسوأ ما يقال عن امرأة عفيفة طاهرة من بيت أكرم خلق الله ، حلف أبو بكر رضى الله عنه أنه لن يعطف على هؤلاء. . . لن ينالهم شىء من فضله ورفده ، وقد كان يعطيهم ويودهم ويبسط يده إليهم ، ولكنهم قابلوا المعروف بالنكران ، وقابلوا بالإساءة الإحسان ، ولكن القرآن نزل يعلم المسلمين ما هو أعظم من غل النفوس ، وغضب القلوب ، نزل يرتقى بمستوى المؤمنين ، فلا ينبغى أن ينزل أبو بكر إلى هذا الحضيض ، وأن يعامل الناس بمثل أعمالهم ، وجاء فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ، أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] ، فلما نزلت الآية قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : بلى نحب أن يغفر الله لنا .

هذا درس ينبغى أن نتعلمه من ليلة النصف من شعبان ، ومن يوم الاثنين والخميس، حيث يغفر الله تعالى لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء .

---

(١) ، (٢) النور : ٢٢ .

جاء فى الحديث الآخر : « ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرًا » (١) كناية عن عدم قبولها ، فلا ترتفع ولا تصعد إلى الله ﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴾ (٢) ، ولكن هناك أعمالاً ترد على أصحابها فلا تعلو ، هناك شيء يجذبها إلى الأرض ، لأنها من جنس طينها ملوثة ، من هؤلاء الثلاثة : « وأخوان متصارمان » متقاطعان ... متخاصمان ، فانظروا كم يخسر الإنسان بخصومته ... بعداوته .

لم يرخص لنا الشارع إلا فى ثلاثة أيام ، تنطفىء فيها ثورة الغضب ، حينما قال ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » (٣) .

لم يأت فى ليلة النصف من شعبان تخصيصها بقيام ، ولا تخصيص نهارها بصيام، ولا تخصيصها بدعاء خاص ، وصلوات خاصة ، كالتى رأينا الناس يفعلونها.

رأينا الناس من قديم يخصون هذه الليلة بالقيام ، ونهارها بالصيام ، ولم يصح فى ذلك حديث ، ولا يجوز أن تكون الأحاديث الضعيفة والواهية مدركًا لمثل هذه الأعمال والتعبدات ، فإن الأصل فى العبادة المنع إلا ما جاء النص الصحيح الصريح بالإذن به ، حتى لا يشرع الناس فى الدين ما لم يأذن به الله ، فكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة .

كنت أرى الناس فى صغرى يحتفلون بليلة النصف من شعبان ، ويعتبرونها موسمًا من المواسم الإسلامية ، يذبحون فيها الذبائح ، ويجتمعون فى المساجد يقرأون سورة

---

(١) رواه ابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وانظر تعليق الشيخ القرضاوى على الحديث فى كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/١٨٢ ، الحديث ٢٢٩) ، وتتمة الحديث: « رجل أمّ قومًا وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان » .

(٢) فاطر : ١٠ .

(٣) رواه مالك والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داود (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٧٢٨ - ٧٢٩ ، الحديث ١٦٦١) .

(يس) وليس لهذا أصل ، ثم يصلون ركعتين بنية طول العمر ! وركعتين أخريين بنية الغنى عن الناس ! ويقرأون دعاء مليئًا بالتناقض [1] ، ففيه : اللهم إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقيًا أو محرومًا أو مطرودًا أو مقترًا علىّ فى الرزق ، فامح اللهم بفضلك شقاوتى ، وحرمانى وطردى ، وإقتار رزقى ، واثبتنى عندك فى أم الكتاب سعيدًا مرزوقًا موفقًا للخيرات كلها ، فإنك قلت وقولك الحق فى كتابك المنزل وعلى لسان نبيك المرسل : ﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [2] .

وهذا كلام ينقض آخره أوله ، لأنه يقول : ﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أى أن أم الكتاب لا محو فيها ولا إثبات ، وفى الأول يقول : « إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقيًا . فامح اللهم بفضلك شقاوتى » كيف يستقيم هذا الكلام ؟! وأى دعاء هذا الذى يقول فيه : إن كنت فعلت كذا فامح كذا، أو افعل كذا ، مع أن النبى ﷺ أمرنا إذا دعونا أن نجزم المسألة فقال : «لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، اللهم ارزقنى إن شئت ، ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له » [3] ، لا ينبغى أن نقول : إن شئت . . . إن كنت كتبتنى ، لا ، قل اللهم اغفر لى وارحمنى واجعلنى من السعداء .

وفى هذا الدعاء أيضًا يقول القائل : إلهى بالتجلى الأعظم فى ليلة النصف من شعبان المكرم ، التى يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم ، وهذا خطأ ، فالليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة القدر كما جاء فى سورة (الدخان) : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ

---

(١) عرض الشيخ القرضاوى لهذا الدعاء وبين بطلانه وتناقضه بالتفصيل فى فتويين له فى كتاب (فتاوى معاصرة : ١/٣٧٩ - ٣٨٣) .

(٢) الرعد : ٣٩ .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٩٣/٥ ، الحديث ١٣٩٢) .

عندنَا، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (١) ، والليلة التى أنزل فيها القرآن هى نفس الليلة التى قال فيها : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٢) وهى بالنص والإجماع فى شهر رمضان ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٣) .

ما أحوجنا إلى أن ندعو الله تعالى فى كل وقت ، ولكن ندعوه بالمأثور عن رسول الله ﷺ ، وندعوه بما ورد به القرآن ، وما أكثر ما ورد فى القرآن من أدعية تنشرح بها الصدور ، وتطمئن بها القلوب ، كخواتيم سورة البقرة ، وخواتيم سورة آل عمرن ، وأدعية الأنبياء وغيرهم من المؤمنين والربانيين فى القرآن .

لم يرد فى ليلة النصف من شعبان تخصيصها بشىء من هذا ، كل ما ورد عن نصف شعبان حادثة عظيمة جرت فيه فى السنة الثانية من الهجرة ، وهى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ، من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وكانت هذه أمنية رسول الله ﷺ ، فقد كان قبل ذلك يصلى إلى بيت المقدس كما كان الأنبياء قبله يصلون ، وكان وهو فى مكة يحاول أن يجمع بين الأمرين ، فكان يصلى بين الركنين : بين الحجر الأسود والركن اليمانى ، فتكون الكعبة أمامه ويكون أيضًا بيت المقدس أمامه ، ولكنه تعذر عليه ذلك حينما هاجر إلى المدينة ، فكان يتمنى من قلبه أن يوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم ، بانى البيت ورافعه ، وابنه إسماعيل، والنبى ﷺ وارث ملة إبراهيم ومتبعها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (٤) .

كان يتمنى ذلك وينتظر الوحى ، وينظر إلى السماء دون أن ينطق لسانه بشىء ، أدبًا مع الله تبارك وتعالى ، حتى هيأ الله له ما أحب ورضى ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . . . ﴾(٥) انظروا إلى هذا الحب : حقق له ما يرضاه فى الدنيا ، ووعده بإعطاء ما يرضاه فى الآخرة ، انظروا إلى هذه العبارة الندية فى آية أخرى حيث قال له : ﴿ وَلَسَوْفَ

---

(١) الدخان : ٣ - ٥ . (٢) القدر : ١ . (٣) البقرة : ١٨٥ .
(٤) النحل : ١٢٣ . (٥) البقرة : ١٤٤ .

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (١) وهنا قال له : ﴿ . . . فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٢) ، وجهه إلى القبلة التى كان يتمناها . . . إلى البيت الحرام . . . إلى قبلة إبراهيم عليه السلام .

وهنا ثارت ضجة ، أثارها اليهود فى المدينة ، أقاموا الدنيا ولم يقعدوها : إن محمداً له كل يوم رأى ، وكل يوم قبلة ، كيف اتجه إلى الكعبة وكان من قبل يتجه إلى بيت المقدس ؟ إن كان ما مضى باطلاً فإن صلاة من صلى قبل ذلك ضائعة، وإن كان حقًا فكيف غير هذا الحق اليوم ؟ ونزل القرآن الكريم يرد على هؤلاء ، نزلت آيات كثيرة تمهد لهذا الأمر ، وتقرر أولاً حق الله تعالى فى نسخ ما يشاء من الأحكام والآيات ، كما قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

ثم من ناحية أخرى حملت على هؤلاء السفهاء الذين ينتهزون أى فرصة لإثارة الشبهات واختلاق الأقاويل بلا علم ولا بينة ، وردت عليهم فأفحمتهم ، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ، قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) ، المشرق والمغرب لله . . . الجهات كلها لله تستوى صخرة بيت المقدس أو الكعبة فى مكة ، كلها لله عز وجل ، الله هو الذى يخصص ويأمر ، وإلا فالجهات مستوية ، كما قال تعالى فى نفس السورة : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . . . ﴾(٥) فهو سبحانه من حقه أن يخصص الجهة التى يريدها ويحبها لخلقه ﴿يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦) ، وقد هدى هذه الأمة إلى أحسن الجهات ، اختار لهم أفضل الأماكن . . . أول بيت وضع للناس ليتجهوا إليه ،

---

(١) الضحى : ٥ . (٢) البقرة : ١٤٤ . (٣) البقرة : ١٠٦ .
(٤) البقرة : ١٤٢ . (٥) البقرة : ١١٥ . (٦) البقرة : ١٤٢ .

وليكونوا متعلقين بأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وليجددوا ملته فى التوحيد ومحاربة الأوثان والأصنام .

ومن هنا ذكر القرآن هذه الوسطية . . . وسطية هذه الأمة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . ﴾ [1] فهم وسط فى كل شيء : فى الاعتقاد ، وفى التعبد ، وفى الأخلاق ، وفى السلوك ، وفى التشريع ، حتى القبلة يقول عنها العلماء والباحثون اليوم : إن الكعبة البيت الحرام تعتبر وسط العالم ، وسط الدائرة ، مركز الدائرة ، سرة العالم ، هكذا أثبت الأستاذ حسين كمال الدين .

أما لماذا كانت الكعبة ثانيًا وبيت المقدس أولاً ، فهذا سر الابتلاء ، ولهذا يقول القرآن : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ . . . ﴾ [1] .

لا بد من امتحان كما حدث فى الإسراء والمعراج ، لا بد من تنقية الصف قبل مرحلة الجهاد المقبلة التي يواجه المسلمون فيها أعداء كثرًا : الجبهة الوثنية ، والجبهة اليهودية ، والجبهة النصرانية ، والجبهة المجوسية ، وجبهة المنافقين ، لا بد من صف مؤمن متماسك كالبنيان المرصوص ، فلا بد من امتحان يميز الله فيه الخبيث من الطيب ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ . . . ﴾ المؤمن يقول : سمعنا وأطعنا ، والمذبذب ينقلب على عقبيه لأدنى شيء ، فهذا لا خير فيه .

﴿ . . . وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . . . ﴾ [3] كان هذا التحويل شاقًا بما صحبه من تهاويل ، ولكن الذين هداهم الله بالإيمان استقبلوه بنفوس مطمئنة ، وعرفوا أن هذا من حق الله تبارك وتعالى .

﴿ . . . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] الذين صلوا قبل ذلك نحو بيت المقدس لم تضع صلاتهم ، صلاتهم كانت صحيحة فى وقتها ، ولو صلوا بعد هذه الآية إلى بيت المقدس لبطلت صلاتهم ، لأن كل حكم صحيح فى وقته ، فإذا نسخ فلا يجوز أن يعمل به .

ثم بين الله تبارك وتعالى بعد ذلك أن المهم فى الأمور كلها هو صدق التوجه إلى

---

(١) ، (٢) البقرة : ١٤٣ . (٣) ، (٤) البقرة : ١٤٣ .

الله ، البر الحقيقى هو بر العقيدة وبر الخلق وبر السلوك ، ولهذا رد على اليهو الذين يقفون عند الرسوم والشكليات بقوله : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . ﴾ (١) ما سر هذه الضجة ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَا وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا بر العقيدة ، وبر العبادة ، وبر الأخلاق ، وبر السلوك ، إنه سميع قريب ، ادعوا ربكم يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

إن همومنا نحن المسلمين كثيرة ومصائبنا شتى ، ولا ندرى ما المخرج من هذه المصائب التى تتوارد علينا ؟ أصبحنا هدفًا لكل السهام ، لكل النبال ، تنوشنا من كل جانب .

القوى الكبرى تضربنا عن يمين وشمال ، ومن شرق وغرب ، الشيوعية متمثلة فى روسيا تضربنا فى أفغانستان ، والرأسمالية متمثلة فى أمريكا تضربنا ليبيا ، والصليبية التى يعاونها هؤلاء وهؤلاء تضربنا فى الفلبين مرة ، وفى إريتريا مرة أخرى ، وفى فلسطين ، وفى لبنان ، عمن نتحدث ؟ إنها مصائب كثيرة . . . إنها بلايا شتى ، ما العمل ؟ سنظل نضرب ، وسنظل نطعن ، وسيظل أعداؤنا يطمعون فينا ما دمنا متمزقين . . . ما دمنا متفرقين ، الألف مليون لن تكون لهم قوة إلا إذا اتحدوا ، الاتحاد يقوى القلة ، والتفرق يضعف الكثرة .

---

(١) ، (٢) البقرة : ١٧٧ .

ولا يمكن أن نتحد إلا إذا اتحدنا على الإسلام ، لا وحدة لنا بغير الإسلام ، إذا لم نتناد بالإسلام منهاجًا وشريعة ونظامًا لحياتنا ، وأساسًا لوجودنا ، سنفترق يمينًا ويسارًا وشرقًا وغربًا ، هذا يوالى هؤلاء وهذا يوالى أولئك ، وهذا قبلته هنا ، وهذا قبلته هناك .

نريد القبلة الواحدة ، نريد أن نتجه كلنا إلى الكعبة رمز التوحيد ، نريد أن يكون قائدنا رسول الله ﷺ ، نريد أن يكون كتابنا هو القرآن الكريم ، نريد أن تكون شريعتنا ومنهاجنا الإسلام ، بهذا وحده نتحد ونصبح قوة تنصر الصديق ، وترهب العدو ، وإلا فلا منجاة لنا ، سنظل ندور وندور كالحمار في الرحى أو الثور فى الساقية ، والمكان الذي انتهينا إليه هو الذى ابتدأنا منه .

لا بد من عمل ، والعمل الأساسى أن توحد هذه الأمة على الإيمان والإسلام ، على أن تسير خلف رسول الله ﷺ ، تلتمس القدوة وتلتمس الهدى والنور ، وتتخذ كتاب الله أساسًا لحياتها ، ولا تتخذه مهجورًا ، حتى لا يخاصمها النبى ﷺ ويقول: ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (١) ، هذا وحده هو سبيل الخلاص ، ولا سبيل سواه ، هذا وحده هو طوق النجاة ولا طوق غيره ، وبدون هذا لن تنتج المؤتمرات ، ولا الاجتماعات ، ولا البرقيات ، ولا الاستنكارات، لن ينتج هذا كله شيئًا .

لا بد من عودة حقيقية إلى الله . . . أن نضع أيدينا في يد الله . . . أن ننتزع الأحقاد والعداوات ، إن كان ضروريًا بالنسبة للأفراد ، فكيف بأحقاد الجماعات والدول ؟ لماذا هذه الأحقاد . . . داء الأمم . . . الحالقة التي تحلق الدين وتحلق الوجود كله ؟ لا بد من عودة الأخوّة . . . لا بد من عودة الصفاء ولا صفاء إلا بالإيمان، ولا أخوّة إلا بالإسلام .

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى ، وقلوبنا على التقى ، ونفوسنا على المحبة ، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل ، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل

---

(١) الفرقان : ٣٠ .

غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١) . اللهم آمين وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

يوم الامتحان الأعظم

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كلما أقبلت مواسم الامتحانات ، ورأيت الطلاب والطالبات منكبين على دروسهم، منهمكين فى مذاكرتهم ، مشغولين بيوم آت لا ريب فيه ، هو يوم الامتحان ، يوم يكرم المرء فيه أو يهان ، كلما رأيت هذه المواسم ورأيت الانشغال والجد، والاهتمام والحرص ، وترقب هذا اليوم بقلق وخوف ، ذكرنى ذلك بامتحان أكبر يغفل الناس عنه ويهملونه ، ويضعونه دبر آذانهم ، وتحت أقدامهم ، ذلك الامتحان الأكبر هو امتحان يوم القيامة .

امتحانات الدنيا مهما تكن نتائجها تهون ، الناس يشغلون بها كل الشغل ، ينشغل الطالب وأهله ، ينشغل الأبناء والبنات ، والآباء والأمهات ، تنشغل الأسرة كلها بهذه الامتحانات ، وتسر إذا كانت النتيجة حسنة ، وتساء وتحزن إذا كانت النتيجة سيئة ، فبيت فرح مسرور ، وبيت آخر آسٍ حزين ، ولكن لماذا يكون السرور؟ ولماذا يكون الحزن ؟

السرور لأن الإنسان قد اجتنى ثمرة اجتهاده وجده ، فمن حقه أن يفرح ، ومن حق أهله أن يفرحوا ، وآخر قد جنى نتيجة تفريطه ، فمن شأنه أن يحزن وأن يساء ، ومن شأن أهله كذلك .

إلا أن امتحانات الآخرة أشد خطرًا ، وأبقى وأخلد أثرًا ، امتحانات الدنيا تهون، لأن الامتحان يمكن أن يعوض ، يمكن أن يكون له ملحق ، أن يكون له دور ثان ، يمكن أن يعيد السنة ويستدرك ما فات .

صحيح أن هناك فرقًا بين السابقين واللاحقين ، والمتفوقين والمتأخرين ، ولكن الأمور يمكن أن تتدارك ، لكن امتحان الآخرة لا تدارك فيه ، هناك يوم لا ريب فيه، يمتحن فيه المكلفون جميعًا ، عربهم ، وعجمهم ، ذكورهم وإناثهم ، غنيهم

وفقيرهم ، حكامهم ومحكوموهم ، فهم جميعًا يمتحنون فى هذا اليوم ، فماذا قدموا لهذا اليوم ، هل زرعوا فهم يحصدون ؟ هل غرسوا فهم يجتنبون ؟ أو فرطوا وأضاعوا ؟ اليوم عمل ولا حساب ، وغدًا حساب ولا عمل ، اليوم الغرس وغدًا اجتناء الثمرات ، اليوم الزرع وغداً الحصاد ، وقد قال القائل :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدًا ندمت على التفريط فى زمن البذر

وهذا هو زمن البذر ، الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن أراد أن يحصد غدًا فليزرع اليوم . . . فليقدم لنفسه قبل أن يأتى يوم الامتحان ، وهو يوم لا غش فيه .

إذا كان الناس يغشون فى امتحانات الدنيا ، ويتعاون بعضهم على الإثم والعدوان، فليس فى امتحان الآخرة غش ، وليس فيه مساعدة ، لا يساعد أحد أحدًا، لا يساعد الابن أباه ، ولا الأب ابنه ، ولا الزوج زوجه ، ولا الصديق صديقه ، كل إنسان مشغول بنفسه ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [1] كل إنسان يقول : نفسى نفسى ﴿ . . . لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا . . . ﴾ [2] .

كل يطلب النجاة لنفسه ، لا يدرى قد ينقص ميزانه حسنة واحدة فكيف يمنحها لغيره ؟ الميزان بالحسنات والسيئات ، التعامل ليس بالدرهم والدينار ، ولا بالريال ولا بالدولار ، ولكن العملة الوحيدة فى ذلك اليوم الحسنات والسيئات ، فلا ينفع أحدٌ أحدًا ، إنه يوم الأنانية المفرطة ، يوم الفردية المطلقة ، حتى الأبوة ، حتى الأمومة ، حتى هذه العواطف الحانية لا وجود لها فى ذلك اليوم كل يقول : نفسى نفسى . . . النجاة النجاة .

جاء فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « يحشر الناس حفاة عراة غرلا » (غير مختونين) قالت عائشة : فقلت : الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض ؟

---

(١) عبس : ٣٣ - ٣٧ .

(٢) لقمان : ٣٣ .

قال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » [1] الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض، كل مشغول بنفسه ، قيل : وما شغله ؟ [2] قال : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [3] .

أجل ، كل مشغول بمصيره : أيسعد سعادة الأبد أم يشقى شقوة الأبد ؟ أيكون من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ إنه يوم الحساب الأكبر ، يوم الامتحان الأعظم ، ولكن الناس فى غفلة عن هذا اليوم ، الطالب المجد يعد ليوم الامتحان من أول العام ، يجتهد ويستذكر ويراجع وينتبه ، حتى يجنى الثمرة فى النهاية نجاحًا وفلاحًا وتفوقًا يبشر به ويهنأ به ، ولكن العاجز الكسلان يتبع نفسه هواها ، ويتمنى على الله الأمانى .

وكذلك الناس فى الآخرة ، هناك من يعد للحساب عدته ، من يتهيأ ليوم الامتحان الأكبر ، ومن يغفل عن هذا اليوم .

● والناس فى هذا أصناف ثلاثة :

صنف لا يؤمن بالآخرة ، يظن أنه خلق لهذه الدنيا وحدها ، لا يؤمن بحساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار ، أولئك هم الماديون والدهريون والشيوعيون وغيرهم من الملاحدة قديمًا وحديثًا ، أولئك الذى ظنوا قصة الحياة أرحامًا تدفع ، وأرضًا تبلع ، ولا شىء وراء ذلك ﴿ . . . نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ . . . ﴾ [4] .

هكذا وجد من قديم وحديث أناس يظنون أن هذه الحياة هى كل شىء ، هى المبدأ والمنتهى ، هى الأولى والآخرة ، ولا شىء غيرها ، لماذا إذن كان هذا الخلق ؟

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٢٥ ، الحديث ٢٢٤١) .

(٢) يشير الشيخ إلى حديث سودة بنت زمعة رضى الله عنها وفيه : قال رسول الله ﷺ : «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً ، قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان » فقلت : يبصر بعضنا بعضًا ؟ فقال : « شغل الناس لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » رواه الطبرانى ، ورواته ثقات . وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٩٢٦ ، الحديث ٢٢٤٣) .

(٣) عبس : ٣٧ .

(٤) الجاثية : ٢٤ .

لماذا إذن كانت هذه الحياة ؟ لماذا انتصب هذا السوق ؟ إذا كانت هذه الدنيا ستنتهى ولا حياة بعد ذلك . . . ولا بعث . . . ولا حساب ، وقد نهب الناهب ، وسرق السارق ، وظلم الظالم ، وقتل القاتل ، وطغى الطاغى ، إذا كان كل هؤلاء ستطوى صفحاتهم ولا يجازى أحدهم بما عمل فأين العدل إذن ؟ أين الحكمة؟ إن بعض هؤلاء قد فر من عدالة الأرض فأين عدالة السماء ؟ قد هرب من عدالة الدنيا ، ألا توجد عدالة أخرى ؟ ، بل بعض من هؤلاء من واضعى القوانين وحراسها ، حاميها حراميها ! هؤلاء لم يجاوزوا فى الدنيا ، أفلا يوجد عدل ؟ إذا لم يكن هناك آخرة فلا عدل .

كيف يسوى هؤلاء الظلمة الطغاة بآخرين نصروا الحق ، وفعلوا الخير ، وقاوموا الظلم ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، فأعلن الطغاة حربًا عليهم ، وساموهم سوء العذاب ، فشرد من شرد ، وعذب من عذب ، وقتل من قتل ؟ .

ما الذى يعوض هؤلاء عما قاسوه فى الدنيا فى سبيل الحق والعدل ، إذا لم تكن هناك حياة أخرى ؟

أينتهى الأمر بنجاة أهل الباطل والظلم ، وإبادة أهل الحق والخير ؟ وقد قضى الأمر . وختم الكتاب ، وأسدل الستار ؟؟!!

هذا هو الباطل الذى يتنزه الله تعالى عنه ، هذا هو العبث الذى لا يليق بحكمته وجلاله ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ . . . ﴾ (١) ، ويقول الله عز وجل : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢) ، لا والله لا يستويان ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) ، الحق الذى قامت عليه

---

(١) المؤمنون : ١١٥ -١١٦ . (٢) سورة ص : ٢٧ - ٢٨ . (٣) الجاثية : ٢١ - ٢٢ .

السموات والأرض أنه لا بد من جزاء عادل ، لا بد من أن توفى كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) .

هناك عدالة إلهية ، هناك قصاص لا بد منه ، حتى أنه ليقتص للشاة الجلحاء التى لا قرن لها من الشاة القرناء ، التى اعتدت عليها ونطحتها كما جاء ذلك فى صحيح مسلم (٢) ، دلالة رمزية على أن العدل الإلهى عدل شامل ، لا يمكن أن يهرب منه أحد ، قسطاس مستقيم وميزان عادل لا جور فيه .

جاء رجل من أصحاب النبى ﷺ فقال : إن لى مملوكين يكذبوننى ، ويخوننونى، ويعصوننى ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل » فتنحى الرجل ، وجعل يهتف ويبكى ، فقال له رسول الله ﷺ : « أما تقرأ قول الله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(٣) فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء خيرًا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم كلهم أحرار (٤) ما دامت المسألة بهذا التحديد وهذا التدقيق فليرح نفسه ويعتقهم لوجه الله ، لا بد من حساب وميزان لحبة الخردل .

هناك أناس لا يؤمنون بالآخرة ، لا يؤمنون بالبعث والحساب ، يستبعدون على الله تعالى أن يعيد خلقًا بدأه ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ

---

(١) الزلزلة : ٧ - ٨ .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » رواه مسلم ، والترمذى (المنتقى من الترغيب والترهيب : ٢/ ٩٣٠ ، الحديث ٢٢٥٩) .

(٣) الأنبياء : ٤٧ .

(٤) رواه أحمد والترمذى ، عن عائشة رضى الله عنها . وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/ ٦٣١ - ٦٣٢ ، الحديث ١٣٤٨) .

عَلَيْهِ . . . ﴾ (١) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، هؤلاء هم الماديون المنكرون للآخرة ، وهم الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) .

هذا صنف من الناس ، وهناك صنف آخر يؤمنون بالآخرة ، ويؤمنون بأن بعد الموت بعثًا ، وأن بعد البعث حسابًا ، وأن هناك جنة ونارًا ، ولكنهم غافلون عن هذا المصير ، غرقوا إلى آذانهم في دنياهم ، عاشوا ليومهم ونسوا غدهم ، أحبوا الدنيا ونسوا الآخرة ، وأحبوا المال ونسوا الحساب ، وأحبوا الخلق ونسوا الخالق ، وأحبوا القصور ونسوا القبور ، هؤلاء مؤمنون بالآخرة ، ولكنه إيمان نائم مخدر ضعيف ، لا يبعث على عمل ، لا يحفز إلى خير ، ولا يردع عن شر ، ليس هذا هو الإيمان المراد ، نريد إيمانًا بالآخرة يدفع إلى عمل الخير ، ويزع عن فعل الشر .

أكثرنا للأسف من هذا الصنف الثاني ، كلنا يؤمن بأن هناك آخرة ، كلنا يؤمن بيوم القيامة ، كلنا يؤمن بالجنة والنار ، ولكن من منا الذي يذكر ذلك في مصبحه وممساه ، وغدوته وروحته ، وجلوته وخلوته ؟! وقد قال النبي ﷺ لابن عمر : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك (٤) .

ما يدريك – أيها الإنسان – أنك إذا أصبحت ستعيش إلى المساء ؟ وما يدريك إذا أمسيت أنك ستبقى إلى الصباح ؟ فالأمر ليس في يدك ، إنما هو في يد غيرك ، والأجل مجهول لا يعرفه أحد ﴿ . . . وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا

---

(١) الروم : ٢٧ . (٢) يس : ٧٨ - ٧٩ . (٣) يونس : ٧ - ٨ .

(٤) رواه البخاري ، وروى الترمذي والبيهقي نحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٨٦٦/٢ ، الحديث ٢٠٨٠) .

تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] ونحن نعرف فى هذا العصر موت الفجأة . . . الموت بالذبحة الصدرية أو بالسكتة القلبية ، أو بغير ذلك من الأمراض التى عرفها الناس فى هذا العصر ، ونعرف الموت بالحوادث . . . حوادث السيارات أو حوادث الطائرات أو حوادث البواخر أو غير ذلك . وقد لا تخطىء أنت ، ولكن يأتى من يخطىء فيدهمك ويقضى عليك ، قد تكون ماشيًا على قدميك ، فيأتى من يصعد إلى حافة الطريق ويصدمك فتلقى أجلك ، كل هذا وارد ، فهل أعددنا للموت ولما بعد الموت عدته .

الموت أهون ما بعده وأشد ما قبله ، الموت أشد من أى شىء عرض للإنسان فى حياته ، ولكنه أهون من كل المراحل التى تأتى بعد ذلك .

بعد الموت هناك القبر ، وبعد القبر هناك الحشر . . . الموقف . . . الحساب . . . الميزان . . . الصحف . . . الصراط . . . الجنة . . . النار ، هذا كله بعد الموت .

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى حتى يبلّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتذكر القبر فتبكى ؟ فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه » [2] يقول هانىء مولى عثمان : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا إخالك ناجيًا

إن تنج من هذه المنزلة من منازل الآخرة تنج من ذى عظيمة . . . تنج من هول شديد ، وإلا فانتظر ما بعده .

---

(1) لقمان : ٣٤ .

(2) رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٩٠٩ ، ٩١٠ الحديث ٢٢٢٥) .

« ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه » ما أصدقها كلمة ! ، وما أبلغها عبرة ولكن لإلفنا هذا المنظر أصبح لا يؤثر فينا .

تصوروا إنسانًا يعيش فى حياة ناعمة . . . فى بيت مكيف . . . فى أثاث ورياش، وربما فى قصر ضخم ، وحوله خدم وحشم ، ينتقل بعد ذلك إلى هذه الحفرة ، ويوضع فيها وحده ، لا أنيس . . . لا جليس . . . لا خدم . . . لا حشم . . . لا حراس ، ليس معه شيء إلا عمله ، ماذا يصنع بما ترك خلفه ؟ هب أن عنده الملايين هل يصحب منها شيئًا ؟ هل توضع معه صناديق الذهب ؟ ولو وضعوها معه هل يرشى منكر ونكير ؟ لا . . . لا ينفع أحدًا شيء مما خلّفه وراءه من دنياه وتراثه.

إذا مات العبد قالت الملائكة : ماذا قدم ؟ وقال الناس : ماذا خلّف ؟ الناس يسألون : كم ترك من رصيد فى البنوك ؟ كم ترك من عمارات وبنايات ؟ كم ترك من عقار وأموال ؟ ماذا خلف وراءه ؟ والملائكة تسأل : ماذا قدم أمامه ؟ لأن الذى ينفعه ليس ما خلّفه وإنما ما قدمه . ما خلّفه قد ينفعه وقد لا ينفعه ، بل كثيرًا ما يتضرر به ؛ لأنه جمعه من غير حلّه ، أو بخل به عن حقه ، وتركه لمن لا يؤدون حق الله فيه .

وبعد القبر يأتى المحشر . . . يأتى الموقف . . . يأتى الحساب ، تأتى هذه المراحل كلها ، ولذلك كان الموت أهون من كل مما بعده .

رأى الحسن البصرى رضى الله عنه ميتًا يدفن فقال : إن امرءًا هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله - أى فى الدنيا التى قبله - وإن امرءًا هذا أوله لجدير أن يخاف آخره - أى لما يأتى بعد ذلك من مواقف القيامة .

● الناس أصناف ثلاثة :

صنف لا يؤمن بالآخرة ، من الماديين الجاحدين أعاذنا الله من شرهم . وصنف يؤمن بالآخرة ، ولكنه غافل عنها ، لا تعيش الآخرة نصب عينيه ، بل يدعها وراء ظهره ، كأنما جعلها نسيًا منسيًا ، أو كتابًا مطويًا لا يريد أن يفتحه .

والصنف الثالث هم الذين يؤمنون بالآخرة ويعيشون لها ويسعون سعيها ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (١) هؤلاء هم المؤمنون الصادقون الذين يعلمون أن الدنيا إنما هى دار ممر لا دار مقر ، وأنها مزرعة للآخرة ، وأنهم لم يخلقوا للدنيا وإنما خلقت لهم الدنيا ، هم خلقوا للآخرة ، خلقوا لله ، فهم يتخذون الدنيا مطية يرتحلونها فى سفرهم إلى الله ، ولا يتخذونها ربًا فتتخذهم عبيدًا .

وهم يذكرون الآخرة دومًا ، كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون . أى كان كل إنسان يصنع ما بدا له ، ويفعل ما يحلو له ، يعبّ من الشهوات عبا ، ويرتكب من الموبقات ما يرتكب ، ويعتدى على كل ضعيف ، وكانت الحياة غابة يفترس فيها القوى الضعيف ، ولكن القيامة هى التى جعلت عمر يعف عن المال العام ، ويعيش بثوب مرقع ، وكنوز كسرى وقيصر تأتى إليه من هنا وهناك .

كانوا يعلمون أن أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، فلا يريدون عيشهم ، إنما أرادوا أن يعيشوا فى الدنيا بقلوب أهل الآخرة ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (٢) خوف يوم القيامة هو الذى قطع نياط قلوب المؤمنين ، وجعلهم يعيشون دائمًا بآمال الآخرة .

سئل بعض السلف : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت قريبًا أجلى ، بعيدًا أملى ، سيئًا عملى ؛ وسئل الإمام الشافعى : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ سأله المزنى فى علته الأخيرة فقال : أصبحت عن الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقًا ، ولسوء عملى ملاقيًا ، ولكأس المنية شاربًا ، وعلى الله تعالى واردًا ، ولا أدرى روحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسـا قلبى وضاقـت مـذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلمـا
تعاظمنى ذنبى فلمـا قرنتـه ... بعفوك ربى كان عفـوك أعظمـا
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منـه وتكرمـا

---

(١) الإسراء : ١٩ .

(٢) النور : ٣٧ .

ولولاك لم يغوى بإبليس عابـــــد   فكيف وقد أغوى صفيك آدمـــا ؟

لو أن الناس استحضروا الآخرة ... استحضروا الموت ... استحضروا القبر... استحضروا القيامة ... استحضروا الميزان والصراط ... استحضروا الجنة والنار ... لانحلت مشكلات هذه الحياة ، لما رأينا الصراع على هذا المتاع الأدنى ، ما رأينا الإنسان يقاتل أهله ، ويجافى إخوانه ، ما رأينا تنازع البقاء أو تنازع الفناء الذى نشهده .

إن مشكلة الناس فى عصرنا أن الآخرة غائبة عنهم ، لو أن الآخرة حاضرة مشهودة فى وعيهم ... فى عقولهم ... فى قلوبهم ، لحلت المشكلات .. لتسامح الناس .. لأعطى كل ذى حق حقه .. لما تظالم الناس ولا طغى بعضهم على بعض ، ولكنها الغفلة عن الآخرة ، والغفلة شر ما يصيب الناس ، ولهذا قال الله تعالى فى ذم قوم جعلهم حطب جهنم : ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) وكان من دعاء السلف رضى الله عنهم : اللهم لا تدعنا فى غمرة ، ولا تأخذنا على غرة ، ولا تجعلنا من الغافلين .

نسأل الله تبارك وتعالى ألا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، وأن يجعل الآخرة نصب أعيننا ، اللهم آمين . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة :

ألاحظ أن هناك بعض الإخوة يحضرون متأخرين ، وهؤلاء يُفوِّتون على أنفسهم ثوابًا عظيمًا ، فقد صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ، ثم راح فى الساعة الأولى - أى فى الفوج الأول - فكأنما قرّب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومن راح

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

فى الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »[1] كأن السجل الذى يكتب فيه الحضور والغياب طوى . . . انتهى ، لأنه جاء بعد الوقت المحدد ، فهذا يحرم نفسه خيرًا كثيرًا ، ثم يضطر إلى تخطى الرقاب فيؤذى الآخرين ، ولهذا أوصى الإخوة بالتبكير.

إن كل لحظة تبقاها فى المسجد تكتب لك صلاة ، الإنسان فى المسجد فى صلاة ما دام ينتظر الصلاة حتى يحدث أو يخرج من المسجد ، وما دام فى المسجد ينتظر الصلاة فإن الملائكة تصلى عليه . . . تدعو له ، تقول : اللهم اغفر له . . . اللهم ارحمه ، حتى يحدث أو يخرج من المسجد[2] .

فاحرص على أن تجلس فى المسجد بنية الاعتكاف لله عز وجل ، ليكن لك عبادة ومثوبة عند الله ، وبخاصة أننا مقبلون على الموسم العظيم . . على شهر رمضان . . شهر القرآن . . شهر العبادة . . شهر الصيام والقيام . فهيئوا أنفسكم له بالنية الصادقة . . بالتوبة النصوح . . بالعزم المصمم على أن تخرجوا منه مغفورًا لكم فـ « من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه »[3] « . . . ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه »[4] .

---

(١) رواه مالك ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٢٤٥ ، الحديث٣٧٤).

(٢) يشير الشيخ إلى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : « . . . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه : اللهم صلّ عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » وفى رواية : « اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه » رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ١/١٦٢ ، الحديث ١٦٦) .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى (المنتقى : ١/٣١١ ، برقم ٥١٥) .

(٤) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه (المنتقى : ١/٣١١ ، برقم ٥١٤) .

اللهم اغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقى ، واجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) اللهم آمين .

﴿ ... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الحشر : ١٠ . (٣) العنكبوت : ٤٥ .

فضل شهر رمضان

• الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

إن لربنا فى دهرنا نفحات ، تأتينا نفحة بعد نفحة ، تذكرنا كلما نسينا ، وتنبهنا كلما غفلنا ، وتقوينا على عزائم الخير كلما ضعفنا .

إنها مواسم للخيرات ، يتيحها الله تعالى لعباده ، ليتزودوا منها ما استطاعوا ، وخير الزاد التقوى ﴿ . . . وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وإن أعظم مواسم الخير هو هذا الشهر الكريم ، شهر رمضان المبارك ، الذى فضله الله تعالى بنزول القرآن فيه ، أعظم الكتب ، كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، دستور خالد لهداية الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ . . . ﴾ (٢) .

إن الله تعالى منّ على هذه الأمة بهذا الشهر من كل عام ، يزورها ضيفًا كريمًا ، فمن الناس من يحسن وفادته . . من الناس من يكرمه ، ومن الناس من يخرج عنه رمضان وهو يحمل له أسوأ الأثر والذكريات .

فطوبى لمن شفع فيه رمضان ، وطوبى لمن شفع فيه القرآن « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، قال فيشفعان » (٣) .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .   (٢) البقرة : ١٨٥ .

(٣) رواه أحمد ، والطبرانى فى الكبير ، ورجاله محتج بهم فى الصحيح . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الجوع وغيره بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٣٠٩/١ ، الحديث ٥٠٩) .

رمضان موسم للخيرات يتيحه الله تعالى للإنسان ، هو موسم المتقين ومتجر الصالحين . لكل بضاعة موسم ، ولكل تجارة موسم ، يترقبه أهلها ، لماذا ؟ ليزيدوا من نشاطهم ويضاعفوا من جهدهم ، عسى أن يزيد ربحهم ، وما قيمة الربح ؟ إنهم يزيدون النشاط ، فيركبون الأخطار ، ويصلون الليل بالنهار ، في سبيل ربح قد يكون وقد لا يكون ، وإذا كان فقد ينتفعون به وقد لا ينتفعون ، وإذا انتفعوا به يومًا فإنهم عنه زائلون ، إن دام لهم فهم أنفسهم لا يدومون .

هب الدنيا تساق لك عفواً — أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل غـــــل — أظلك ثم آذن بالـــــزوال

إن للدنيا تجارًا ، وإن للآخرة تجارًا ، تجار الدنيا يترقبون مواسمها ليربحوا ، وتجار الآخرة يترقبون مواسمها أيضًا ليربحوا ، ولكن ربح هؤلاء غير ربح أولئك ، إن ربحهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، تجار الآخرة هم كما وصفهم الله : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [(١)] .

يأتي رمضان كل عام فرصة للإنسان المسلم ، ليزداد من الخيرات ، ويقلل من أسباب السيئات .

الخير مفتوحة أبوابه ، الجنة مفتحة أبوابها ، والنار مغلقة أبوابها ، والشياطين مقيدة مصفدة ، دلالة على أن أسباب الخير كثيرة متوافرة ، وأسباب الشر قليلة محدودة .

فيا سعادة من انتفع بهذه الفرصة ، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين»[(٢)] وجاء في بعض الأحاديث : « . . . وينادى مناد يا باغى الخير أقبل ،

---

(١) النور : ٣٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٣١٢ ، الحديث ٥١٧) .

ويا باغى الشر أقصر . . . » [(١)] . « يا باغى الخير أقبل ، الفرصة أمامك ، بحسبك من الغفلة عن الله أحد عشر شهراً مضت ، يا طالب الخير أقبل ، الحسنات تضاعف، الباب مفتوح ، ضع يدك فى يد الله عز وجل ، يا باغى الخير أقبل على الله بحسن الصيام وحسن القيام والإكثار من الطاعات .

حسن الصيام : ألا يكون صيامك مجرد صيام البطن والفرج ، ولكن لسانك مفطر، وعينيك مفطرتان ، وأذنيك مفطرتان ، وجوارحك مفطرة .

عينك مفطرة بالنظر إلى الحرام ، ولسانك مفطر بالكذب أو الغيبة أو النميمة أو السخرية أو اللغو ، وأذنك مفطرة بسماع الأغانى الفارغة ، وسماع الألفاظ السخيفة، لا ينبغى لك أيها المسلم أن يصوم بطنك وفرجك ، وكلك مفطر . تصوم عما أحل الله من الطعام والشراب ، وتفطر على ما حرّم الله من المعاصى ، يقول الحديث الصحيح : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » [(٢)] لم يتأدب بأدب الإسلام ، ما دام لم يحصن نفسه من المعاصى: « .. والصيام جنة - درع من المعاصى ومن الآثام فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة، جنة كجنة أحدكم من القتال - فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، فإن سابه أحد ، أو قاتله ، فليقل إنى صائم ، إنى صائم . . » [(٣)].

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة فى صحيحه ، والبيهقى كلهم من رواية أبى بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة . قال الترمذى : حديث غريب ، ورواه النسائى ، والحاكم ، بنحو هذا اللفظ ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما ، ووافقه الذهبى ، وحسن الألبانى إسناده للخلاف فى ابن عياش من قبل حفظه . وانظر نص الحديث كاملاً فى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣١٢ - ٣١٣ ، الحديث ٥١٧) .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وعنده « من لم يدع قول الزور والجهل والعمل به » وهو رواية للنسائى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٣٠ ، حديث ٥٦٨) .

(٣) رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٠٧ ، برقم ٥٠٥) .

لا يقابل السيئة بالسيئة ، بل يقابل السيئة بالحسنة . يتذكر أنه فى عبادة ينبغى ألا تخدش ولا تجرح ، فيقول بقلبه ويقول بلسانه ، مخاطبًا نفسه ومخاطبًا من يسبه ويشتمه ، يقول : إنى صائم إنى صائم .

الأمر إذن ليس كما يفعل كثير من سفهاء الناس ، يتطاول أحدهم بلسانه على الخلق ، ثم يقول : أعذرنى فإنى صائم ، كأن الله شرع الصيام ليفسد أخلاق الناس! لا ، بل ينبغى للصائم أن ينضبط . . أن يهذب نفسه . . أن يصون لسانه ، كما يصون أذنه ، كما يصون عينيه ، كما يصون جوارحه كلها « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع » [(١)] أتعب نفسه ، وأجهد جسمه ، وأجاع بطنه ، ولكنه لم يقم للصيام بحقه .

ذهبت عائشة رضى الله عنها ، وذهب الأوزاعى ، وذهب الظاهرية ، وذهب عدد من فقهاء السلف ، إلى أن الغيبة والنميمة والكذب والمعاصى كلها تفطر الصائم، ومن ارتكب شيئًا من ذلك فعليه أن يقضى يومًا بدل هذا اليوم . وقال سائر الصحابة وجمهور العلماء : إنها لا تفطر الصائم ، ولكنها تذهب بثوابه وأجره عند الله [(٢)] . وهل هذا هين ؟ أن تجوع وتظمأ ، ويجف ريقك يومًا كاملاً ، ثم بعد ذلك لا يكون لك مثوبة عند الله ، تخرج خاوى الوفاض ، بادى الأنفاض ، ليس لك شيء .

صن نفسك ، صن لسانك ، صن أذنيك ، صن عينيك ، صن يديك ، صن رجليك ، صن جوارحك كلها ، حتى لا تمس حرامًا ، ولا تفعل حرامًا .

حاول أن تتطهر فى هذا الشهر الكريم ، إنه شهر التطهر ، الله أتاح لنا فرصة بعد فرصة لنتطهر . علم الله أن فينا ضعفاً ، وأنه خلقنا خلقًا مزدوج الطبيعة ، فينا الطين

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة ، ورواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٣٠ ، برقم ٥٧٠) وتمامه « ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر».

(٢) ذكر الشيخ هذه المسألة بشيء من التفصيل تحت عنوان : هل المعاصى تفطر الصائم ؟ فى كتابه (فقه الصيام : ص ٨٦ – ٨٩) فلتراجع هناك .

وفينا الروح ، فينا الصلصال والحمأ المسنون ، وفينا سر قوله تعالى : ﴿ . . وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . ﴾ [1] فأحياناً يغلّب الإنسان جانبه الطينى ، فيهوى إلى الْأَرْضِ ويخلد إليها ، وأحيانًا يغلب جانبه الروحى ، فيرقى حتى يصعد إلى الملائكة .

الصيام شرعه الله لنا لنرقى إلى أفق الملائكة ، ليرتقى فينا الجزء الربانى السماوى على الجزء الأرضى الطينى .

الإنسان ليس جسمًا فقط ، الإنسان جسم وروح ، بل الروح هو الحقيقة ، والجسم هو الغلاف ، فلا يجوز له أن يعيش لجسمه وبدنه ، ويغفل نفسه وروحه التى بين جنبيه .

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمتـــه ... أتطلب الربح مما فيه خســـران ؟!

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنســـــان

من هنا شرع الله الصيام ليرقى بالإنسان ، ليرقى بنفسه وروحه ، حتى يكون إنسانًا حقًا ، فلقد عاش بعض الأحيان أقرب إلى الحيوان ، وربما أقرب إلى الشيطان ، ورمضان فرصة ليتطهر ويصعد إلى أفق أعلى .

هذه فرصتك أيها الإنسان المسلم ، الصيام يقربك من الله عز وجل ، لأنك حرمت نفسك مما اعتدته من قبل ، لا لشىء إلا لإرضاء الله تبارك وتعالى . ما الذى غير نظام حياتك ؟ كنت تأكل فى الصباح ، وتأكل فى الظهيرة ، فغيرت هذا النظام ، ثرت على مألوفاتك ، ما الذى جعلك تفعل هذا ؟ إنه العبودية لله تبارك وتعالى ، ولذلك جاء فى الحديث : « كل عمل ابن آدم له ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله : إلا الصوم فهو لى وأنا أجزى به ، يدع الطعام من أجلى ، ويدع الشراب من أجلى ، ويدع لذته من أجلى ، ويدع زوجته من أجلى . . . »[2] .

---

(١) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

(٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه واللفظ له ، ورواه البخارى ، ومسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، مع اختلاف بينهم فى الألفاظ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٣٠٨/١ ، برقم ٥٠٥) .

من أجل الله وحده ، يترك الإنسان ما تشتهيه نفسه ، ولهذا نسب الله هذه العبادة إليه .

الإنسان المسلم فى رمضان يرتقى ويتطهر ، الله أعطانا فرصة يومية للتطهر بالصلوات الخمس « أرأيتم لو أن نهرًا على باب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ - هكذا سألهم النبى ﷺ - قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » (١) . فرصة يومية ، حمام يومى يغتسل فيه الإنسان كل يوم خمس مرات ، ليتطهر من أوضار ذنوبه ، وأنجاس خطاياه . ثم تأتى فرصة أسبوعية فى يوم الجمعة ، ثم تأتى الفرصة السنوية فى رمضان ، بصيامه وقيامه ، جاء فى الحديث الصحيح : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » (٢) و« من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » (٣) أى من الصغائر كما دلت الأحاديث الأخرى ، أما الكبائر فلا بد لها من توبة نصوح . وفى الصحيح « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (٤) .

الصيام والقيام يؤديان بك إلى مغفرة الله تبارك وتعالى ، إذا أردت أن تخرج من هذا الشهر مغفورًا لك ، فعليك بأن تحسن الصيام ، وتحسن القيام . أن تصوم صوم المؤمنين المحتسبين ، وتقوم قيام المؤمنين المحتسبين .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى من حديث أبى هريرة ، ورواه ابن ماجه من حديث عثمان (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/١٦٨ ، برقم ١٨٤).

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٦/٢١٧ ، حديث ١٧٠٦) ومعنى (إيمانًا) أى تصديقًا بوعد الله تعالى ، ومعنى احتسابًا : أى طلبًا لوجه الله تعالى وثوابه .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، ورواه مالك فى الموطأ (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٤/١١٦ ، حديث ٩٨٨) .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، كتاب الطهارة ، حديث (٢٣٣) . وانظر تعليق الشيخ القرضاوى عليه فى كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٢٣٩ ، الحديث ٣٥٨) .

ولهذا يا ويل أولئك الذين يأتى عليهم رمضان ، ولا يفرقون بينه وبين غيره من شهور العام ، أولئك الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، ويعيشون بين ظهرانينا ، وينتهكون حرمة هذا الشهر الكريم ، هل يجوز أن يحدث هذا فى مجتمع مسلم ، لا والله . أولئك إما فسّاق عصاة ، أو مرتدون كفار والعياذ بالله .

من استخف بحرمة هذا الشهر ، من أنكر فرضيته ، فهو كافر مارق ، ينبغى أن يفرق بينه وبين زوجته وأولاده ، وأن يحكم عليه بالردة والمروق من الإسلام . ومن اعترف بحرمة هذا الشهر وفرضيته ، ولكنه أعلن أنه عاص بعمله ، فهذا فاسق عاص ، لا يحكم عليه بالكفر .

كان المسلمون قديمًا يصومون ويصوّمون صبيانهم وهم صغار ، حتى كانوا يأتون لهم باللعب من العهن .. الصوف المنفوش ، يسلونهم بها حتى يحين وقت الإفطار. ومن هنا كان على المسلم أن يدرب أولاده على الصيام حتى ينشأوا على هذه العبادة .

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوّده أبـــوه

بعد السابعة إن أطاق الصبى الصيام يؤمر بالصيام ، إلى العاشرة فيضرب عليه إن أطاقه [1] . يمكن أن يصوم أيامًا ويفطر أيامًا ، حتى يمكنه بعد ذلك صوم الشهر كله ، الخير عادة والشر عادة ، وكما قال الشاعر :

وينفع الأدب الأحداث فى صغر   وليس ينفع عند الشيبـــة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلــت   ولن تلين إذا قومتها الخشـــب

إن الله تبارك وتعالى فرض علينا شهرًا واحدًا ، يقول بعض الأدباء : احمدوا الله، هناك ربيع أول وربيع ثان ، وجمادى أولى وجمادى آخرة ، ولكن رمضان

---

(١) ذكر الشيخ فى كتابه (فقه الصيام : ص ٣٧) أن الحديث الوارد فى شأن الصلاة « مروا أولادكم وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » ينطبق على الصيام هنا بفارق واحد ، وهو مراعاة القدرة البدنية للصبى - أو الصبية - فقد يبلغ السابعة أو العاشرة ، ولكن جسمه ضعيف لا يحتمل الصيام ، فيمهل حتى يشتد عوده ويقوى .

واحد . ليس هناك رمضان أول ورمضان آخر ، هو رمضان واحد ، شهر من اثنى عشر شهراً ، وطلب الله منا الصيام فيه من الفجر إلى غروب الشمس .

وما أعظم نعمة الله علينا فى هذه البلاد ، إنها ساعات محدودة ، هناك من يصوم عشرين ساعة أو أكثر فى شمال أوربا وأمريكا وكندا ، هناك من سألونى عن الصيام فى ذلك النهار الطويل ، ماذا يصنعون ؟ نحن نصوم ساعات محدودة معدودة ، يستطيع أى إنسان عنده عزم وقوة أن يصومها .

ومع هذا كله فإن الله رخص للإنسان أن يفطر لأعذار شتى : المرض عذر ، والسفر عذر ، والشيخوخة عذر ، والعمل الشاق عذر . من كان يعمل فى عمل شاق لا يقدر أن يقوم به يمكنه أن يفطر ويقضى بعد ذلك .

ولكن رأينا الناس والله فى القرى والأرياف ، رأينا العمال الذين يعملون فى البناء والأعمال الشاقة ، يتحملون حر الشمس فى وقدة الصيف ، ويظلون صائمين إلى آخر النهار ، إنها عزائم المؤمنين .

وهنا يسأل كثير من الطلاب فى هذه الأيام عن الصيام والامتحانات قائمة أو على الأبواب ، وأنا أقول : إن على كل مسلم أن ينوى الصيام ، وأن يعزم ويصمم عليه، وأن يتسحر ويستعد ، ثم يجرب نفسه : هل يستطيع أن يواصل أم لا يستطيع ؟ فإن وجد نفسه لا يستطيع أن يستوعب ، أو أن يفهم ، أو أن يهضم أو أن يؤدى الامتحان بجدارة ، فعنده رخصة فى الإفطار ثم عليه القضاء بعد ذلك .

أما أن ينوى الإفطار مقدمًا دون أن يحاول الصوم ، فمن أين له : أنه لا يستطيع؟.

وهناك أناس يستطيعون أن يغيروا نظامهم ، كثير من الناس يسهرون الليل كله فى رمضان ، فيستطيع الطالب أن يذاكر طوال الليل وأن ينام النهار لا يقوم إلا للصلاة، ومن تيسر له ذلك كان الأمر سهلاً عليه . المهم العزم على الصيام ، والصيام بآدابه التى شرعها الله تبارك وتعالى .

على المسلم أن يصوم من الفجر إلى غروب الشمس عن المفطرات كلها ، حتى إذا غربت الشمس بادر بالإفطار ، فإن النبى ﷺ قال : « لا يزال الناس

بخير ما عجلوا الفطر »[1] . وكان تعجيل الفطر وتأخير السحور من هديه وهدى أصحابه ، يقول الرسول الكريم : « إنا معاشر الأنبياء ، أمرنا أن نعجل فطرنا ، وأن نؤخر سحورنا ، وأن نضع أيماننا على شمائلنا فى الصلاة »[2] . وعن عمرو بن حريث ، وعمر بن ميمون قالا : كان أصحاب رسول الله ﷺ أسرع الناس إفطارًا وأبطأهم سحورًا[3] . و« كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلى على رطبات ، فإن لم تكن رطبات فتمرات ، فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من ماء»[4] .

تعجيل الإفطار وتأخير السحور إلى ما قبيل الفجر سنّة .

ليس هناك فترة تسمى فترة الإمساك أو الاحتياط ، ليس فى الشرع شيء من هذا، بل هذا نوع من الغلو الذى يرفضه الإسلام . النبى ﷺ نهى عن صوم يوم الشك ، اليوم الذى بعد التاسع والعشرين من شعبان ، نهى عن صومه منفردًا إلا أن يكون يوم عادة له صادف يوم خميس يصومه أو نحو ذلك[5] . لماذا ؟ حتى لا يحدث الناس غلوًا فى الدين ، ويصبح بعد مدة أمرًا عاديًا مشتركًا للأمة كلها . الإسلام يسر ، الشريعة حنيفية سمحة ، فى آية الصيام : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . . . ﴾[6] .

علينا أن نحسن الصيام ، وعلينا أن نحسن القيام « من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا

---

(١) متفق عليه عن سهل بن سعد (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : حديث ٦٦٧).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٥٥) : رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أثران رواهما الطبرانى فى الكبير ، ورجالهما رجال الصحيح (المجمع : ٣/ ١٥٤) .

(٤) رواه أبو داود عن أنس رضى الله عنه ، والترمذى وقال : حديث حسن ، ورواه الحاكم شاهدًا وصححه على شرط مسلم ، وسكت عليه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٢٩ ، برقم ٥٦٥) .

(٥) أخرج البخارى ، ومسلم ، من حديث أبى هريرة : « لا تقدموا بين يدى رمضان بيوم، أو يومين ، إلا رجلاً كان يصوم صيامًا فليصمه » (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط : ٢/ ٤٠ - ٤١) .

(٦) البقرة : ١٨٥ .

غفر له ما تقدم من ذنبه » [١] ، أن يقوم قيام المؤمنين المحتسبين ، ليس المقصود ركعات يؤديها الإنسان دون خشوع ولا اطمئنان ، والطمأنينة ركن فى الصلاة .

نريد أن يعيش الإنسان مع كتاب الله ، يعيش فى رحاب القرآن ، فرمضان شهر القرآن ، يعيش معه قارئًا ، يتلو ما استطاع من هذا الكتاب ، فله بكل حرف عشر حسنات [٢] . ويعيش معه مستمعًا ، وما أحلى صلاة التراويح يقضيها الإنسان مع القرآن الكريم .

ليس المقصود هذه الصلوات التى نراها فى المساجد ، لا يخشع فيها قلب ، ولا يراقب فيها رب ، ولا يستقر فيها صلب . هذه الصلاة التى نرى أصحابها كأن وراءهم من يلهب ظهورهم بسوط ، ليست هى الصلاة المقصودة .

نريد الصلاة الخاشعة المطمئنة ، نريد أن يكون رمضان شهرًا لله تبارك وتعالى، أن يخرج الإنسان من هذا الشهر ، وحظه من المغفرة والرحمة والعتق من النار ، أن يكون من عتقاء الله تعالى من النار ، ولله فى كل ليلة عتقاء .

هذا هو شهر رمضان أيها الإخوة ، شهر رمضان ، شهر أتاحه الله لنا لنتطهر ، نتطهر من سيئاتنا ونتزود من الحسنات ونحاول أن نزيد من رصيدنا عند الله تبارك وتعالى ، الناس يحاولون أن يضاعفوا من رصيدهم فى المصارف والبنوك ، ومهما حاولوا فإن هذا لن يكون معهم يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [٣] .

لا حرج على الإنسان أن يزيد من رصيده إن كسبه من حلال ، ولم يبخل به عن واجب ، ولكن الأهم من ذلك كله ، هو الرصيد الذى ينفع فى يوم لا عملة فيه إلا الحسنات والسيئات .

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٠٦) .

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٤١٧ ، برقم ٧٧٣) .

(٣) الشعراء : ٨٨ - ٨٩ .

حاولوا أيها الإخوة المسلمون أن تزيدوا من رصيدكم عند الله عز وجل ، اعزموا- ونحن فى أول الشهر - أن تجعلوا هذا الشهر شهرًا خالصًا لله تبارك وتعالى ، أن تجعلوه شهرًا للصيام وللقيام وللخيرات ، وأن تبذلوا فيه لله عز وجل ، اخرجوا زكاة أموالكم ، أدوا ما عليكم من حقوق ، من كان عليه دين فليقض دينه، فإن الديون يسأل عنها الإنسان يوم القيامة ، ولا ينفع فيها صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة .

نحن الآن فى زمان تكاثرت فيه علينا المصائب من كل جانب ، وتداعت الأمم علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، يختلف أولئك فيما بينهم ويتفقون علينا نحن المسلمين ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . . . ﴾ [1] .

لا ينجينا أيها الإخوة مما نحن فيه إلا رجعة صادقة إلى الله تبارك وتعالى ، إلا أن نقرع باب الله قرع التائبين المنيبين ، الراجين الخائفين ، وهذا أوان هذه الرجعة ، هذا هو موسم التوبة والإنابة ، فلنقل جميعًا ما قال أبونا آدم وأمنا حواء : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [2] .

ما أحوجنا أن نرجع إلى الله فى هذا الشهر ، أن ندعوه بقلوب خاشعة ضارعة ، وأيد ممدودة إليه مبتهلة ، أن ينجينا مما نحن فيه ، أن يكشف عنا غمتّنا ، ويفرج كربتنا .

ما أحوجنا إلى أن ندعو ، وللصائم دعوة ما ترد عند فطره ، كما جاء فى الحديث : « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » [3] . وجاء فى الحديث الآخر : «ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حين يفطر - وفى رواية الصائم حتى يفطر - والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » [4] .

---

(١) الأنفال : ٧٣ ، وتمامها ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

(٢) الأعراف : ٢٣ .

(٣) رواه ابن ماجه ، وذكر البوصيرى فى الزوائد أن إسناده صحيح . وانظر تعليق الشيخ القرضاوى على الحديث فى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣١٠ ، الحديث ٥١٢) .

(٤) رواه أحمد ، والترمذى وحسنه واللفظ له ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، وكذا حسنه الحافظ ، وصححه الشيخ شاكر فى تخريج المسند (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣١٠ ، الحديث ٥١٣) .

ما أحوجنا إذا ما أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا ، وغربت الشمس وتهيأنا للإفطار أن نمد أيدينا إلى الله داعين لأنفسنا وأهلينا والمسلمين فى كل مكان بالمغفرة والرحمة ، وللمضطهدين والمعذبين والمجاهدين ، بالفتح والنصر والنج ونقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » (١) .

أقول قولى هذا أيها الإخوة ، وأستغفر الله تعالى لى ولكم ، فاستغفروه يغ لكم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● الخطبة الثانية :

أما بعد فيا أيها الإخوة :

رمضان شهر الصيام والقيام ، فعلى كل مسلم - ومسلمة أيضًا - أن يتهيأ للقي تهيؤه للصيام . وينبغى للزوج أن يتيح لزوجته أن تذهب إلى المسجد لصلا التراويح، فتكسب الصلاة ، وتكسب الموعظة والدرس ، ويشاركها فى الأجر ، دو أن ينقص من أجرها شيء ، وقد كان النساء فى عصر النبى ﷺ يذهبن إلى المسج ويشهدن صلاة الجماعة ، حتى الفجر والعشاء حتى إنهن كن يدخلن مع الرجال م باب واحد ، فقال النبى ﷺ : « لو تركنا هذا الباب للنساء » (٢) . فجعلو للنساء، ولا زال يسمى (باب النساء) إلى اليوم ، بمسجد الرسول ﷺ .

علينا أن نتيح الفرصة لزوجاتنا وبناتنا للذهاب إلى صلاة التراويح ، وأن نحرص عليها فى المساجد التى تؤديها أداء حسنًا ، حتى يكون حظنا أوفر عند الله تبارك وتعالى ، ونحن على العادة إن شاء الله سنصلى التراويح فى (الجامع الكبير) كم هى عادتنا .

---

(١) رواه أبو داود ، والدارقطنى ، وحسّن إسناده ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى . وانظر تعليق الشيخ القرضاوى عليه فى كتابه (فقه الصيام : ص ١١٠) .

(٢) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة من سننه برقم (٤٦٢) عن ابن عمر ، وفيه قال نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . وفى رواية : أن راوى الحديث عمر لا ابنه ، فيكون منقطعًا . وقد أعاده أبو داود برقم (٥٧١) .

ونصيحتى للإخوة الذين يحرصون على صلاة التراويح هناك ، أن يأتوا متجمعين ما أمكن ، أى كل مجموعة من الأصدقاء والجيران يأتون فى سيارة واحدة ، نظرًا لضيق المواقف هناك ، وأن تُخلى الأماكن القريبة لمن يأتى ومعه أسرته ، وهذا من باب التعاون ، ورمضان شهر المواساة . . . شهر التعاون ، كما أنه شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا فى هذا الشهر من المقبولين . اللهم أخرجنا من هذا الشهر الكريم مغفورًا لنا . اللهم اجعل حظنا منه الرحمة والمغفرة والعتق من النار ، اللهم أعنا علىَ أن نصوم نهاره إيمانًا واحتسابًا ، وأن نقوم ليله إيمانًا واحتسابًا . اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام . اللهم رد عنا كيدهم ، وفلّ حدّهم ، وأحبط مكرهم ، وخذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ . . .رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ﴿ . .رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًا لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) . ربنا واجعلنا مقيمى الصلاة ومن ذرياتنا ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

عباد الله يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

وأقم الصلاة .

❊ ❊ ❊

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) الحشر : ١٠ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .

الذكرى السنوية للانتفاضة (١)

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

انقضى عام على ثورة المساجد ، بدأت ثورة المساجد تدخل عامها الثانى بتوفيق من الله تبارك وتعالى وتأييده .

أقول : ثورة المساجد ، فهذا هو العنوان الحقيقى لها ، ليست مجرد انتفاضة ، الانتفاضة أمر عارض يطرأ ثم يزول وهكذا كانوا يظنونها ، زوبعة فى فنجان ، أو شرارة تتطاير ثم سرعان ما تنطفىء .

ما علموا أنها إعصار فيه نار ، يدمر كل شىء بأمر الله ، كل شىء من جبروت اليهود ، وباطل اليهود ، وغطرسة اليهود .

دخلت ثورة المساجد عامها الثانى ، الثورة التى انطلقت من بيوت الله أساسًا ، وهكذا كان يطلق عليها مدة من الزمن ، ثم رئى أن يخفى هذا العنوان (ثورة المساجد) ، ليظهر عنوان آخر : ثورة الحجارة ، وأطفال الحجارة ، ولا بأس بذلك.

إنها حجارة من سجيل إن شاء الله ، حجارة من سجيل ، تحملها طير أبابيل ، هم أشبال غزة والقدس والخليل ، تحمل هذه الحجارة لترمى أعداء الله وسلالة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ، لتجعل كيدهم فى تضليل وتجعلهم بإذن الله كعصف مأكول .

---

(١) فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٨٧م انطلقت الانتفاضة المباركة من مخيم (جباليا) فى قطاع غزة ، بقيادة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) . وكانت الشرارة الأولى هى حادثة (المقطورة) التى راح ضحيتها أربعة من أبناء فلسطين انتقامًا لطعن مستوطن يهودى على يد أحد الشباب المسلم فى قطاع غزة قبلها بيومين ، واقرأ قصة الانتقاضة ودوافعها وأهدافها وسماتها والظروف التى أحاطت بانطلاقها ، فى كتاب (الانتفاضة المباركة ومستقبلها) للأستاذ جهاد محمد جهاد .

(الحجارة) هذا السلاح الجديد ، أصبح شيئًا مرعبًا مخيفًا . انظروا - أيها الإخوة- كيف يتحول الشيء البسيط إلى سلاح مرعب مخيف !! إن الدبابات ، وإن المدافع وإن البنادق وإن الذخائر الحية ، وإن الأسلحة التى تشترى بالملايين لا تغنى شيئًا إذا لم تجد المجاهد الذى يحسن استعمالها ، ويحملها بقلب لا يهاب الموت ، فهو يراه عين الحياة ما دام فى سبيل الله ، وهو ينشد مع ذلك المجاهد القديم :

ولست أبالى حين أقتل مسلـــــمًا   على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشـــــأ   يبارك على أوصال شلـــو ممـــزع

فى سنة (١٩٦٧) دخلوا بأسلحة تسد عين الشمس ، أسلحة اشتريت بأقوات الشعب ، وعصارة الأرزاق ، ودفع فيها ما دفع من ملايين ، بل بلايين ولكنها لم تجد الجندى المؤمن الذى يموت دونها ، بل وجدت من يترك دبابته ويولى الأدبار ، ويقول : الفرار الفرار ، أنج سعد فقد هلك سعيد ، اذهب بنفسك ، لم يكلف خاطره أن يشعل فيها عود ثقاب ، فلا لى ولا لأعدائى ، ولكن إذا وجد الخذلان ، أصبح كل شيء ضدك ، حتى السلاح الذى فى يدك .

الأسلحة لا تقاتل بنفسها ، وكما قال الشاعر العربى قديمًا :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا   إذا لم يكن فوق الكرام كـــرام

ماذا تغنى الخيل ، وماذا تغنى الرماح ؟ وماذا يغنى السلاح ؟ إذا لم يكن فوق الفرس فارس ، إذا لم يعلُ ظهر الخيل خيّال .

الأسلحة لا تغنى وحدها ، لا بد من المقاتل المؤمن ، صاحب الرسالة ، الذى يقاتل عن هدف . ولهذا حينما وجد هذا المقاتل ، ولو كان صبيًا يافعًا فى ميعة الصبا ، وزهرة العمر ، يجد من الحصى سلاحًا ، يجد من الحجارة - التى عن يمينه وشماله وطالما مشى عليها ووطئها بقدميه - سلاحًا يرمى بها عدو الله وعدوه ، فإذا بهذا العدو يستخذى ، ويختبيء ويخاف ويحتار : ماذا يصنع أمام هذا السلاح الذى لا يفل ؟! وصدق الله العظيم حينما قال فى حصيات رمى بها النبى ﷺ يوم بدر فى وجوه المشركين . . . حفنة من تراب رمى بها فى تلك الوجوه العكرة وقال:

« شاهت الوجوه » ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) ، فما بقى مشرك إلا دخل هذا التراب عينيه وأنفه وفمه ، ومضى لا يلوى على شيء ، قال الله تعالى فى ذلك : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى . . . ﴾ (٢) .

الله رمى برمية رسوله ، والله رمى اليهود برمية هؤلاء الغلمان . . . الصبية اليافعين ، رمى الله اليهود بهذه الحجارة .

المهم إذن هو الإنسان المؤمن ، الإنسان الذى يقاتل لهدف ، الذى يقف على أرض صلبة ، لا يتزلزل ولا يتزعزع ، الإنسان الذى يرى الجنة أمامه ، ويجعل رضا الله مرامه ، هذا هو الإنسان الذى نريده .

نريد لهذه المرحلة هذا الإنسان ، وهذا ما صنعته ثورة المساجد . ربت الأطفال على حصير المساجد ، ربتهم على القرآن ، على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وضعت أمامهم نماذج الصحابة والتابعين ، صورة الأبطال الفاتحين ، صورة أبى عبيدة، وخالد ، وعمرو ، وعماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى ، وضعت أمامهم صورة السابقين واللاحقين من الشهداء الأبرار ، ربت هؤلاء على هذه المعانى الحية ، فكانت منهم الأيدى المتوضئة ، كما سماها أديب العربية والإسلام (مصطفى صادق الرافعى) منذ أكثر من نصف قرن ، قصة الأيدى المتوضئة التى كانت تعمل من أجل فلسطين وقضية فلسطين .

نريد الأيدى المتوضئة ، الأيدى الطاهرة النظيفة ، والقلوب الطاهرة النظيفة وراء هذه الأيدى .

ثورة المساجد صنعت هذا ، هيأت هذه الفئة ، فئة الإنقاذ ، الطائفة المنصورة المختارة ، التى تنبأ بها رسول الله ﷺ وبشر بها منذ أربعة عشر قرنًا ، فيما رواه أحمد عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لأواء -

---

(١) القمر : ٤٥ .

(٢) الأنفال : ١٧ .

أى من شدة وأذى - حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . قيل : يا رسول الله ، وأين هم ، قال : ببيت المقدس ، وأكناف بيت المقدس » [1] .

هذه الفئة المؤمنة هى معقد الأمل ، هى موطن الرجاء ، هى التى تعلق عليها الآمال فى المستقبل لتحرير فلسطين ، فإن فلسطين لا تحرر إلا بهؤلاء .

المعركة مستمرة ، وهى معركة شرسة ومعركة طويلة الأمد ، هذه طبيعتها ، إنها صراع بين عقيدتين ، وصراع بين حضارتين .

إنه الصراع بين الإسلام واليهودية ، صراع بين الحضارة الإسلامية الربانية الأخلاقية الإنسانية ، وحضارة العجل ... العجل الذهبى ، حضارة أمة تعبد الذهب ، ولا تبالى فى سبيله بأى شىء .

ولهذا نرى وجودها فى أرضنا وفى منطقتنا خطرًا ، خطرًا علينا ، خطرًا على عقائدنا ، خطرًا على قيمنا ، خطرًا على تقاليدنا ، خطرًا على وحدتنا ، خطرًا على استقلالنا ، خطرًا على اقتصادنا ، إنها الشوكة التى فى جنوبنا ، إنها الخنجر فى ظهورنا ، إنها الداء الوبيل الذى غرس فينا .

لا تستطيع هذه الأمة أن تتوحد وهذه موجودة فيما بيننا ، هى التى تنشر الوباء ، تنشر السموم البيضاء ، تنشر المخدرات ، تنشر السموم بشتى ألوانها .. الدعارة الظاهرة والخفية ، إنا دولة سوء ، إنها بؤرة فساد وإفساد .

ولهذا لا نتصور أن يوجد بيننا وبينها سلام ... أى سلام بين لص يدخل الدار ويغتصبها من صاحبها ، وبين صاحب الدار ؟! .

يقولون : الأرض مقابل السلام ، ما معنى هذا ؟! أنا لست محترفًا للسياسة ، ولكنى أفهم فى اللغة ، فما معنى الأرض مقابل السلام ؟ أرض من ؟ أرضنا نحن مقابل سلامهم ؟! يعطوننا أرضنا مقابل أن يعيشوا هم على أرضنا أيضاً فى سلام ؟!

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه فى المسند (٥:٢٦٩) كما أورده الحافظ نور الدين الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ : ٢٨٨) وقال : رواه عبد الله (ابن الإمام أحمد) وجادة عن خط أبيه ، والطبرانى ، ورجاله ثقات وفيه : « إلا من جابههم » ولعلها غلط ناسخ أو طابع .

الأرض التى اغتصبوها قديمًا ، نتركها لهم مقابل أن يتركوا لنا جزءًا من أرضنا ؟! لا أستطيع أن أفهم ، لا أفهم شيئًا .

لا أفهم أن العدوان الجديد يضفى الشرعية على العدوان القديم ، العدوان عدوان مهما طال زمنه .

إن فلسطين كلها أرض عربية إسلامية ، قلت وسأظل أقول : إنها ملك للفلسطينيين، وملك للعرب وملك للمسلمين ؛ وليست ملكًا لهذا الجيل من المسلمين، بل ملك الأجيال الإسلامية جميعًا ، ولا يملك أحد أن يبيع منها شبرًا .

لو أن الفلسطينيين تنازلوا عنها ما وسعنا نحن أن نتنازل عنها . إنها أرض المسجد الأقصى ، إنها أرض النبوات ، الأرض التى وصفها القرآن : بأن الله بارك فيها للعالمين (١) ، أرض الإسراء والمعراج ، فيها أولى القبلتين وثالث المسجدين العظيمين، هذه الأرض لا نتنازل عن شبر منها .

لا أستطيع أن أقول : إن (يافا) و(حيفا) و(عكا) و(اللد) و(الرملة) وسائر هذه البلاد ليست من فلسطين .

لقد قدر لجيلى أن يعيشوا هذه المأساة من وقت بعيد ، لعل كثيرًا من الشباب الذين يسمعوننى اليوم ، لم يعايشوا ما عايشت ولم يعاصروا ما عاصرت .

لقد شهدنا هذه المدن . . عرائس البحر ، تسقط واحدة بعد أخرى ، وكأن عضوًا من أعضائنا يسقط ، وكأن قطعة من قلوبنا تقطع ، وكنا نقول : لا بد من أن تعود ، لا بد أن ترجع ، ولا يمكن أن نتصور فلسطين بدون (حيفا) أو(يافا) أو (عكا) أو هذه البلاد .

هذه الأرض أرضنا ، عاش عليها أباؤنا وأجدادنا ، ارتفعت فيها المآذن ، ودوت بـ (لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) ، ودفن فيها . . فى ترابها . . فى ثراها المؤمنون ، عاشوا عليها أحياء ، ودفنوا فى ثراها أمواتًا .

هذه أرضنا لا بد أن نقاتل عنها .

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، [الأنبياء: ٧١] .

ثورة المساجد مستمرة ، حتى تحرر فلسطين . . كل فلسطين ، يمكن للساسة أن يلعبوا بما شاؤوا كرًا وفرًا ، يأخذون بعض ما يأخذون ، لا أريد أن أتهم أحدًا بخيانة ، فللناس أن يجتهدوا ، ولكنى أقول من منطلق دينى ومنطلق إسلامى : إن الأرض التى عاش عليها الإسلام لا يمكن التسليم بذهابها إلى الأبد ، لا بد أن تعود .

ليكرّوا ويفرّوا كما شاؤوا فى مجال السياسة ، ومن حق الفلسطينيين أن تكون لهم دولة ، وأن تقوم لهم دولة ، وهذا هو الحد الأدنى ، ولكن على أن يكون ذلك مرحلة من مراحل الكفاح ، مرحلة من مراحل الجهاد ، ليس هو نهاية المطاف. لا . . لا يمكن أن يكون ذلك نهاية المطاف ، إن المعركة مستمرة .

والعجيب أنه رغم التساهلات ، ورغم التنازلات ، فإن الغطرسة اليهودية الصهيونية ترفض ذلك كله ، تقول : لا ، لا نعطى شيئًا ، ليس أمامكم إلا الخروج من هذه الأرض ، اذهبوا حيث شئتم ، ابحثوا عن وطن بديل ، هذا ما يريده هؤلاء. يرضى القتيل وليس يرضى القاتل ! إن الأمر جد إذن لا بد أن نأخذ حقنا بأيدينا .

الحجارة وثورة الحجارة ، وأطفال الحجارة ستستمر ، ستفرض عليهم - إن شاء الله - أن يتنازلوا هم . لا ، لا أقول : يتنازلوا ، ستفرض أن يعترفوا بما لأهل فلسطين من حق .

إن هذه القضية التى طالت وطالت منذ كنت طالبًا فى القسم الابتدائى بالأزهر ، وأنا أتحدث عن فلسطين اتحدث عنها نثرًا وانظم فيها شعرًا منذ كنا طلابًا ، كنا نقود المظاهرات ، ونسير المسيرات فى كل عام من أجل فلسطين ، فى يوم (٢ نوفمبر). . فى ذكرى وعد بلفور ، ونتحدث فى ذكرى الإسراء والمعراج فى كل عام عن المسجد الأقصى ، ولا زال الأمر مستمرًا .

القضية مستمرة ، المعركة مستعرة الأوار ، ولا بد لها من وقود يقدم ، الأبناء والأشبال ، الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ، يقدمون الشهداء ، يقدمون الضحايا .

الشباب اليافع ، الفتاة المحجبة ، الأم الشجاعة الصبور ، الشيخ الفانى الذى لايزال قلبه شابًا ، هؤلاء هم الذين نراهم وراء هذه الثورة المؤمنة .

ضُربوا بالرصاص البلاستيكى ، وضربوا بغازات الأعصاب التى تفعل فعلها فى الأبدان والأنفس ، ودقت عظامهم بأعقاب البنادق ، ودفن مَنْ دفن منهم أحياء ، وجرفتهم الجرافات تحت التراب ، على أن يفت ذلك فى أعضادهم ، أن يدخل الرعب على قلوبهم ، ولكن هؤلاء الشباب لن يخافوا ، لأن معهم الناصر الذى لا يهزم ، القوة التى لا تغلب ، معهم الله تبارك وتعالى .

يد الله أعلى من أيدى أولئك ، وقدرة الله فوق قدرتهم ﴿ ... وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ، وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ... ﴾ (١) .

إن المعركة بيننا وبين اليهود قديمة جديدة . قديمة منذ عهد بنى قينقاع ، وبنى النضير، وبنى قريظة ، الذين عاهدهم النبى ﷺ فغدروا به ، وانضموا إلى أعدائه، فكان جزاؤهم ما عرفه التاريخ .

هؤلاء اليهود ضمّهم الإسلام فى رحابه ، أدخلهم تحت جناحه ، فتح لهم صدره الحنون ، رفضتهم الدنيا ولفظتهم لفظ النواة ، وشردهم العالم من شرق وغرب ، فلم يجدوا كهفًا يأوون إليه إلا دار الإسلام ، لم يستظلوا إلا بظل المسلمين ، ثم نجدهم تغلب عليهم طبيعتهم الغادرة ، فينقلبون على من آواهم وحماهم ، ويأبون إلا أن يقيموا فى أرض الإسلام وطنًا لهم فى فلسطين ، عرضت عليهم أوطان أخرى بديلة ، فأبوا إلا هذه الأرض ، والأمر كما قال المجاهد الكبير الحاج (أمين الحسينى) رحمه الله : إن فلسطين ليست وطنًا بغير شعب ، حتى تستقبل شعبًا بغير وطن ! فلسطين لها شعبها وأهلها .

هؤلاء انقلبوا على المسلمين ، يريدون أن يخرجوا أهل فلسطين ، وقد فعلوا إلى حين وإلى حد ما ، استطاعوا أن يخرجوا أهل فلسطين من ديارهم ، وقد أخرجوا منهم مَنْ أخرجوا ، وأراد أن يهودوا الباقين ، الذين يعيشون فى قلب ما سموه (إسرائيل) ، والذين سمّوهم (عرب إسرائيل) .

---

(١) الحشر : ٢ .

أرادوا أن يهودوهم فكرًا وشعورًا ، وثقافة وسلوكًا ، إن لم يقدروا على تهويدهم ديانة وعقيدة . وفعلاً فى وقت من الأوقات كاد هؤلاء يذوبون فى المجتمع الإسرائيلى، لم تكد تعرف لهم هوية ، إذا دخلت فى الأرض المحتلة من سنة (١٩٤٨) لا تكاد تعرف (محمدًا) من (حاييم) ، ولا تكاد تعرف (فاطمة) من (راشيل) لا تكاد تعرف المسلم من اليهودى ، الكل قد ساروا فى موجة هذه الحضارة الزائفة الوافدة .

كادوا يقتلعون الهوية الإسلامية من الشعب الفلسطينى الذى يعيش فى ظل تلك الدولة الملعونة ، ولكن جاءت الصحوة الإسلامية فردّت إلى هؤلاء الروح ، وسرت فى الجسد الميت حياة جديدة ، انتبه هؤلاء إلى أنفسهم ، بدأ المسلم يعرف أنه مسلم، بدأت المسلمة تشعر بانتمائها ونسبها .

بدأ فى هذا المجتمع شىء جديد قلب الموازين ، قلب الحسابات والمعادلات ، وكان ثمرة هذه الصحوة : هذه الانتفاضة ، أو هذه الثورة ، أو هذه الحركة ، حركة المقاومة الإسلامية ، كان هذا كله نتيجة وثمرة للصحوة الإسلامية . . الصحوة الإسلامية هى صانعة هذا التيار الجديد ، التيار الذى أقلق إسرائيل ، ومن وراء إسرائيل .

لقد فرضت هذه الفئة المؤمنة الجديدة نفسها على التاريخ ، بعد أن كاد التاريخ ينساها ، بعد أن أصبحت قضية فلسطين قضية لاجئين ، بعد أن أصبح الأمر ميئوسًا منه ، فلا السياسة العربية قادرة على شىء ، ولا المنظمات والهيئات الفدائية قادرة على شىء ، استرخى الجميع ، واستناموا ، وأصبحت حركة شبه يائسة ، ماذا نصنع؟

أعادت هذه الصحوة ، وهذه الانتفاضة ، وهذه الثورة المؤمنة الربانية الجديدة ، أعادت الروح إلى الجسد الهامد . بدأ العالم كله يتحدث عن الانتفاضة . . عن الثورة . . عن صبية الحجارة .

إننا نحن أبناء هذه الأمة ، لا يحركنا شىء كما تحركنا كلمة الإيمان ، لا ينهضنا شىء كما تنهضنا العقيدة ، لا تفعل فينا كلمة ، كما تفعل كلمة (لا إله إلا الله والله أكبر) .

فى سنة (١٩٦٧) حينما كان شعارهم : بر . . بحر . . جو ، لم ينتصروا فى بر ولا بحر ولا جو . وفى سنة (١٩٧٣م) أو (١٣٩٣ هـ) على الحقيقة ، فأنا أفضل أن أسميها حرب العاشر من رمضان ، لا حرب السادس من أكتوبر .

فى ذلك الوقت كان الشعار : الله أكبر ، الله أكبر فعلت فعلها .

قُد هذه الأمة بالإيمان تصنع الأعاجيب ، ارفع أمامها المصحف وقل : يا رياح الجنة هبى ، ويا خيل الله اركبى ، ويا كتائب الله سيرى ، ثم انظر ماذا ستصنع هذه الأمة !

لقد طالما عزفوا على معزوفات : القومية ، والاشتراكية ، والديمقراطية ، والتقدمية ، فلم تحرك هذه ساكنًا ، ولم تنبه من الأمة غافلاً ، ولكن حينما حركت هذه الأمة بالإيمان . . بالإسلام . . بالتوحيد . . بـ (لا إله الا الله) عادت إليها الروح .

هذه الحقيقة أكدها التاريخ ، من يقرأ التاريخ فى مده وجزره ، فى أيام النصر وأيام الهزيمة ، فى معارك التاريخ القريبة والبعيدة ، يجد أن الإيمان هو الذى يحرك هذه الأمة .

الإيمان . . الإسلام . . القرآن . . أحلام الجنة ، هى التى تحرك الأمة ، هذا ثابت بيقين ، ونحن محتاجون إليه دائمًا ، ولكننا أشد ما نحتاج إليه فى وقتنا هذا وفى قضية فلسطين خاصة . . قضية فلسطين لا يمكن أن تنتصر إلا إذا أصبحت قضية إسلامية ذلك لأن عدونا يقاتلنا باسم الدين . اليهود تجمعوا فى فلسطين من شرق وغرب ، ومن أمريكا ومن روسيا ، من بلاد العرب والعجم ، ومن هنا ومن هناك، ما الذى جمعهم من شتات ؟ ما الذى جاء بهم من الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ؟ إنها العقيدة اليهودية ، إنها الأحلام التوراتية ، إنها التعاليم التلمودية ، إنها اللغة العبرية ، هذا هو الذى جمعهم .

لقد كانوا فى بلادهم يعيشون آمنين ، بل كان منهم من يملك الملايين ، ومن لهم نفوذ يستطيعون أن يؤثروا به على السلاطين ، ولكنهم تركوا هذا كله ، وجاءوا من أجل أن يقيموا دولة . . . دولة لها اسم دينى تاريخى ، سمى باسم نبيهم الكبير : إسرائيل : . . . يعقوب عليه السلام . . دولة تقدس تعاليمهم ، تمنع العمل يوم السبت منعًا تامًا . . دولة فيها أحزاب دينية متطرفة ، وغير الدينيين منهم يخضعون

للدين أيضًا ، وجاءوا بدوافع دينية ، ويقاتلون بدوافع دينية ، هكذا كانوا يقولون ، قال موشى ديان : إن جيش إسرائيل ليست مهمته حماية المؤسسات ، إنما مهمته حماية المقدسات .

كلهم يهود ، وأنا لا أستطيع أن أفرق بين يهودى وصهيونى ، كل يهودى صهيونى، لأن أحلام التوراة وتعاليم التلمود ، تجعل كل يهودى صهيونيًا . هذا هو الأصل والنادر لا حكم له ، أنا أتكلم عن التيار العام

إن قضية فلسطين يجب أن تكون إسلامية ، إذا قاتلونا باسم اليهودية نقاتلهم باسم الإسلام ، إذا رفعوا التوراة رفعنا نحن القرآن ، إذا قالوا : التلمود قلنا : البخارى ومسلم ، إذا قالوا : الهيكل قلنا : المسجد الأقصى ، إذا قالوا : السبت قلنا : الجمعة ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، وحديدنا أقوى من حديدهم .

نحن أصحاب الدين الحق ، ونحن أصحاب الأرض وأهل الدار ، ندافع عن مقدساتنا ، وندافع عن ذاتنا ، وندافع عن أرضنا وعرضنا وأهلنا ، مهما يكن لدينا من ضعف مادى ، فإن الحق الذى معنا يقوينا ، وهذا ما فقهه أولئك الشباب ، الشباب الذين انطلقوا من المساجد ، هذا ما فهمته هذه الثورة الربانية الجديدة ، الثورة التى منطلقها المساجد ، وراياتها المصاحف ، وشعاراتها (لا إله إلا الله والله أكبر) .

إننا ننتظر لهذه الثورة النصر بإذن الله ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ . . . ﴾ [(١)] إن الذى يقاتل لا يسأل : متى هو ؟ ولكن يقول : ﴿ . . . عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [(٢)] ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [(٣)] ﴿ . . . وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [(٤)] .

بشرنا النبى ﷺ أن المعركة مستمرة مع اليهود ، حتى ينتصر عليهم المسلمون ، حتى يقول الحجر والشجر : « يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله » [(٥)] . وإنا لهذا اليوم ولهذه المعركة لمنتظرون .

---

(١) ، (٢) الإسراء : ٥١ . (٣) البقرة : ٢١٤ . (٤) الحج : ٤٠ - ٤١ .

(٥) ذكره فى صحيح الجامع الصغير برقم (٧٤٢٧) ونصه كاملاً : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل =

اللهم انصرنا على أعدائك وأعدائنا وأعداء العرب والمسلمين ، اللهم آمين ، أُدعو ربكم يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

إذا كانت ثورة المساجد تؤدى دورها ، فعلينا نحن المسلمين أن نؤدى دورنا ، أن نكون معهم ، أن نشد أزرهم ماديًا وأدبيًا ، وأن ندعو لهم فى صلواتنا ، والنصر آت لا ريب فيه .

إن الله سبحانه وتعالى الذى أيد إخواننا فى أفغانستان ، حتى أجبروا الروس على أن يجلسوا معهم وجهًا لوجه على مائدة واحدة ، سيجبر اليهود على أن ينسحبوا من أرض المسلمين بالسيف .. بالجهاد ، الجهاد الخالص المخلص .

علينا أن نشد أزر هؤلاء ،وأن نمد إليهم يد المعونة ﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

اللهم انصرنا على اليهود ، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) اللهم آمين .

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤) .

= المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم ، يا عبد الله هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود».

(١) يوسف : ٢١ .
(٢) آل عمران : ١٤٧ .
(٣) الحشر : ١٠ .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .

اتفاقية غزة وأريحا [1]
من مأساة البوسنة إلى مأساة فلسطين

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

قُدّر علينا أن نعيش حتى نرى الإسلام يُنَاوشَ بالسهام من كل جانب من الجوانب، وتصب عليه سياط العذاب من كل فئة من الفئات . تفرق الكفر شيعًا وأحزابًا ، ولكنهم اجتمعوا على هذا الدين وعلى أهله ، فالكفر ملة واحدة ، والله تعالى يقول : ﴿ ... وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[2] ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴾ [3] .

فلا عجب أن نرى فى هذا العصر ، كل فئات الشرك والكفر ، تتآمر على المسلمين ، تريد أن تقتلع جذورهم ، وأن تهدم عليهم بنيانهم ، وأن تأخذهم من دينهم وعقيدتهم .

اجتمع على ذلك اليهود والذين أشركوا والصليبيون الجدد ، هذا ما نراه على خريطة الحياة فى عصرنا .

الصليبية الجديدة فى أوربا نراها فى أولئك الصربيين . هؤلاء الوحوش المفترسون، الذين حدّوا أنيابهم ليأكلوا المستضعفين من المسلمين ... أهل البوسنة والهرسك .

أرادوا أن يقضوا على هؤلاء مرة واحدة ، ولكن الله سبحانه وتعالى نفخ الروح فى هذا الطين ... هذا الفتات ... هؤلاء الذين بقوا من حكم الشيوعية نحو نصف قرن .. هؤلاء الذين كانوا تحت وطأة الاستبداد والتسلط الاستبدادى الشيوعى الأحمر ، تحت حكم (تيتو) ..هؤلاء الذين عزلوا عن الإسلام ، فلم يكادوا

---

(١) وقعت الاتفاقية فى ١٣/٩/١٩٩٣ بواشنطن .

(٢) الجاثية : ١٩ .

(٣) الأنفال : ٧٣ .

يعرفوا عنه شيئًا إلا مجرد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حتى الأسماء لم تعد إسلامية ، حتى الختان ، لم يكن الكثيرون منهم يختنون أبناءهم الذكور (ألف باء الإسلام) لم يكونوا يعرفونها ، عزلوا عن جسم الأمة الإسلامية ، وجهّلوا بالإسلام ، ثم شاء الله أن تنهار الشيوعية فى بلادها الأم .

الشيوعية التى كانت تحلم بأن تغزو العالم ، وغزت أفغانستان لتنطلق منها إلى بلاد المسلمين ، وتصل هنا إلى الخليج وإلى ما بعد الخليج ، شاء الله أن تنهار الشيوعية ، وتزول دولتها ، ويذهب ريحها .

وكان مما سلطت عليه الشيوعية ما كان يسمى (يوغسلافيا) وانقسمت يوغسلافيا، انقسم الكروات وأقاموا لهم دولة اسمها (كرواتيا) ولما أراد المسلمون فى (البوسنة والهرسك) أن يكون لهم ما للكروات ، وصوّت لذلك ، ونالوا أغلبية باسم الديمقراطية التى يتغنى بها الغرب ، واعترف الغربيون أنفسهم واعترفت الأمم المتحدة بالدولة الجديدة ، ولكن كيف تقوم دولة فيها رائحة الإسلام ، فيها بقايا الإسلام ، تحمل عنوان إسلام ما فى أوربا ؟! هذا ما جن له جنون الغرب كله .

وتآمر هؤلاء وحملوا الصليب من جديد ، ليعلنوها حربًا على الإسلام ، حربًا على المسلمين . كانوا يظنون أن هؤلاء سيسقطون بعد أُسبوع أو أسبوعين ، هذا ما قدر لـ (سراييفو) أنها لن تحتمل أكثر من أسبوعين أو ثلاثة .

ولكن هؤاء الذين لم يكونوا يعرفون من الإسلام إلا القليل ، والأقل من القليل، أيقظتهم الأحداث الهائلة ، والقوارع النازلة فجأة ، ليتعرفوا على الإسلام .

حينما وجدوا الناس يقاتلونهم من أجل الإسلام ، يقطّعون رقابهم من أجل الإسلام ، يهدمون عليهم بيوتهم من أجل الإسلام ، يغتصبون أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم من أجل أنهن مسلمات ، يخربون عليهم مساجدهم ، يدمرون عليهم مدارسهم ، يحرقون مزارعهم وحقولهم ، لا لذنب إلا لأنهم مسلمون .

لهذا بحثوا عن هذا الإسلام الذى لا يعرفه ، وأرادوا أن يتشبثوا به وبدأوا يحفّظون أبناءهم سورًا من القرآن ، يحفظّونهم سورة (الفاتحة) وسورة (الإخلاص) وسورة (العصر) بعد أن كانوا لا يحفظون إلا نشيد :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيها الرفيق تيتـــــو لا نحلف إلا باسمك

أصبحت أناشيدهم الجديدة : سور القرآن ، وقصار السور من كتاب الله . هؤلاء استطاعوا أن يصمدوا ! وما الذى جعلهم يصمدون ويستمرون ويقاتلون هذه القوة العاتية . . الجيش الصربى الذى يعتبر رابع الجيوش فى أوربا ، وهم لا يملكون شيئًا يذكر من الأسلحة؟!

وحرّمت هيئة الأمم المتحدة وحرّم مجلس الأمن الدولى عليهم وصول السلاح . حظر بيع السلاح ، حتى لا يستمر القتال ، ولا يكثر سفك الدماء ! يعنى هذا أنهم أرادوا أن يكون القتل من جانب واحد فحسب ! أى أرادوا أن يقتل المسلمون بسرعة، وتنتهى القضية .

كيف يُمكّن طرف واحد من كل الأسلحة ، والطرف الآخر يحظر عليه أدنى سلاح ؟

ولكن هؤلاء المسلمين الجدد ، بما نفخ فيهم من روح الإيمان الجديد ، استطاعوا أن يصنعوا ذخائر للأسلحة بأيديهم ، واستطاعوا أن يعيشوا رغم الحصار المضروب عليهم . . يعيشوا بأقل القليل ، ويزرعوا الخضروات فى البيوت التى يعيشون فيها حتى يأكلوا ، ويأكلون القليل ، ويكفيهم القليل ، ويؤثر بعضهم على بعض ﴿ . . . وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ﴾ [1] .

هؤلاء ما الذى جعلهم يصمدون ، ويثبتون ، ويقفون كالطود الشامخ ستة عشر شهرًا ؟ إنه الإسلام الجديد ، إنه الإيمان الذى خالطت بشاشته قلوبهم ، وسرى فيهم مسرى الماء فى العود ، أنشأهم شيئًا آخر .

ولذلك يقول الكثير منهم ممن لقيناهم : إن هذه نعمة من الله علينا ، هذه المحنة فى طيها منحة ، قد كان يمكن أن نعيش ، ولكنا سنعيش غير مسلمين ، اليوم يموت منا من يموت ولكن من يحيا منا سيكون مسلمًا ، ليس المهم أن نعيش ولو بغير دين، إنما المهم أن نعيش مؤمنين .

هذا منطق هؤلاء أيها الإخوة .

---

(١) الحشر : ٩ .

ومن هنا نقول : إنه رغم قساوة الظروف المحيطة بإخواننا ، ورغم غلظ المحنة التى يمرون بها ، فإن من وراء هذه المحنة منحًا ، ورب ضارة نافعة ، ومن الشر ما يأتى بالخير ، والخير قادم إن شاء الله لقد أرادوا أن يقتلعوا الإسلام من شرق أوربا ، وألا تقوم للإسلام قائمة ، ولا يبقوا فيه من باقية ، ولكنهم باؤوا بالإخفاق .

وبقى الإسلام ، وسيظل الإسلام ، وسيخرج من ضئضىء هؤلاء من يرفع راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

هذا ما صنعته الصليبية الجديدة . . . الصليبية الغربية ، فى عصر يتنادى الناس فيه بحقوق الإنسان . . بميثاق الأمم المتحدة . . بحق الشعوب فى تقرير المصير ، وكأنهم يقولون : إن الشعوب كلها لها حقها فى تقرير المصير ، إلا الشعوب الإسلامية . . إلا أن يكون الشعب مسلمًا .

ولكن هؤلاء ليسوا هم الذين يملكون هذا الكون ، الذى يملك هذا الكون ربه عز وجل ، إن الذى هدم الاتحاد السوفيتى يمكن أن يهدم هؤلاء ، والله لن يبقى الظلم يتحكم فى العباد ، ويذل الرقاب ، إن دولة الباطل ساعة . ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١) ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . ﴾ (٢) ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ . . . ﴾ (٣) . صدق الله العظيم .

هذا ما صنعته الصليبية فى أوربا .

ونجد على الجانب الآخر فى الشرق : الوثنية المتعصبة . . الهندوسية التى تذبح المسلمين بغير حساب ، وتهدم مساجدهم ، وتهدم وجودهم ، هذا ما نسمعه ونقرأه ونراه ، حتى أن أحد علماء المسلمين الكبار قال : كانت تعد لنا مجزرة هائلة . والمسلمون فى الهند ليسوا شيئًا قليلاً ، إنهم ما يقرب من مائتى مليون ، يحاولون أن يقللوا العدد فيقولوا : المسلمون فى الهند مائة وخمسون مليونًا إنما هم حوالى مائتى

---

(١) الإسراء : ٨١ . (٢) الأنبياء : ١٨ . (٣) الرعد : ١٧ .

مليون أو يزيدون ، أى ما يقارب العالم العربى كله - قال لى هذا العالم : ولكن الأحداث التى حدثت فى (بومبى) جعلت هؤلاء يعيدون حساباتهم من جديد .

لا بد من الوقوف فى وجه الباطل ، لا بد من الصمود أمام الطغيان الظالم ، لا يجوز للمسلم أن يستسلم ويلقى السلاح مهما تكن قوة أعدائه .

وثالثة الأثافى أيها الإخوة : هو ما يجرى فى قضية القضايا ، فى قضية المسلمين الأولى . . قضية فلسطين . . أرض النبوات . . أرض المسجد الأقصى . . أرض أولى القبلتين . . مسرى رسول الله ﷺ .

ها نحن نرى اليوم فصلاً جديدًا من فصول هذه الرواية . لقد عايشنا قضية فلسطين منذ وعينا على هذه الدنيا ، منذ بدأنا نعى أن هناك عالمًا إسلامياً ، وأن هناك مآسٍ وقضايا له ، فكانت قضية فلسطين هى القضية الأولى التى تشغلنا ، تشغل الفكر ، وتشغل القلب ، وتشغل اللسان ، فى كل سنة . . فى ذكرى ما سمى وعد (بلفور) . . فى (٢ نوفمبر) بلفور وزير الخارجية البريطانى الذى وعد اليهود أيام الحرب العالمية الأولى بوطن قومى لهم ، وقد علق على ذلك من قال : من لا يملك وعد من لا يستحق ! وعلق عليه مفتى فلسطين الأكبر الحاج (أمين الحسينى) رحمه الله بقوله : إن فلسطين ليست وطنًا بغير شعب ، حتى تستقبل شعبًا بغير وطن ! .

ولكن جرت الأحداث ، وصنعت بريطانيا ما صنعت خلال الأعوام الثلاثين التى حكمت فيها فلسطين ، وهيأت لأبناء (الصهيون) الفرصة ليستوطنوا ويهاجروا من أوربا الشرقية وغيرها هجرات جماعية وفردية ، وقامت العصابات الصهيونية بأعمالها الإرهابية ، إلى أن حدث ما حدث فى سنة (١٩٤٨ م) .

قبل ذلك كان هناك قرار التقسيم الذى رفضه الفلسطينيون ، ورفضه العرب بالإجماع ، كيف يقسم بلد بين أهله وبين الغرباء عنه ؟! لا يستطيع الإنسان أن يقسّم داره بينه وبين لص جاء واقتحم عليه داره ، هل يستطيع الإنسان أن يقسم زوجته بينه وبين عادٍ عليه ، يريد أن يهتك عرضه ، وينتهك حرمته ؟!

كان التقسيم مرفوضًا ، ومع هذا حدث ما هو شر من التقسيم ، وقامت دولة (إسرائيل) ، واعترفت بها أمريكا ، ثم اعترفت بها روسيا ، وقال الجميع : إن اسرائيل خلقت لتبقى .

ودخلت الجيوش العربية السبعة إلى فلسطين ، وبالخيانات والتآمر والأسلحة الفاسدة التى كانت تقاتل بها بعض الجيوش ، انهزمت الجيوش السبعة أمام العصابات .

كنا نقول عن إسرائيل ، وكانت أجهزة إعلامنا المقروءة والمسموعة - لم تكن هناك أجهزة مرئية فى ذلك الوقت - الصحافة ومثلها الإذاعة كانت إذا ذكرت إسرائيل تقول : إسرائيل (المزعومة) بين قوسين (المزعومة) وظللنا سنوات نقول عن إسرائيل : (المزعومة) .

ثم خجلنا من أنفسنا حينما كانت هذه المزعومة تركل هذه الجبهة وتصفع هذه الجبهة ، وتعتدى هنا وهناك ، ولا يملك العرب المعتدى عليهم إلا أن يشجبوا وينكروا هذا العدوان ، ويحتجوا لدى مجلس الأمن وهيئة الأمم ، وهناك آلاف الاحتجاجات والاستنكارات .

بعد هذا خجلنا من أنفسنا أن نقول عن إسرائيل : (المزعومة) بعد أن أوشكنا أن نكون نحن : المزعومين ! .

وظل هذا الوهم إلى أن هيأ الله الفرصة لجهاد فلسطينى يقوم على أكتاف أبناء فلسطين أنفسهم ؛ وقامت (فتح) وقامت فصائل مختلفة ، تجاهد وتنادى : ثورة حتى النصر . إلى أن قامت حركة المقاومة الإسلامية . . الجهاد باسم الإسلام . . ثورة المساجد ، الثورة التى انطلقت من بيوت الله ، وكانت صيحاتها من فوق المآذن . . من ميكروفونات المآذن : حى على الجهاد . . حى على الجهاد ، راياتها : المصاحف . . القرآن الكريم مرفوعًا ، شعاراتها : لا إله إلا الله . . والله أكبر ، أناشيد أبنائها وأشبالها :

خيبر خيبـــر يا يهـــــود   جيش محمد سوف يعود

هذه الثورة المسجدية الإيمانية قلبت الموازين وجعلت هؤلاء يحسبون ألف حساب لهذه الروح الجديدة ، فما كانوا يخافون كثيرًا أن يكون الجهاد باسم (الوطنية) أو تحت شعار (القومية) إنما الذى كان يخيف يهود وأبناء صهيون : أن ينطلق الجهاد باسم الله . . باسم الإسلام .

كانوا يريدون أن يكون جهادهم أو نضالهم أو قتالهم هو تحت اسم الدين . .

تحت اسم التوراة . . التلمود ، أما المسلمون فما كانوا يحبون أن ينطلق لهم جهاد تحت راية الإسلام ، ولكن هذا الذى حدث .

ومن هنا كان الضغط المستمر على المقاومة الإسلامية ، وكان تكسير العظام ، وكان القتل ، وكان التشريد والإبعاد ، وكان السجن والاعتقال ، وكان هدم البيوت . . إلى آخره ، ولكن لم يفت ذلك فى عضد هؤلاء المجاهدين الجدد . إنه الإسلام . . الإسلام أنشأهم خلقًا جديدًا ، يرون أن الموت فى سبيل الله هو عين الحياة .

ما أخشى ما يخشاه الناس ؟ الناس يخشون على أمرين : يخشون على الرزق ، ويخشون على العمر . والرزق بيد الله ، والعمر بيد الله ، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك لقمة أو درهمًا ، ولا يستطيع أحد أن يؤخر أجلك يومًا أو ساعة أو لحظة من زمن ، الأرزاق والآجال بيد الله .

ولهذا لم يخف هؤلاء من الموت ، لم يبالوا أوقعوا على الموت ، أم وقع الموت عليهم ، فإما أن نعيش سعداء ، وإما أن نموت شهداء . إنما هى إحدى الحسنيين ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ﴾[1] ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2] . هذه الروح الجديدة وهذا الجهاد الجديد ، هو الذى جعل أبناء صهيون يفكرون تفكيرًا جديدًا .

دعوكم من كل ما يكتب ويقال أحيانًا . تذكر وكالات الأنباء وتقريرات الصحف الأجنبية والعالمية ما وراء السطور ، قالت (رويتر) : إن الذى جعل الإسرائيليين يعجلون بالاتفاق الجديد ، هو خوفهم من تنامى الأصولية الإسلامية .

إن هذه الأصولية يصلب عودها يومًا بعد يوم ، قامت ثورة إسلامية فى إيران ، ووصل حكم إسلامى إلى السودان ، وفاز إسلاميون فى الأردن ، وفى اليمن ، وأوشك الإسلاميون فى الجزائر أن يصلوا إلى الحكم بطريق ديمقراطى و . . و . . إلى آخره ، وهذا هو الخطر .

---

(١) البقرة : ١٥٤ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ .

العالم كله الآن يتنادى بالتحذير - أقصد العالم الغربى اليهودى والصليبى - يتنادى بالتحذير مما سموه : الخطر الأخضر ، يقصدون الخطر الإسلامى .

زال الخطر الأحمر الذى كان يتمثل فى الشيوعية العالمية بقيادة الاتحاد السوفيتى ، والخطر الأصفر الصينى لم يعد يخوفهم ، الخطر الجديد هو : الخطر الإسلامى .

هل الإسلام خطر والمسلمون بهذا الضعف ؟! والمسلمون فى مؤخرة الأمم ؟! وفى ذيل القافلة ؟! كان يعتبر هذا خطرًا تحشد القوى للتخويف منه ، وتضخيم مساطره ، وغرس هذه المعانى فى العقول والنفوس ؟!

صحيح أن الإسلام ضعيف الآن ، ولكنهم يقولون : لقد عرفنا من طبيعة الإسلام أنه يكون ضعيفًا ثم سرعان ما يقوى ، متفرقًا ثم سرعان ما يتجمع ، نائمًا ثم سرعان ما يستيقظ ، إذا وجد من يقود الأمة باسم الله ، ومن يخاطبها بكلمة الله ، فسرعان ما يظهر هذا العملاق ، ويخرج من قمقمه ، ويتحدى الدنيا ، كما فعل ذلك أيام صلاح الدين ، وأيام قطز ، وأيام محمد الفاتح وغيرهم من الأبطال .

إنهم يخشون أن يعود صلاح الدين من جديد ، هذا ما يخشاه هؤلاء ، ولذلك سارعوا لمثل هذا الاتفاق ، الذى لا يعطى للشعب الفلسطينى ما كان يتنادى به من سنين طويلة : من حق تقرير مصيره ، وإقامة دولته الوطنية المستقلة على كامل ترابه ، وإعادة اللاجئين المشردين إلى أهليهم وديارهم وأوطانهم التى أخرجوا منها بغير حق ، وأن تكون عاصمة هذه الدولة المستقلة : القدس الشريف ، هذا ما كانوا يتنادون به .

ولكن - للأسف - لم نجد هذا فى الاتفاق الجديد ، فمما قاله الذين مثلوا الجانب الفلسطينى : إننا نأمل أن تحل المشكلات الصعبة فى المرحلة القادمة .. مشكلات القدس والمستوطنات واللاجئين والحدود فإذا كانت هذه المشكلات معلقة ، فما الذى حُل من مشكلات إذن ؟!

إن (رابين) عشية ذهابه إلى (واشنطن) لحضور حفل التوقيع ، صرح لوكالات الأنباء : أن القدس ستظل العاصمة الموحدة الدائمة لإسرائيل ، وأن علم فلسطين لن يخفق فوقها يومًا من الأيام .

أراد بذلك أن يبلغ رسالة إلى الجانب الفلسطينى : أن هذه القضية أحد الثوابت التى لا تقبل التغيير أو التعديل أو التنازل .

وفى كلمته فى حفل التوقيع قال : نحن قادمون من (أورشليم) أو من (القدس) العاصمة التاريخية والأبدية للشعب اليهودى .

هل يمكن أن نقبل تنازلاً عن القدس ؟ عن المسجد الأقصى ؟ عن أولى القبلتين وثالث المسجدين العظيمين ؟ هل يمكن أن يصبح هذا أمرًا هامشيًا يترك إلى نهاية المفاوضات ، بعد أن يكون كل شيء قد تم ؟ وتم الاعتراف ، وتم التطبيع ، وتم الاختراق ، وتم ، وتم ؟ ماذا يملك الذين يمثلون فلسطين عند ذلك ؟ هل يرجعون فى كل ما تم إذا تصلب الجانب الإسرائيلى ، وهو متصلب من اليوم .

كيف نفرط فى القدس ؟ كيف نسكت عن اللاجئين . . الملايين الأربعة المشردين؟

ذكر (رابين) فى كلمته : يهود الشتات . . اليهود المشتتين ، وهؤلاء اليهود المشتتون كما يسميهم ، يهود عاشوا فى أقطارهم قرونًا من الزمن ، ولدوا فيها ، ونشأوا هم وآباؤهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم ، ومع هذا يسميهم : يهود الشتات، وسكتنا نحن عن فلسطينى الشتات ، وكثير منهم ولد فى فلسطين ، عاش فيها ونشأ فيها وشهد بنفسه مجازر (دير ياسين) وغيرها ، كيف نسكت عن هذا ، ولا نقول كلمة واحدة عن هؤلاء المشتتين ، وما عانوه ، وما يعانونه ؟! هذه قضية اللاجئين .

قضية الاستيطان : ما زال المستوطنون يصولون ويجولون ، هؤلاء الذين جاءوا من خارج فلسطين ، أصبحوا يتحكمون فى أرض فلسطين ، وفى أهل فلسطين ، فى الضفة الغربية وغيرها .

الاتفاق يعطى القوات الإسرائيلية الحق فى التحرك بحرية في الطرق ما بين غزة وأريحا ، أين الانسحاب إذن ؟! كيف رضينا بالهوان ؟! كيف قبلنا هذا الدون ؟! .

لقد وقفنا ضد اتفاقية (كامب ديفيد) ، وقلنا : إنها خيانة ، فما هو الذى جعلنا نقبل ما هو شر منها ؟! ولهذا البعض الآن يقولون : إن (كامب ديفيد) الأولى خير من (كامب ديفيد) الثانية ، كما قال أبو الطيب المتنبى :

يقضى على المرء فى أيام محنتــه   حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن!

ما السر فى هذا ؟ إنه الوهن ، الوهن الذى أصاب القائمين على هذه القضية ، وهو ما حذر منه القرآن فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ - أى لا تضعفوا - وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (١) .

هؤلاء يقولون : ليس معنا أحد ، ذهبت روسيا التى كانت تعضدنا ، والعالم العربى ممزق وضعيف ، فلم يبق أمامنا إلا أن نقبل ما يعرض علينا .

هذا هو الوهن ، الوهن الذى يصيب الأمم فى مرحلة الضعف ، وحذر منه النبى ﷺ الأمة فى المرحلة الغثائية ، حينما تصبح كثرة كغثاء السيل ، قال ﷺ : «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن - قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » (٢) .

هذا هو الوهن النفسى ، أن يخلد الناس إلى الدنيا .. إلى المناصب .. إلى الشهوات ، ويكرهوا الموت فى سبيل الله .

لهذا نهى القرآن عن الاستسلام لهذا الوهن والضعف ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ لأن الإسلام يعلو ولا يعلى - ﴿ .. وَاللهُ مَعَكُمْ .. ﴾ إذا تخلت عنكم روسيا أو غيرها ، حسبك أن يكون الله معك ، ومن كان الله معه فلن يضيع ، ومن نصره الله فلا يغلب ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ... ﴾ (٣) .

لنأخذ مثلاً من إخوتنا فى البوسنة والهرسك ، هؤلاء الصامدون الذين رأيناهم كما نشرت الصحف من أيام : ثمانية عشر رجلاً منهم فى سجن من سجون

---

(١) محمد : ٣٥ .

(٢) من حديث ثوبان الذى أخرجه أبو داود وأحمد . وأوله : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل : يا رسول الله ومن قلة يومئذ ؟ قال : لا بل انتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ... » (شرح البغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٦/١٥ ، حديث ٤٢٢٤) .

(٣) آل عمران : ١٦٠ .

الكروات ، يقتسمون رغيفًا من طول ما أهلكهم الجوع ، كل واحد يأخذ منه لقيمة، ومن شدة العطش لعقوا بأفواههم الثرى ، عسى أن يجدوا فيه بعض الندى .

هؤلاء صمدوا فأين أبناء فلسطين ؟ لماذا لا يصمدون ؟ لماذا يهينون ويستكينون ؟ وقد قال الله تعالى فى شأن قوم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ - وفى قراءة قتل معه ربيون كثير - ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُواْ ، واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلا أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١) . أى إنهم اتهموا أنفسهم : إذا كنا أصبنا فى بعض المعارك ، فلا بد أن نكون قد أذنبنا أو قصرنا، ولذلك سألوا الله المغفرة ، قبل أن يسألوه التثبيت والنصر .

نهى القرآن عن الاستسلام للوهن ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ (٢) ﴿ وَلا تَهِنُواْ وَلا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣) ﴿وَلا تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ . . .﴾ (٤) إن قلتم إننا قد ضحينا وعانينا وتعبنا ، فالعدو أيضًا يضحى ويعانى ويتعب ، ولكن فرق بين من يعانى فى سبيل الله . . . فى سبيل الحق . . فى سبيل الشرف والعدل . . ومن يعانى ويتعب فى سبيل الطاغوت . . فى سبيل الظلم والباطل ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ . . . ﴾ .

يا أيها الإخوة : ربما يقول البعض : هذا شأن فلسطينى ، وهل نحن فلسطينيون أكثر من الفلسطينيين ، وملكيون أكثر من الملك كما يقال ؟ ونقول : صحيح أن هذا ربما كان فى المقام الأول شأنًا فلسطينيًا ، ولكن هل دعيت السلطة الشرعية الوطنية الأولى للفلسطينيين فى مثل هذا الأمر الجلل ؟ هل دعى المجلس الوطنى الفلسطينى قبل أن يصدر قرار ويفاجأ بالأمر الواقع ؟ لم يحدث .

---

(١) آل عمران : ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) محمد : ٣٥ .
(٣) آل عمران : ١٣٩ .
(٤) النساء : ١٠٤ .

ثم إن هناك فصائل لها شأنها فى الجهاد الفلسطينى ، إسلامية وغير إسلامية ترفض هذا ، لم يجمع إذن الشعب الفلسطينى . ثم من يقول :إن فلسطين . . إن المسجد الأقصى . . إن قبة الصخرة . . إن أرض الإسراء والمعراج ، هى ملك للفلسطينيين وحدهم ؟ لا . . إنها ملك المسلمين جميعًا ، ملك هذه الأمة من مشرق الأرض إلى مغربها ، ملك الأجيال الإسلامية كلها . حتى لو وهن هذا الجيل وتخاذل ، فليس من حقه هذا ، لأنه يقطع الطريق على الأجيال القادمة .

فلسطين أرض المسلمين ، إن الذى حرر المسجد الأقصى من الصليبيين من قبل ، بعد بقائه تسعين عامًا فى أيديهم لم يكن فلسطينيًا ، ولم يكن عربيًا ، بل كان رجلاً كردى الأصل ، وإن عرّبه الإسلام . كان كرديًا اسمه « صلاح الدين الأيوبى » هذا هو الذى هيأ الله على يديه النصر ، وقامت معركة حطين ، وفتح بيت المقدس ، لهذا نقول : إن هذه القضية قضية المسلمين حيثما كانوا .

لا ينبغى أن تسقط الراية أبدًا ، سيظل الجهاد مستمرًا ، وعندنا بشائر من رسول الله ﷺ ، إن المعركة بيننا وبين اليهود قائمة ، نقاتلهم ويقاتلوننا . قال ﷺ : «تقاتلكم اليهود - وفى رواية تقاتلون اليهود - فتسلطون عليهم ، حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر والشجر فيقول الحجر : يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله»[1]. وفى بعض الألفاظ : « حتى يختبى اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله. . . » [2] . هذا ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر ، وعن أبى هريرة .

وروى عبد الله بن أحمد فى المسند والطبرانى فى معجمه الكبير بسند رواته ثقات، عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : لا تزال طائفة من أمتى على الدين ظاهرين ، ولعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم أو جابههم ، إلا ما أصابهم من لأواء (أى من أذى كأن يسقط منهم شهداء وضحايا) قالوا : يا رسول الله : وأين هم ؟ قال : « ببيت المقدس ، وأكناف بيت المقدس » [3] .

---

(١) ذكره في صحيح الجامع الصغير برقم (٢٩٧٧) .

(٢) سبق تخريجه ص (١٧٢) ، وص (٢٢٢) .

(٣) هو فى المسند (٥/ ٢٦٩) وفى مجمع الزوائد (٧/ ٢٨٨) وقد تقدم تخريجه ص (٢١٦) .

هؤلاء المرابطون مستمرون . بشائر رسول الله ﷺ تعطينا الأمل وتزرع فى نفوسنا الرجاء ، أن هذه الأمة منصورة ، وأن هناك طائفة ستظل مستمسكة بعروة الحق لا انفصام لها ، لا تستخذى . . لا تنحنى . . لا تستسلم ، مهما عصفت الريح من حولها ، لأنهم يعتقدون أن نصر الله آت لا ريب فيه ، وأن هناك معركة قادمة ، سيكون كل شيء فيها مع المسلمين ، ولصالح المسلمين ، حتى الحجر والشجر ينطق . . هل ينطق بلسان الحال ، أو ينطق بلسان المقال ؟ أيا ما فسرنا هذا الأمر ، فعندما يأتى النصر يكون كل شيء معنا . وعندما يقدر عليك الخذلان ، فكل شيء ضدك ، حتى السلاح الذى فى يديك ، كما رأينا هذا فى سنة ١٩٦٧ م .

إن المعركة قادمة ، وفلسطين هى أرض الإسلام ، والأقصى يجب أن يكون إسلامياً ، وفى يد المسلمين ، والقدس هى عاصمة فلسطين .

إننا ينبغى أن نؤكد على أمور لا بد منها وهى :

إن المعركة دينية إسلامية (١) ، هذه هى الحقيقة ، ومن أجل ذلك نتحدث عنها على هذا المنبر ، لا يظن بعض الناس أننا نتحدث فى السياسة ، نحن نتحدث فى

---

(١) وهذا ما نادى به الشيخ فى أكثر من كتاب من كتبه ، أو خطبة من خطبه ، أو محاضرة من محاضراته ، وهو ما ينبيء به لفظ الحديث الصحيح : « يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون . . . فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله . . . » فالحديث حدد أوصاف المقاتلين الذين ينصرهم الله على اليهود من خلال قوله : « المسلمون » ومن خلال نداء الحجر أو الشجر للواحد منهم : « يا مسلم ، يا عبد الله » وليس : يا عربى ، أو يا قومى ، أو يا وطنى ، ثم إننا إذا أسقطنا من حسابنا (إسلامية المعركة) وخضناها على أساس أن فلسطين أرض عربية فحسب خسرنا المعركة وكسبها اليهود .

فللعامل الدينى وزنه وأهميته ، وهذا ما يعيه اليهود جيدًا ، ويحرصون على استغلاله فى حربهم مع المسلمين . وجاء فى مذكرات (وايزمان) حول هذه النقطة ما يلى : « ولقد قابلت لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور : لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟ وقلت لبلفور : إن الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا اغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى » نقلاً من كتاب (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) للأستاذ عبد الله التل ص (٤٠١) ، ط . المكتب الإسلامى .

الدين . . فى صلب الدين ، نتحدث فى أرض الإسراء والمعراج ، وفى المسجد الأقصى. القضية إسلامية ، كما أنها من جانب (صهيون) يهودية . . يهودية لحمًا ودمًا.

هل شاهدتم وسمعتم حفل التوقيع ؟ هل سمعتم ما قال (رابين) ؟ إنه انتهز فرصة أن العالم يسمعه ، فأراد أن يؤكد يهودية القضية ، فاستشهد بالتوراة وقرأ فقرات من (سفر الجامعة) أحد أسفار العهد القديم ، وتحدث عن السنة العبرية اليهودية ، أن لهم سنة غير سنوات الناس الآخرين ، أراد أن يؤكد الهوية اليهودية . استشهد بالتوراة ، ولم نر أحدًا من وفدنا استشهد بآية من القرآن ، أو جاء على لسانه مجرد ذكر الإسلام ، أو ذكر مجرد كلمة (المسجد الأقصى) فيا للهوانِ ! ويا للضياع !! .

القضية إسلامية هذا ما ينبغى أن نؤكده ، والنصر ينبغى أن نؤمن به ، قد يبطىء علينا ، وهذه سنة من سنن الله ، حتى نستكمل عدده ، وحتى تمحصنا الأحداث ، ليمتحن الله ما فى صدورنا ، وليمحص ما فى قلوبنا . ولتفرز المعركة الأبطال الحقيقيين ، ويتميز الخبيث من الطيب ، ولكن النصر آت لا ريب فيه .

لا ينبغى أن نستعجل الثمرة قبل أوانها ، ونفرّط فى تاريخ الجهاد ، ويضيع دم عز الدين القسّام ، وعبد القادر الحسينى ، وأبى جهاد ، وغيرهم ، وتضيع الدماء فى دير ياسين ، وصبرا ، وشاتيلا عبثًا ، ينبغى ألا نفرط فى هذه الدماء .

فى معرض الكتاب بالدوحة الذى عقد فى ديسمبر من عام ١٩٩٣م ، وأقيمت فيه ندوة شعرية ، ألقيت قصيدة أنكر فيها ما يعرض فى مؤتمرات السلام هذه ، أنكر فيها أن نرضى بحكم لكل ما بقى من فلسطين تحت الرعاية الصهيونية والعلم الإسرائيلى، وقلت فيما قلت فى ذلك الوقت :

فيا عجبًا لمن يجـــرى ... وراء سرابه النفـــسى
يظن له بــه ريّـــــا ... ويرجع فارغ الكـــأس
يفرط فى دم الشهـــداء ... يا للعار والبـــؤس !
يبيع الأرض والتاريـــخ ... بالأرخص من فلـــس

بحكم فى حمى صهيون — يا للثمن البخـــــس !

فلا دولتـــه قامـــت — ولا أبقى على النفـــس

وضاع جهاد أجيـــال — فقد دفنوه فى الرمـــس

جهود كلهـــا ذهبـــت — « كأن لم تغن بالأمس »

فما معنى فلســـطين — بلا أقصى ولا قـــدس ؟

فلسطين بلا قـــدس — كجثمان بـــلا رأس [(١)]

ولكنا قبلنا الجثمان بغير الرأس !!

القضية إسلامية ، والنصر آت ، وينبغى أن نعلّم ذلك لأولادنا ، ونلقنه أبناءنا هؤلاء المظلومين . . إننا نشفق والله على أبنائنا وأحفادنا الذين ظللنا نحفظهم أناشيد العودة ، وأغانى البطولة والقدس والأقصى ، ثم بعد ذلك نسكت عن هذا كله مرة واحدة .

إسرائيل التى قلنا : إنها خطر اقتصادى وثقافى ودينى وسياسى وعسكرى و . . و . . الآن نمد إليها اليد ، ونرى أعداء الأمس شركاء اليوم ! ماذا نقول لأبنائنا وأحفادنا ؟ ينبغى أن نحمى أبناءنا من الخطر القادم الآن ، وهو عملية غسيل المخ .

احذفوا إذن من القرآن : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ . . . ﴾[(٢)] ، احذفوا إذن من القرآن : ﴿ . . . وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . . . ﴾[(٣)] ، احذفوا من البخارى ومسلم : « تقاتلون اليهود فتسلطون عليهم . . . » [(٤)] ، اغسلوا أمخاخ أبنائكم وأحفادكم !!

---

(١) انظر : القصيدة بكاملها فى ديوان الأستاذ القرضاوى الذى صدر مؤخرًا تحت عنوان المسلمون قادمون ص (٩٣ - ٩٧) .

(٢) المائدة : ٨٢ .

(٣) الأعراف : ١٦٧ .

(٤) تقدم ذكره كاملاً فى ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

لا والله ، سنثبت ، ونصبر ، ونقاوم ، القضية لم تنته بعد ، وهى مستمرة . كل ما نريده من أبناء فلسطين وقد حدث ما حدث : ألا يضرب بعضهم رقاب بعض ، ألا يسفك بعضهم دماء بعض ، حرام أن تراق قطرة دم فلسطينية من أجل ما يريده اليهود ، دعوا الانتفاضة تعمل عملها خارج غزة وأريحا فى الأرض المحتلة الباقية ، وهذا أضعف الإيمان لأننا ظللنا سنين نقول : إسرائيل كلها قائمة على الاغتصاب والعدوان ، وما قام على الباطل فهو باطل ، ولا حق لها فى الوجود .

حتى لو رضينا بالذل . . بما لا يقبله مسلم بمنطق الإسلام والإيمان ، حتى لو رضينا بهذا ، لا يجوز أن تقمع الانتفاضة ، ويقمع الجهاد من أجل حماية أمن اليهود ، لا يجوز هذا .

هذا ما نرجوه من إخوتنا فى فلسطين أمام هذا الوضع الجديد .

يا أيها الإخوة : نحن فى أوضاع ربما يقابلها بعض الناس بالتشاؤم أو باليأس ، ولكنى أقول والله : إن هذه الأوضاع لن يكون من ورائها إلا إيقاد الجذوة ، وإلا استمرار الصحوة ، وإلا نفخ روح القوة ، وإلا أن هذا العملاق سينقض من جديد .

لقد طالما أصاب الإسلام محن طوال تاريخه ، منذ حروب الردة ، ومنذ حروب التتار ، ومنذ غزوات الصليبيين ، ومنذ الاستعمار الذى احتل ديار الإسلام ، ولكن الإسلام لم يمت ، وهذه الأمة لم تمت ، وأن قدر الله لهذه الأمة أنها لا تموت ، وأنها ستظل تفرز الأبطال يومًا بعد يوم .

إن الذى أخرج طارق بن زياد من قديم ، وصلاح الدين الأيوبى ، ومحمد ابن مراد الفاتح ، وعبد القادر الجزائرى ، وعمر المختار ، وعز الدين القسام ، وغير هؤلاء من المجاهدين المقاتلين ، سيخرج أمثالهم وأمثالهم ، وقد أخرج ، وها نحن نرى - والحمد لله - ما يطمئن النفوس .

إن فلسطين إسلامية ، والمعركة إسلامية دينية ، لن يبنى الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى ، لن تنتصر اليهودية المنسوخة على الإسلام الخالد ، لن تنتصر التوراة المحرفة على القرآن المحفوظ ، لن ينتصر الباطل على الحق ، بل الحق

سينتصر ، لأن الله هو الحق المبين ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

أقول قولى هذا أيها الإخوة ، وأستغفر الله تعالى لى ولكم ، فادعوه يستجب لكم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر . اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة. اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم انصرنا على اليهود ، اللهم انصرنا على الصليبيين ، اللهم انصرنا على الوثنيين ، اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين .

اللهم ارفع بنا راية الإسلام واعل بنا كلمة القرآن . واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سخاء رخاء ، وسائر بلاد المسلمين ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) ﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) فصلت : ٥٣ .   (٢) آل عمران : ١٤٧ .   (٣) الحشر : ١٠ .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (١) . اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

خطبة عيد الفطر (١)

ألقيت فى ميدان عابدين بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م

الحمد لله ، الحمد لله (٢) نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ورضى الله عن آله وأصحابه ، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

أما بعد فيا أيها المسلمون :

هذا يوم العيد ، هذا يوم التكبير (٣) . زينة أعيادنا نحن المسلمين التكبير ، فالله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

الله أكبر شعار المسلمين ، يدخل المسلم صلاته فى كل يوم خمس مرات بهذه الكلمة العظيمة : الله أكبر ، يؤذن للصلاة كل يوم خمس مرات ويفتتح أذانه بهذه الكلمة : الله أكبر الله أكبر ، يقيم لصلاته كل يوم خمس مرات ، يفتتح إقامته بهذه الكلمة : الله أكبر الله أكبر ، إذا ذبح المسلم ذبيحة ، سمى الله وكبر : بسم الله والله أكبر .

الله أكبر هى شعار المسلم فى كل حين ، إذا دخل المسلم معركة ، كانت الصيحة التى تملأ قلوب الأعداء فزعًا وخوفًا ، هى صيحة : الله أكبر الله أكبر .

---

(١) قال الشيخ سيد سابق : وكل ما ورد فى أنّ للعيد خطبتين يفصل بينهما الإمام بجلوس فهو ضعيف ، قال النووى : لم يثبت فى تكرير الخطبة شيئ (فقه السنة ١/٣٢٢) ط . مكتبة الخدمات الحديثة .

(٢) ذكر العلامة ابن القيم في (زاد المعاد) : أنه لم يثبت أنه ﷺ ابتدأ خطبه - لا فى جمعة ولا فى عيد - بغير الحمد لله . يراجع (زاد المعاد : ١/٤٤٧ - ٤٤٨) .

(٣) تكبير عيد الفطر سنة ، ووقته عند الأكثر من حين خروج الإمام للصلاة إلى مبتدأ الخطبة .

الله أكبر هى زينة العيد ، فكبّروا الله ، وقولوا : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

أيها الإخوة المسلمون :

هذا يوم العيد ، هذا يوم عيد الفطر ، وللمسلمين عيدان : عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وكلّ عيد يأتى بعد عبادة من العبادات الكبرى ، وبعد فريضة من الفرائض العظمى ، عيد الأضحى يأتى بعد الحج ، وعيد الفطر يأتى بعد الصيام ﴿. . . وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

جاء هذا العيد ، ليفرح فيه المؤمنون بتوفيق الله ، و« للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربّه فرح بصومه » (٢) . إذا أفطر كلّ يوم فرح ، وإذا أفطر بعد الفراغ من رمضان فرح فرحة أخرى ، هى فرحة التوفيق لطاعة الله عز وجلّ ، هى أنّ الله سبحانه وتعالى أنعم عليه بنعمة الصيام والقيام ، وجاء العيد متمما لهذ النعمة ، وفيه يفرح المؤمنون بتوفيق الله ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) .

وَمِنْ شُكْرِ نعمةِ الله على توفيقه ألا يعيش المسلم فرحة العيد وحده ، بل يجتهد أن يشركَ معه الفقراء والمساكين من عباد الله ، ولهذا فرض الإسلام زكاة الفطر من رمضان ، يؤديّها المسلم عن نفسه وعمنّ يمونه ويلى عليه من زوجة وأولاد ، وهى مقدار يسير يجب على من يملكه فاضلاً عن قوت يوم العيد وليلته ولو لم يكن مالكًا للنصاب عند جمهور العلماء . فقد أراد الإسلام أن يعودّ المسلم العطاء والإنفاق فى السرّاء والضرّاء ، وأن تكون يده العليا يومًا ، فهو يعطى وإن كان فقيرًا ، وقد يعطى

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) من حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى واللفظ له ، ورواه مسلم . انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٣٠٧/١ ، حديث ٥٠٥) وقوله : « إذا أفطر فرح بفطره » يحتمل أن تكون فرحته عند الإفطار بالطعام ، ويحتمل أن يكون سروره بما وفق له من تمام الصوم واستحقاقه الثواب الجزيل .

(٣) يونس : ٥٨ .

الصدقة من ناحية ، وتجيئه - لفقره - صدقات من ناحية أخرى ، وفى الحديث : « . . . أمّا غنيكم فيزكّيه الله ، وأمّا فقيركم فيردّ الله عليه أكثر مما أعطى » [١] .

والمسلم يطلب المسكين فى هذا اليوم ويوصل إليه الصدقة فى مكانه ، كما جاء : « أغنوهم عن الطواف فى هذا اليوم » [٢] .

أيها الإخوة : يوم العيد أشبه بيوم الوعيد ، أشبه بيوم القيامة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [٣] .

أمّا المستبشرون الفرحون ، فأولئك الذين أتّم الله عليهم نعمة الصيام والقيام ، فهم فى هذا اليوم يفرحون وحقّ لهم أن يفرحوا . وأمّا الوجوه التى عليها غبرة ، ترهقها قترة ، فوجوه أولئك الذين لم يقدّروا نعمة الله ، ولم يمتثلون لأمر الله فى الصيام والقيام ، فيا ويلهم ثم يا ويلهم ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ [٤] .

أيها الإخوة المسلمون :

هذا يوم عيدنا ، يوم العيد ليس يوم انفلات ولا انطلاق للشهوات ، بعض الملل والنّحل عيدها عيد شهوات ، عيد إباحيّة ولذّات ، ولكن عيد المسلمين يبدأ بالتكبير ويبدأ بالصلاة . فيه المعنى الربانى ، فيه معنى الصلة بالله عزّ وجلّ ، فأوّل شىء فى يومنا هو التكبير ، وثانى شىء هو الصلاة .

العيد ليس معناه انطلاقًا منْ كل قيد ، لا ، وليس العيد قطعًا للصلة بالله عزّ وجلّ ،

---

(١) رواه أحمد ، وأبو داود انظر (الحديث : ٥٧٢ من المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) .

(٢) رواه ابن عدى والدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما بإسناد ضعيف (سبل السلام : ٢/ ٢٧٠) وأخرج البيهقى والدارقطنى عن ابن عمر قال : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال : اغنوهم فى هذا اليوم » وفى رواية للبيهقى : « اغنوهم عن طواف هذا اليوم » وأخرجه أيضًا ابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة وأبى سعيد (نيل الأوطار : ٢٥٨/٤) .

(٣) عبس : ٣٨ - ٤١ . (٤) القيامة : ٣١ - ٣٥ .

إنّ بعض الناس يظنونّ انقضاء رمضان ، هو انقضاء العهد بالمساجد والجماعات والصلوات والطاعات ، لا . . . لا يا إخوتنا المسلمين . . لا ، من كان يعبد رمضان فإنّ رمضان قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حىّ لا يموت .

إنّ رمضان موسم المتقين ، ومتّجر الصالحين ، والتاجر يضاعف نشاطه فى الموسم، ولكنه لا يغلق دكّانه بعد الموسم . إنّ رمضان موسم نشحن فيه بطارّيات القلوب بمعانى الإيمان والتقى ، والرغبة فيما عند الله ، والإقبال على ما عند الله . وعلامة القبول فى رمضان ، أن يظلّ الإنسان موصولاً بحبل الله بعد رمضان ، ألا يقطع الودّ بينه وبين ربّه ، وقد كان بعض السلف يقولون : بئس القوم قوم لا يعرفون الله إلا فى رمضان ، كن ربّانيًا ولا تكن رمضانيًا .

لا تكن إنسانًا موسميًا يعرف الله شهرًا فى العام ، ثم بعد ذلك ينقطع عن طاعة الله ، وعن عبادة الله .

من كان قد قُبِل صيامه ، وقُبِل قيامه ، فلذلك علامة . علامة هذا أن نجد أثر ذلك بعد رمضان ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١) .

فمن علامة قبول الحسنة ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها . ومن عقوبة السيّئة: السيّئة بعدها .

فيا أخى المسلم كن مع الله دائمًا ، إنّ الله يحب الطاعة فى كل زمان ، ويكره المعصية فى كل أوان ، وربّ رمضان هو ربّ شوّال ، هو ربّ ذى القعدة ، هو ربّ سائر الشهور .

كن مع الله أبدًا ، إتقّ الله حيثما كنت ، فى أى مكان كنت ، وفى أى زمان كنت، وعلى أىّ حال كنت ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . . . ﴾ (٢) .

أيها الإخوة المسلمون :

نحن فى يوم العيد . . عيد الفطر ، نحن فى يوم من أيام الله ، نحن فى يوم

---

(١) محمد : ١٧ . (٢) البقرة : ١١٥ .

مهرجان إسلامىّ ، كان النبىّ ﷺ يصلىّ العيد فى الخلاء ، ولم يرد أنه صلىّ العيد فى مسجد ، إلا ما روى أنّ السماء أمطرت يومًا فأضطرّ إلى إقامة العيد فى المسجد(١) . وإنّما كان يصلى فى الخلاء ، ليجتمع المسلمون الذين فى المدينة جميعًا فى صعيد واحد ، وفى مكان واحد ، فى مهرجان إسلامىّ كبير ، يجتمع فيه الرجال والنساء ، حتى أنّ النبىّ ﷺ سئل : إذا كانت إحدانا ليس لها (جلباب) أى عباءة ، أو ملاءة ، أو ثوب خارجىّ تلتحف به وتخرج ، فماذا تفعل يا رسول الله ؟ قال : لتعرها أختها من جلبابها (٢) . تستعير جلبابًا وتخرج للصلاة .

وكان الصبيان يخرجون ، وكانت المرأة تخرج ، حتى المرأة الحائض ، التى ليس عليها صلاة ، ولا يقبل منها صلاة ، كانت تحضر العيد ، تعتزل الصلاة ، ولكنّها تشهد الخير ودعوة المسلمين (٣) .

والحمد لله قد أحيا الشباب الإسلامىّ فى هذا البلد هذه السنّة ، التى أميتت زمنًا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « أنهم أصابهم مطرٌ فى يوم عيد فصلى بهم النبى ﷺ صلاة العيد فى المسجد » رواه أبو داود بإسناد ليّن ، لأنّ فيه رجلاً مجهولاً ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم بإسناد ضعيف . وقد اختلف العلماء على قولين هل الأفضل فى صلاة العيد الخروج إلى الجبّانة – أى الصحراء – أو الصلاة فى مسجد البلد إذا كان واسعًا ؟ وعند مالك وجمهور العلماء الخروج إلى الجبّانة أفضل ولو اتسع المسجد للناس ، وحجتهم محافظته ﷺ على ذلك ولم يصلّ فى المسجد إلا لعذر المطر ، ولا يحافظ ﷺ إلا على الأفضل ، ولقول علىّ رضى الله عنه : لولا أنّه السنّة لصلّيت فى المسجد ، واستخلف من يصلى بضعفة الناس فى المسجد (سبل السلام : ٢/١٢٣ – ١٢٤) و(نيل الأوطار : ٣/٣٥٩ – ٣٦٠) . ويقول البغوى من الشافعية : السّنّة أن يخرج إلى المصلّى لصلاة العيد ، إلا من عذر ، فيصلى فى المسجد (شرح السنة : ٤/ ٢٩٤) .

(٢) ، (٣) عن أم عطيّة أن رسول الله ﷺ كان يُخرج الأبكار والعواتق ، وذوات الخدور ، والحُيّض فى العيدين ، فأمّا الحيّض فيعتزلن المصلّى ، ويشهدن دعوة المسلمين ، قالت إحداهنّ: إن لم يكن لها جلباب ؟ قال : « فلتعرها أختها من جلابيبها » رواه البخارى ومسلم ، والترمذى . والعواتق : جمع العاتق ، وهى الجارية التى قاربت الإدراك . وقال البغوى : وفيه دليل على أن الحائض لا تهجر ذكر الله ومواطن الخير ومجالس العلم ، إلا أنّها لا تدخل المسجد (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٤/٣١٩ - ٣٢٠ ، حديث ١١١٠).

طويلاً ، سنّة مشاركة المرأة المسلمة فى صلاة العيد ، فجعلوا جناحًا للأخوات المسلمات ، وجعلوا كذلك متسعًا للصبيان ، وشجعوهم بالحلوى والهدايا ، وهكذا ينبغى أن نكون .

ينبغى أن نحيى السنن المهجورة ، السنن التى أماتها الناس فى عصور التخلّف والانحطاط ، ونحمد الله عزّ وجلّ أنّ سننًا كثيرة قد أحييت ، بفضل الحركة الإسلامية ، حركة الإسلام ، وحركة الشباب المسلم فى هذا البلد .

كانت هناك سنّة لم يكن يعرفها إلا القليل النّادر ، أو الشاذ من الناس ، وهى سنّة الاعتكاف فى رمضان ، وفى العشر الأواخر من رمضان . والحمد لله أحييت هذه السنّة بفضل هذا الشباب الإسلامىّ فى كثير من المساجد ، فالحمد لله ما زال الإسلام بخير .

رأينا عشرات ومئات من الشباب ، يتحدّون (الموضات) ، ويتحدون البدع الوافدة من الشرق والغرب ، يطلقون لحاهم ، ويحيون سنّة رسول الله ﷺ .

رأينا أخوات مسلمات ، يقفن ضد التيّار .. التيّار الزاحف بالفجور والتحلّل ويتحجبن ، بل ويتنقّبن . إنّ هذا النقّاب الذى يعترضه بعض الناس - وإن كنت لا أقول بوجوبه ولا استحبابه فى عصرنا - إنما يمثل التحدى ، التحدى للحضارة الغربية : حضارة التحلل والعرى والإباحيّة ، والتحدى لعبيد الحضارة الغربية وتلاميذها .

الحمد لله ، هذه الحركة الإسلامية - نجدها - والحمد لله - فى كل مكان . شباب مسلم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يصومون الاثنين والخميس ، يقرأون القرآن، يقرأون السنن والسير ، يتفقهون فى دين الله ، يقومون بخدمة المجتمع ، يستبقون الخيرات .

كان الناس قد ظنّوا يومًا أنّ الحركة الإسلامية فى هذا البلد لن تقوم لها قائمة ، فلقد ضربت ضربات وحشيّة متلاحقة .

فى عهد الطغيان [1] ، اختلطت السياط باللحوم والدماء فى رجال وشباب من

---

(١) يعنى : عهد عبد الناصر وزبانيته فى السجن الحربى وغيره .

أبناء هذا البلد ، ولكنّهم ظلّوا رجالاً والرجال قليل . كان هناك من يتحدىّ الله فوق سمواته وفوق عرشه ، كان هناك من يقول : هاتوا ربكم وأنا أحطّه فى زنزانة [1]!! كان هناك المتجبرون المتكبرون . أين هؤلاء ؟ لقد ذهبوا ، ذهبوا ولم يعد لهم إلا ذكر السوء ، ولعنة السوء عليهم من الله والملائكة والناس أجمعين .

وبقى الإسلام ، وبقيت حركة الإسلام ، بقيت هذه الحركة ، لم يطو بساطها كما ظنّوا ، لم تنكّس أعلامها ، بل ظهرت فى مثل هذه التجمعّات الإسلامية ، التى يدعو إليها الشباب المسلم المثقف .

يا أيها الإخوة :

الإسلام بخير إذا وعيناه ، وفهمناه ، وعملنا له ، والتففنا حوله .

إنّ هذه الظاهرة .. ظاهرة الشباب الإسلامى ، فى كل مكان . المعسكرات الإسلامية ، المخيّمات الإسلامية ، الوعى الإسلامى ، إنّها ظاهرة صحيّة .

إنّها ظاهرة ترينا بكلّ وضوح ، أنّ هذه الأمة لم تكفر بربّها ، ولا بقرآنها ، ولا بمحمدّها عليه الصلاة والسلام . إنّها ما زالت موصولة بالإسلام ، وإنّما تحتاج إلى من يصحيها ، إلى من ينبهها من غفلتها ، إلى من يوقظها من نومها ، إلى من يجمع شتاتها ، إلى من يحيى مواتها ، إلى من ينفخ فيها روح الإيمان ، وإلى من يناديها بـ (الله أكبر) .

(الله أكبر) هى الكلمة التى تفعل الأعاجيب . (الله أكبر) هى الكلمة التى توقظ القلوب من الغفلات ، هى التى تجمّع الناس من الفرقة والشتات .

هذه الأمة فيها خير ، فيها كنوز مرصودة ، ولكن أين من ينبش عنها ؟ ليس هناك شىء يحرّك عزائم هذه الأمّة مثل كلمة الإيمان وكلمة الإسلام .

لن تحركها الاشتراكيّة ، ولا الثوريّة ، ولا الديمقراطية ، ولا العروبة ، ولا الوطنية ،

---

(١) هو اللواء حمزة البسيونى قائد السجن الحربى ، الذى قتل فى حادث سيّارة فمزّقته شرّ ممزّق ، ولم يغن عنه تطاوله شيئًا .

ولا القومية ، وإنّما حرّكتها كلمات الله ، حرّكتها كلمة الإسلام ، حرّكها (قطز) يوم نادى فيها نداءه المعروف : واإسلاماه . . واإسلاماه ، ولا زال الأمر كذلك .

هذه الأمة إنما تقاد باسم الله ، باسم الإسلام ، باسم الإيمان . بغير هذا لا يمكن أن تجد هذه الأمة نفسها ، ولا أن نصنع منها شيئًا ذا بال .

إنّ لكل أمة شخصيّة ، ولكل شخصيّة مفتاح ، إنّك إذا أردت أن تفتح قفلاً بغير مفتاحه ، لن يفتح إلا إذا كان قفلاً غير أصيل . القفل الأصيل لا يفتح إلا بمفتاحه الخاص .

وهذه الأمة مفتاحها الإيمان ، حرّكها بالإيمان تتحرك ، قدها بالإيمان وهى تنقاد، اجعل منها أمة الأمم إذا حرّكتها بدوافع الإيمان بالله عز وجلّ ، إنّها تتخطّى العقبات، وتصنع المستحيلات ، وتنشىء البطولات ، وتعيد لنا عهد خالد ، وطارق، وصلاح الدين من جديد ، وهذا ما يخشاه أعداء هذه الأمة .

يخشون أن تتحرك هذه الأمة بالإسلام ، ولهذا يضعون العقبات وراء العقبات ، ويحاولون تشويه الحركة الإسلامية ، والتخويف منها ، والتنفير من دعوتها ، وإطلاق الشائعات حولها ، وما رأينا أنظف من هذه الحركة ، ولا أمثل منها ، أهدافًا وطرائق وأسلوبًا ورجالاً وشبابًا وشابات ، النظافة فى كلّ شىء ، الإخلاص فى كلّ شىء ، الإيمان فى كلّ شىء ، هذا أيّها الناس ما ينبغى أن نسجلّه ، وهذا ما يفرح به المؤمنون .

وفى مقابل هذا أريد أن أسجلّ شيئًا : لقد جئت قبل انقضاء رمضان بيومين ، ولكنى رأيت عجبًا ، ما كنت أراه من قبل فى هذا البلد . . البلد الذى دينه الإسلام. . بلد المساجد . . بلد الأزهر . . بلد العلم والقرآن ، رأيت عجبًا أيّها الإخوة المسلمون ، رأيت الناس يعالنون بالإفطار فى رمضان ، رأيت محلات العصير والناس عليها مزدحمون ، رأيت من يبيع (العرقسوس) و(الكولا) وغيرهما فى الشوارع فى نهار رمضان ،حتى فى حىّ الأزهر . رأيت وسمعت أنّ الناس يجاهرون بشرب الدخان فى الشوارع ، رأيت أشياء من هذا النوع . .

أين نحن ؟! أنحن فى أوربا أم فى أمريكا ؟! ألسنا فى مصر ، والتى حملت

الإسلام وحمت ذماره أكثر من ألف عام ؟ ألسنا فى بلد الأزهر ؟ ألسنا فى بلد العلماء ؟ ألسنا فى بلد القرآن ؟

ما هذا ؟ ولِمَ السكوت على هذا المنكر ؟

إنّ أشدّ من المنكر أن يسكت على المنكر ، أن يحدث هذا ولا يجد المفطر المجاهر من يقول له : أيها المفطر اختبىء إن كنت معذورًا ، وإن كنت فاجرًا فلا تظهر فجورك على الناس .

لَمْ يفعل هذا الشعب ، ولَمْ تفعل هذا الشرطة ، ولم يفعل ذلك أحد ، فأين نحن ؟! وكيف ننتظر نصر الله عز وجل إذا كنّا نرتكب المنكرات عيانًا بيانًا . جهارًا نهارًا ؟! ونصر الله لا يأتى إلا إذا نصرناه ، والله تعالى قد حدّد صفة المنصورين ، الذين يستحقون نصره بقوله : ﴿ . . . وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [1] .

كيف يحدث هذا فى بلد إسلامى ، بل فى بلد واجهته الإسلام ، ويفتخر بالإسلام ، كيف تحدث هذه المنكرات ؟!

كنت أعلم من قديم أنّ الناس قد يتركون الصلاة ، ولكن إذا جاء رمضان صلّوا ، وإذا جاء رمضان صاموا . كان الإنسان الفاجر . . الإنسان الشرّير ، لا يجرؤ على انتهاك حرمة رمضان . كان لرمضان حرمة ، وهيبة فى قلوب الناس ، حتى النصارى كانوا يتركون شرب الشاى والتدخين فى مكاتبهم طوال نهار رمضان ، رعاية لحرمته عند المسلمين ، فليت شعرى أين ذهبت هذه المهابة ؟! وأين ضاعت هذه الحرمة ؟!

إن النبى ﷺ حذّرنا من هذا العصر الذى تموج فيه الفتن كموج البحر ، والتى تضلّ الناس عن عقائدهم ببريق المادّة ، وجاذبية الطين ، يقول عليه الصلاة والسلام : « بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنًا ،

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ .

ويمسى كافرًا ، ويمسى مؤمنًا ، ويصبح كافرًا ، يبيع أحد دينه بعرض من الدنيا قليل»[1] .

ومن فتن هذا العصر التى حذّرت منها الأحاديث : طغيان النساء ، وفسق الشباب، وترك الجهاد فى سبيل الله ، وترك الأمر بالمعروف ، والنهىّ عن المنكر ، بل اضطراب المعايير ، حتى يرى الناس المعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ! وهو ما جاء فى الحديث الذى رواه أبو أمامة عن النبى ﷺ أنه قال : « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم ، وفسق شبابكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا : وإنّ ذلك كائن يا رسول الله؟! قال : نعم والذى نفسى بيده وأشدّ منه سيكون قالوا : وما أشدّ منه ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟! قال : نعم والذى نفسى بيده وأشدّ منه سيكون . قالوا وما أشد منه؟! قال: كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟! قال : نعم والذى نفسى بيده وأشدّ منه سيكون ، يقول الله تعالى : « بى حلفت لأتيحنّ لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران » [2] .

نحن فى هذه الفتنة التى تذر الحليم حيران ، ولكن لهذه الفتنة مخرجًا واحدًا ، هو الرجوع إلى الإسلام ، إلى القرآن . . دستور هذه الأمّة ومنهاجها الربانى . روى الترمذى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن أبى هريرة (صحيح الجامع الصغير وزيادته : ٢٨١٤) .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد ضعيف من حديث أبى أمامة ، ورواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة مقتصرًا على الأسئلة الثلاثة الأولى وأجوبتها ، وإسناده ضعيف أيضًا (٢/ ٣٠٩) ط . دار المعرفة ببيروت .

وانظر : (مجمع الزوائد : ٧/ ٢٨٠ ، ٢٨١) و(إتحاف السادة المتقين : ٨/ ١٧) ط . دار الكتب العلمية ببيروت .

أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعّب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يَخْلَق على كثرة الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا : إنّا سمعنا قرآنا عجبا. من علم علمه سبق ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم » (١) .

القرآن هو المخرج لهذه الأمة ، لا القوانين الوضعيّة ، ولا الأنظمة اليمينيّة أو اليساريّة ، إنّه القرآن وحده ، علينا أن نعود إليه ونتبع هداه ، وقد ذكّرنا رمضان بالقرآن ، فرمضان شهر القرآن . يقول تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) . فبركة القرآن فى اتباعه والعمل بما فيه ، والحكم بما أنزل الله فيه . ليست البركة فيه أن نعلّقه لافتات للزينة ، أو نقرأه على الموتى ، أو نجعل منه حجبًا للحبالى والأطفال . القرآن حرز للإنسانيّة كلّها من الضلال ، القرآن قد نزل ليحكم الأحياء لا ليقرأ على الأموات ، القرآن نزل ليطبّق فى المحاكم لا ليتلى فى المآتم ، القرآن دستور هذه الأمّة ، فينبغى أن نعود إليه ، لنتدبر آياته ، ونحسن فقهه ، ونحسن تطبيقه ، ونجعله لنا خُلقًا ، كما وصف النبى ﷺ بأنّ خلقه القرآن : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٣) .

أيها الإخوة المسلمون :

ما أجدرنا فى هذا الجمع الحاشد ، أن نتداعى جميعًا إلى العودة إلى الإسلام . . إلى القرآن . . إلى دين هذه الأمّة . لقد جرّبنا الأنظمة يمينيّة ويساريّة ، المستوردة من

---

(١) رواه الترمذى فى أبواب ثواب القرآن : باب ما جاء فى فضل القرآن ، حديث (٢٩٠٨) وقال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحارث - أى الأعور - مقال . وانظر (تفسير القرطبى : ١/ ٥) ط . دار إحياء التراث العربى ببيروت ، و(شرح العقيدة الطحاوية ص ٦) تحقيق شعيب الأرناؤوط. ومعنى الحديث صحيح وإن كان إسناده ضعيفًا .

(٢) الأنعام : ١٥٥ .

(٣) سورة ص : ٢٩ .

الشرق والمستوردة من الغرب ، جرّبنا هذه الحلول ، جرّبنا التسوّل من موائد الآخرين ، من هنا وهناك ، فماذا صنعت هذه الحلول المستوردة ، والأنظمة المتسوِّلة؟ إنَّها لم تجن علينا إلا الهزيمة ، والعار ، والنكسات ، والوكسات ، والتفكك الاجتماعى ، والاضطراب الاقتصادى ، والاستبداد السياسى ، والفساد الأخلاقى ، والتحلّل الأسرى ، وشكّ الإنسان فى أخيه ، وزعزعة الثقة بين الناس. ما حققنا نصرًا عسكريًا ولا رخاء اقتصاديًا ، ولا استقرارًا سياسيًا ، ولا ترابطًا اجتماعيًا ، ولا رقيًا أخلاقيًا ، ولا سموًا روحيًا . ماذا حققنا من وراء هذه المذاهب، وهذه الحلول المستوردة المتسوِّلة ؟ [(١)] .

إنّ حرامًا على الغنى أن يتسوّل . تسولّ الأغنياء أمر تعاقب عليه القوانين ، وتنكره الأخلاق ، ونحن أغنياء بمبادئنا الإسلامية ، بشريعتنا الربانية ، بمناهجنا المحمديّة ، بتراثنا العظيم ، فلماذا نستورد ؟! ولماذا نتسوّل ؟!

يا أيها الإخوة :

لنعد إلى قرآننا : النّور الإلهى ، وإلى سنّة نبيّنا : النّور النبوّى . الأنوار بجوارنا، لا ينقصنا إلا أن نضغط على الزرّ لتنيرُ الحياة من حولنا . أنوار فى كتاب الله ، وفى سنّة رسول الله ، والخلاص فى أن نعود مستمسكين بعرى التوحيد ، بمعنى لا إله إلا الله محمدّ رسول الله ، بمعنى أن نعود مسلمين كما كنّا ، مسلمين حقيقة لا بالأسماء ، ولا بالوراثة ، ولا بالوجود فى أرض الإسلام .

لا نريد مسلمين جغرافيين ، لا نريد مسلمين وراثيّين ، لا نريد مسلمين شكليّين ، إنّما نريد مسلمين مستعدين أن يبذلوا فى سبيل دينهم ، مستعدين أن يضحوا من أجل هذا الدين ، فكلّ أصحاب ملّة ، وكلّ أرباب نحلة يبذلون فى سبيل مللهم ، وفى سبيل نحلهم ، فما بالنا لا نضحى نحن فى سبيل الإسلام ؟!

---

(١) من أراد التوسع فى هذا فليرجع إلى كتاب (الحلول المستوردة وكيف جنت على امّتنا) للأستاذ القرضاوى .

يا أيها الإخوة المسلمون :

إنّ هذا الدين منصور ولا محالة ، ولكن إنما ينتصر بفضل الله ، وبالمؤمنين ، كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ . . . هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

إنّ عدد المسلمين فى العالم يقاربون - وربما يتجاوزون - البليون . . الألف مليون، ولكن العبرة ليست بالأعداد الوفيرة ، ولا بالجموع الغفيرة ، العبرة بالكيف لا بالكم ، يوم كان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، حققوا نصراً عظيمًا ، سمّى الله يومهم : (يوم الفرقان) ، فرّق فيه بين الحق والباطل ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣) .

يوم كانوا قلة مع الله ، يوم كانوا قلة مع الإسلام الحق ، نصرهم الله . ونحن الآن مئات الملايين ، ولكن ما قيمة هذه المئات الذين تجمعهم زمّارة وتفرقهم عصا؟! ما قيمة آلاف وملايين إذا كانوا كما قال القائل :

يزحمون الأرض من كثرتهم   ثم لا يغنون فى أمر جلل ؟!

ما قيمة الملايين ومئات الملايين إذا كانوا على غير ما وُصف الأنصار رضى الله عنهم : يكثرون عند الفزع ، ويقلّون عند الطمع ؟! ما قيمةَ هذه الملايين إذا كانوا كما وصفهم النبىّ عليه الصلاة والسلام - وصف مسلمى آخر الزمان - بأنهم كثرة كغثاء السيل ؟! (٤) الغثاء : هو القّش والحطب والورق والرغاوى والأشياء الخفيفة التى يحملها السيل ، فهذه تذهب جفاء ولا تنفع الناس ﴿ . .فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ . . . ﴾ (٥) .

---

(١) الأنفال : ٦٢ .   (٢) آل عمران : ١٢٣ .   (٣) الأنفال : ٢٦ .

(٤) عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل : يا رسول الله ومن قلة يومئذ ؟ قال : لا بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، ولتعرفنّ [فى أبو داود : وليقذفنّ الله] فى قلوبكم الوهن . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حبّ الدنيا وكراهية الموت » أخرجه أبو داود وأحمد (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٥/١٦ ، الحديث ٤٢٢٤) .

(٥) الرعد : ١٧ .

ما قيمة هذه المئات من الملايين إذا كانت كما قال الشاعر قديمًا :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلّهـــم　　الله يعلم أنّى لم أقل فنـــدا !
إنّى لأفتح عينى حين أفتحهـــا　　على كثير ولكن لا أرى أحدًا !

إنّ هذا الجمع الذى لا أرى آخره على مدّ بصرى فى هذه الساحة ، هذا الجمع الذى احتشد لله ، لا ليهتف لفلان أو لعلان ، إنّما ليهتف بهذه الصيحة : الله أكبر، الله أكبر ، هذا الجمع جدير أن يصنع شيئًا ، إذا خرجنا من هنا وقد عقدنا مع الله صلحًا ، أن نكون لله ، أن نكون لدين الله ، أن يستمر نشاطنا بعد رمضان ، كما كان فى رمضان أو قريبًا مما كان فى رمضان . إذا خرجنا من هنا بتوبة نصوح ، بنية صالحة بعزيمة صادقة ، بعقد نعقده مع الله ، لننفذّ الصفقة التى عقدها الله معنا ، الصفقة التى بعنا نحن فيها لله واشترى الله منّا ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . . ﴾ (١) يقول الحسن البصرى : ما أعظم فضل الله ، اشترى منا أنفسًا هو الذى خلقها ، وأموالاً هو الذى رزقها ، ثم أعطى ثمنًا غاليًا هو جنّة عرضها السماوات والأرض .

نقّدوا ، سلّموا لله الثمن يسلّمكم المبيع ، يسلّمكم جنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يا أيّها الإخوة المسلمون :

ما أجدرنا أن نصطلح على الله ، وأن نخرج من هذا المكان بعزم على نصرة الإسلام ، ولنا فى ذلك أعظم الأجر . فقد روى أنّ النبى ﷺ قال لجماعة من أصحابه يومًا : « أى الخلق أعجب إليكم إيمانًا ؟ قالوا : الملائكة . قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟! [لا شهوات ولا غرائز ولا مغريات بالشر ولا معوّقات عن الخير ولا ملاهى ولا مراقص ولا سينمات ولا أجهزة إعلام ولا ولا] قالوا : فالنبيّون . قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟! قالوا : فنحن . قال :

---

(١) التوبة : ١١١ . وتتمتها : ﴿ . . . يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ .

وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟! فقال رسول الله ﷺ : ألا إنّ أعجب الخلق إلىّ إيمانًا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفًا فيها كتاب يؤمنون بما فيها » (١) .

وفى حديث آخر : أنّه ﷺ سئل من بعض أصحابه : هل من قوم أعظم منّا أجرًا ؟ آمنّا بك واتبعناك . قال : « ما يمنعكم من ذلك ، ورسول الله بين أظهركم ، يأتيكم بالوحى من السماء ؟ بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه ، أولئك أعظم منكم أجرًا » (٢) مرتين .

كتاب بين لوحين ، أى مصحف بين دفتين ، اتخذوه إمامًا لهم ومنهاجًا لحياتهم. إنّهم الذين يؤمنون بالغيب ، يؤمنون برسول الله ولم يروه ، يؤمنون بالمصحف ولم يروا جبريل يتنزّل روّاحًا غدّاء بآيات الله ، لم يروا الملائكة تنزل فى بدر ولا فى الخندق ولا فى حنين « يؤمنون به ويعملون بما فيه » إيمان وعمل ، ولا خير فى إيمان بلا عمل .

إنّ مثل هؤلاء يمكن أن يكونوا أعظم أجرًا من كثير من الصحابة ، بمن ليسوا من السابقين الأولين ،ولا من أهل بدر وأهل أحد ، وأهل بيعة الرضوان وأمثالهم .

فيا أيها الإخوة ، كونوا أنصار الله ، وأتباع رسول الله ، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . وكونوا أنتم هذه الفئة المرجوّة لنصر دين الله ، فإن لم تفعلوا ﴿. . .فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره : رواه الحسن بن عرفة العبدى من طريق المغيرة بن قيس التميمى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ونقل عن أبى حاتم الرازى : أنّ المغيرة منكر الحديث . قال ابن كثير : ولكن قد روى أبو يعلى فى مسنده وابن مردويه فى تفسيره ، والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ، عن النبى ﷺ بمثله أو نحوه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعًا . والله أعلم (تفسير ابن كثير : ١/٤١ - ٤٢) ط . الحلبى .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن مردويه من حديث أبى جمعة الأنصارى (١/٤١) قال: وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التى اختلف فيها أهل الحديث . وذكر قبله حديث أبى عبيدة الذى رواه أحمد .

(٣) المائدة : ٥٤ . وأولها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ . . . ﴾ .

أيها الإخوة المسلمون :

قبل أن أغادر مقامى هذا ، أريد أن أنبّه إلى أمرين :

أولاً : أريد أن تعلموا أنّ هذا الجمع ، وهذا المهرجان الضخم ، إنّما قام بجهود الشباب ، وعلى أكتافهم ، وبنفقاتهم ، ولا بدّ لهم من معاونة حتى يستمروا فى هذا النشاط ، داخل الجامعة وخارجها . ولهذا أدعوكم إلى أن تبذلوا لهم ، وتعاونوهم بما استطعتم ، وليس بالكثير أن نبذل بعض المال لأجل ديننا . لا بدّ أن نبذل لنصرة ديننا ، ونبذل بسخاء ، ولا نستمع لصيحات أولئك المثبّطين ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [١] .

أنفقوا وابذلوا ﴿ . . وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[٢] وقد كان النبى ﷺ يدعو الرجال والنساء إلىّ الصدقة فى يوم العيد [٣] ، فهذا يوم مبارك ويوم عظيم .

هذا أمر ، والأمر الثانى : من السنّة من جاء من طريق فليرجع من طريق آخر[٤] . وممّا عرف عن السلف أنهم كانوا فى يوم العيد ، إذا هنأ بعضهم بعضًا

(١) المنافقون : ٧ . (٢) سبأ : ٣٩ .

(٣) عن عطاء بن أبى رباح قال : سمعت ابن عباس يقول : أشهد على رسول الله ﷺ أنه صلى قبل الخطبة يوم العيد ، ثم خطب ، فرأى أنه لم يسمع النساء ، فأتاهن ، فذكّرهنّ ووعظهنّ ، وأمرهن بالصدقة ، ومعه بلال قائلٌ بثوبه هكذا ، فجعلت المرأة تلقى الخرص والشيء حديث متفق على صحته . والخرص : القُرط ، وهو الحلقة الصغيرة من الحلى . وفى حديث أبى سعيد المتفق عليه « . . . وكان يقول : تصدّقوا ، تصدّقوا ، تصدّقوا ، وكان أكثر من يتصدّق النساء . . . » (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ج ٤ ، الحديثان ١١٠٢ ، ١٠٩٩) .

(٤) عن جابر رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق » رواه البخارى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا خرج إلى العيد يرجع فى غير الطريق الذى خرج فيه » رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى . واختلف فى وجه الحكمة فى ذلك ، فقيل : ليسلّم على أهل الطريقين ، وقيل : ليشهد له الطريقان ، وقيل : لإظهار شعار الإسلام فيهما ، وقيل : لإظهار ذكر الله تعالى ، وقيل : ليغبط المنافقين واليهود ، وقيل غير ذلك .

انظر (نيل الأوطار : ٣/٣٥٧ - ٣٥٩) و(سبل السلام : ٢/١٢١) .

قالوا : تقبّل الله منّا ومنكم . ومن السنّة التواصل والتزاور فى هذا اليوم ، ولم يرد زيارة الأموات والمقابر فى هذا اليوم ، فاحرصوا على إحياء سنّة رسول الله ﷺ .

وإنى داع فأمنوا :

اللهمّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات. اللهمّ افتح لنا فتحًا مبينًا ، واهدنا صراطًا مستقيمًا ، وانصرنا نصرًا عزيزًا، وأتم علينا نعمتك ، وانشر علينا رحمتك ، وأنزل فى قلوبنا سكينتك . اللهم تقبلنا فى جندك الصادقين ، وحزبك الغالبين ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين. اللهمّ اعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن، واجعل كلمة المسلمين هى العليا ، واجعل كلمة أعدائهم هى السفلى . اللهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك . اللهمّ أهلّ هلال هذا العيد علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى . اللهمّ تقبل صيامنا ، وقيامنا ، وصالح أعمالنا ، وأخرجنا من هذا الموسم برحمة ومغفرة وعتق من النار .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) « ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٢)

﴿ . . . رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٣)

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

وصلّى الله وسلّم على سيدّنا محمد وعلى آله وصحبه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) كان من دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام الذى سجله القرآن : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

(٣) الفرقان : ٧٤ . (٤) الحشر : ١٠ . (٥) النحل : ٩٠ .

خطبة عيد الأضحى

ألقيت فى ميدان عابدين بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

هذا يوم العيد ، هذا يوم التكبير (١) ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

نحن المسلمين بالتكبير نزيّن الأعياد ، بالتكبير نصنع الأمجاد ، بالتكبير نبدأ الصلاة ، بالتكبير نبدأ الأذان ، بالتكبير نبدأ الإقامة ، بالتكبير نبدأ المعارك ، بالتكبير نبدأ الحياة ! إذا ولد المولود منّا أذّنّا فى أُذنه : الله أكبر ، وإذا قمنا للصلاة قلنا : الله أكبر ، وإذا ذبحنا أو نحرنا قلنا : بسم الله والله أكبر . نحن المهلّلون المكبرون ، نحن المسلمين تعلّمنا أن يكون شعارنا : الله أكبر .

(الله أكبر) بها نرعب الأعداء فى الحروب (الله أكبر) بها نقتحم الأحداث والخطوب . فى يوم بدر انتصرنا لأنّ شعارنا كان : الله أكبر . فى يوم عين جالوت كان شعارنا : الله أكبر . فى يوم العاشر من رمضان تحقق لنا النصر لأننا جعلنا شعارنا : الله أكبر (٢) .

---

(١) ذهب الجمهور إلى أنّ التكبير فى عيد الأضحى سنة مؤكدة ، وابتداؤه من فجر يوم عرفة (التاسع من ذى الحجة) وانتهاؤه مع عصر آخر أيام التشريق .

(٢) انظر هزيمة يونيو ١٩٦٧ . ، وانظر للعاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ . فى (٦٧) كانوا يقولون : ومدفعنا يتحدى القدر . وهذا المدفع لم يفعلوا به شيئًا ، بل تركوه غنيمة لليهود، وأما فى العاشر من رمضان فحينما نادى المنادى : الله أكبر ، هبّت على الجنود والناس نفحات رمضان ، وكان العبور واقتحام خط بارليف ، حيث حطمت أسطورة القوة التى لا تقهر، وأخذنا من النصر على قدر ما كان عندنا من إيمان ، ولو كان عندنا إيمان أكبر لكنّا =

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ولله الحمد .

أيها الإخوة المسلمون :

(الله أكبر) ليست كلمة تقال ، وليست مجردّ شعار يرفع ، إنّما (الله أكبر) معناها يا أخى المسلم : أن تكون الدنيا كلها فى عينك صغيرة فى جنب الله عزّ وجلّ. إذا عرض عليك المال ، أو عرض عليك الجاه ، أو عرضت عليك الدنيا مجتمعة ، لتتنازل عن دينك ، استمسكت بدينك وقلت : الله أكبر . الله أكبر من المال والثروة، الله أكبر من الجاه والمنصب ، الله أكبر من المتع والشهوات ، الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

أيها الإخوة المسلمون :

نحن فى عيد الأضحى ، ولنا نحن المسلمين عيدان . حينما « قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذا اليومان ؟ قالوا : كنّا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما : يوم الأضحى ، ويوم الفطر » (١) .

وقد شاء الله لنا نحن المسلمين أن تكون أعيادنا عقب فرائض وعبادات كبرى ، فعيد الفطر بعد عبادة الصيام ، بعد أن تجوع البطون ، وتظمأ الشفاه لله ، ويدع الإنسان طعامه من أجل الله ، وشرابه من أجل الله ، وشهوته من أجل الله ، وزوجته من أجل الله ، يأتيه العيد (جائزة) من الله تعالى ، بعد هذه المشقة فى سبيل الله ، و«للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربّه فرح بصومه » (٢).

= توسعّنا وتوغلنا أكثر ، إنّما على قدر إيماننا أخذنا : اعطنى إيمانًا أعطيك نصرًا (من كلام الشيخ القرضاوى فى كتابه قضايا إسلامية على بساط البحث ص : ١٢٢) وانظر : كتابه « درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا وكيف ننتصر ؟ » .

(١) رواه أبو داود بهذا اللفظ عن أنس ، ورواه أحمد والنسائى . وهذا إسناد على شرط مسلم (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية) ص ١٨٤ ، ط . دار المعرفة ببيروت .

(٢) رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٣٠٧/١ ، الحديث ٥٠٥) .

ويأتى عيد الأضحى عقب الحج ، فهو يوم الحج الأكبر ، بعد أن يقف الحجاج فى عرفات ، متجردين لله تعالى من مظاهر الدنيا ، لابسين ثيابًا بيضاء ، أشبه ما تكون بأكفان الموتى ، قد تساوَوْا صغيرهم وكبيرهم ، أميرهم وخفيرهم ، غنيهمّ وفقيرهم، تجرّدوا وتساووا أمام الله ، لبّوا نداء الله ، نداؤهم واحد ، دينهم واحد ، ربهم واحد ، نبيّهم واحد ، كتابهم واحد ، حداؤهم واحد : لبيّك اللهم لبيّك ، لبيّك لا شريك لك لبيّك ، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

هناك يتجلّى الله تعالى على عباده ، يباهى بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول للملائكة : « انظروا إلى عبادى ، أتونى شعثًا ، غبرًا ، ضاحين - أى متعرّضين لحرارة الشمس - من كل فجّ عميق ، أشهدكم أنّى قد غفرت لهم . . . » (١) .

الحج يأتى بعده العيد الأكبر : عيد الأضحى ، والصيام يأتى بعده عيد الفطر. أعيادنا بعد عبادات وبعد فرائض وشعائر تقام لله .

ولهذا فإن لأعيادنا نحن المسلمين خصائص :

أعيادنا أعياد ربانيّة : ليس يوم العيد عندنا يوم (كاس وطاس) ، ولا يوم انفلات للشهوات ، أو جرى وراء الملذات ، إنّ أعيادنا تبدأ بالتكبير ، تبدأ بـ (الله أكبر) ، تبدأ بالصلاة . أعيادنا أعيادًا ربانّية ، أعيادًا موصولة الحبال بالله تبارك وتعالى .

وهى كذلك أعياد إنسانية : لأنّ المعانى الإنسانية تتجلّى فيها أعظم التجلّى . لا يريد الإسلام للمسلم أن يفرح بالعيد وحده ، فليس منّا من أكل وحده ، وليس منّا من عاش لنفسه .

فى عيد الفطر شرع الإسلام زكاة الفطر ، « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر

---

(١) رواه أبو يعلى ، والبزار ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى واللفظ له، من حديث جابر رضى الله عنه ، ونصّه كاملاً : « إذا كان يوم عرفة ، فإنّ الله تبارك وتعالى يباهى بهم الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شُعْثًا غُبرًا ضاحين من كل فج عميق ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فتقول الملائكة : إن فيهم فلانًا مُرهقًا وفلانًا ! قال : يقول الله عز وجل : قد غفرت لهم » والمرهق : هو الذى يغشى المحارم ، ويرتكب المفاسد . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٥٢ ، والحديث ٦١٢) .

طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمه للمساكين » [1] ، فرضها على كل صغير وكبير ، ذكر أو أنثى ، حرّ أو عبد من المسلمين [2] ، وقال : « أغنوهم عن الطواف فى هذا اليوم » [3] . بدل أن يطوف المسكين ويسأل الغنى ، فإنّ الغنى يبحث عنه ، ويسأل ويطوف ، ويذهب إلى داره ليعطيه زكاة الفطر ، لتعمّ الفرحة ، ويعمّ السرور الجميع .

وكذلك فى عيد الأضحى ، شرع الإسلام (الأضحية) [4] ليوسعّ الإنسان على أهله ، ويوسعّ الإنسان على أحبائه وجيرانه ، ويوسّع على فقراء المسلمين . هكذا

---

(١) رواه أبو داود وسكت عليه هو والمنذرى ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ، ووافقه الذهبى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وتتمته : « فمن أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٣٣١ ، الحديث ٥٧١) وانظر أيضًا (فقه الزكاة للقرضاوى ، ٢/٩٢١ -٩٢٢) ط . مؤسسة الرسالة ببيروت .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعًا من تمر ، أو صاعًا من شعير على الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمرنا أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة » متفق على صحته (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٦/٧١ ، برقم ١٥٩٤) .

(٣) تقدم تخريجه فى ص (٢٤٤) .

(٤) الأصل فى مشروعيتهما الكتاب والسنة والإجماع . أمّا الكتاب فقوله سبحانه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] قال بعض أهل التفسير : المراد به الأضحية بعد صلاة العيد . وأما السنة فلأحاديث منها حديث أنس المتفق عليه : « أنّ النبىّ ﷺ كان يضحى بكبشين أملحين أقرنين ، يطأ على صفاحهما ، ويذبحهما بيده ، ويقول : بسم الله والله أكبر (شرح السنة للبغوى : ٤/٣٣٤ ، برقم ١١١٩) وأجمع المسلمون على شرعيتها . وذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والفقهاء إلى أنها سنة مؤكدة . وذهب أبو حنيفة إلى أنها واجبة على أهل اليسار . ووقتها من بعد صلاة العيد فلا تجزىء قبله ، ويمتد إلى غروب الشمس من آخر أيام التشريق ، وهو قول الحسن وعطاء ، وبه قال الشافعى . وذهب جماعة إلى أن وقت الأضحية يوم النحر ويومان بعده ، وبه قال مالك وأحمد ، وإليه ذهب أصحاب الرأى . وتجزىء الشاة (من الضأن أو المعز) عن الواحد (أى عن الرجل وأهل بيته) . أمّا الإبل والبقر فتكفى الواحدة عن سبعة .

ينبغى أن توزّع الأضحية أثلاثًا : ثلث لنفسه وأهله ، وثلث يهدى منه جيرانه وأصدقاءه ، وثلث للفقراء . وإذا كان أكثر من الثلث للفقراء فقد أحسن .

وليس لفقراء المسلمين فقط ، بل إنّ التسامح الإسلامى شمل المسلمين وغير المسلمين . روى أبو داود والترمذى أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص ذبحت له شاة فى أهله ، فلمّا جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ أهديتم لجارنا اليهودى ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [1] أى يورث الجار من الجار ، كما يرث القريب من القريب .

أيّها الإخوة :

هذا هو الإسلام . ليس من الإسلام أن تأكل وحدك ، أن تجمع على مائدتك من الأطعمة أطيبها ، ومن الأشربة أعذبها ، وأن تلبس من الثياب أحسنها ، وبجوارك أخ لك أو قريب ، أو جار ، لا يجد ما يمسك الرمق ، أو يطفىء الحرق ، يئن من الجوع أنين الملسوع . ليس هذا من الإسلام ، برىء من ذلك محمد ﷺ فقال : «ما آمن بى - وفى رواية : ليس المؤمن - من بات شبعانًا ، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » [2] أى ليس بمؤمن من عاش لنفسه ولم يعش لإخوانه ، ولم يعش لمجتمعه ، هذا هو الإسلام قبل أن تعرف الدنيا المذاهب المستوردة من هنا وهناك .

أيّها الإخوة :

هذا التجمعّ المؤمن علام يدلّ ؟ إنّى أنظر مدّ البصر ، فلا أكاد أرى له آخرًا .

---

(١) رواه الترمذى - واللفظ له - فى كتاب البرّ والصلة من سننه برقم (١٩٤٤) ورواه أبو داود فى كتاب الأدب برقم (٥١٥٢) كما رواه البخارى فى الأدب المفرد برقم (١٠٥) . وانظر : فصل (تسامح فريد) من كتاب (غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى) للأستاذ القرضاوى .

(٢) رواه الطبرانى ، والبزار ، وحسنّه المنذرى ، وكذا قال الهيثمى : إسناد البزار حسن . ونص الرواية الثانية التى أشار إليها الشيخ : « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع » روا الطبرانى ، وأبو يعلى ، ورواته ثقات ، ونحوه قال الهيثمى ، ورواه الحاكم من حديث عائشة. ولفظه : « ليس المؤمن الذى يبيت شبعانًا ، وجاره جائع إلى جنبه » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٦٩١/٢ ، الحديثان ١٥٣٠ ، ١٥٣١) .

علام يدل هذا التجمع الذى دعا إليه فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ؟ إنّه يدلّ على وجه مصر الحقيقى . هذا هو وجه مصر ، من أراد أن يعرف هذا البلد ، فليعرفه هنا . ليس الذين يجلسون فى البارات ، أو فى الكباريهات ، أو يجلسون حول الموائد الخضراء ، أو فى الليالى الحمراء ، ليسوا هؤلاء ممثلى مصر .

إنّ وجه مصر هو هنا وليس فى شارع الهرم وملاهيه ! مصر مسلمة ، مصر مؤمنة، وهذا ماينبغى أن يُعرَّف لطوائف من الناس جهلوا هذه الحقيقة .

أول هذه الطوائف : طائفة الماركسييّن ، طائفة الذين يريدونها إلحادية ، يريدونها ماديّة جدليّة . الذين يقولون : لا إله والحياة مادة ، الذين يزعمون أنّ (الدين أفيون الشعوب) (١) .

هذا هو الدين محرك الجماهير ، هذا هو الدين مصدر القوة ، لم تستند هذه الأمة إلى الدين يومًا وأخفقت أو هُزمت .

يوم صاح الصائح فى عين جالوت ، صاح فى جنود مصر : واإسلاماه ، واإسلاماه ، قالها قطز قائد معركة عين جالوت ، ورمى خوذته ، هناك حرّك الكامن، وهاج الساكن ، وأقبل المتردّد ، وتشجع الجبان ، وكان النصر على التتار .

يوم استندت هذه الأمة إلى معانى الإيمان فى العاشر من رمضان وصاحت : الله أكبر ، انتصرت .

فى سنة (١٩٦٧ م) يوم دخلوا المعركة بعيدين عن الله ، ناسين ، يقولون للجنود: معكم الممثلّ الفلانى والممثلّة الفلانية ، وتوزع عليهم صور المطربات والممثلين بدل أن يوزّع المصحف .. أن يوزّع القرآن ، كانت النتيجة ما عرفناه من العار ، والهزيمة ، والنكسة ، والوكسة .

الدين ليس أفيونًا ، الدين ليس مخدرًا ، إن صحّ هذا فى دين من الأديان فلن يصحّ فى الإسلام .

---

(١) للأستاذ العقاد رحمه الله كتاب بعنوان : (أفيون الشعوب) ، فنّد فيه هذه المقولة الزائفة ، وأكدّ انّ هذا الوصف هو آخر ما يمكن أن ينطبق على الدين ، وأوّل وصف ينطبق على مذهب (ماركس) بجميع معانيه .

الإسلام دين القوة ، الإسلام هو مصدر العزة والقوة . . مصدر التحريك لهذه الأمة .

لا يحرك هذه الأمة شيء كالإسلام ، لا يحركها وطنية ، أو قومية ، أو عروبة ، أو فرعونية ، إنّما يحركها : الله أكبر ، إنما يحركها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إنما يحركها أن ينادى المنادى : يا خيل الله اركبى ، ويا ريح الجنة هبى ! هنالك نرى هذه الأمة حقيقة واقعية ، لا دعوى تدعى .

إن الشيوعيين الذين يريدون هذا البلد شيوعيًا واهمون مخطئون . لن تكفر مصر، لن ترتد عن إسلامها ، لن ترجع عن دينها . هؤلاء غرباء عن هذا البلد ، غرباء عن مصر . مصر مسلمة مؤمنة .

أمّا الذين يقولون : إنّ الله لم يخلق الإنسان ، ولكن الإنسان هو الذى خلق الله، فهؤلاء الماديون . . . الملحدون . . الشيوعيون ، لا مكان لهم فى بلدنا ، البلد المسلم . . الشعب المؤمن .

ثم هناك طائفة أخرى على النقيض من هؤلاء ، ولكنهم جهلوا مصر أيضًا . إنّها طائفة غفلت عن حقيقة هذه الأمة . غرّهم ظاهر المنكرات التى يرونها فى الشوارع، وفى الأجهزة التى تبثّ الفساد ، غرّهم هذا فظنّوا أنّ هذا الشعب قد كفر . كفروا الناس بالجملة ، كفروا المجتمع بغير تمييز ولا تفصيل ، هؤلاء أخطأوا .

هذه الأمة لم تكفر بربها ، ولا بقرآنها ، ولا بمحمدّها عليه الصلاة والسلام . هذا الشعب مسلم ، قد يتراكم عليه غبار المعصية ، قد يعتريه الصدأ من كثرة التوجيهات المضللة الفاسدة المفسدة من هنا وهناك . ولكن إذا أزلت هذا الغبار ، إذا حككت هذا الصدأ ، تبيّن لك المعدن الحقيقى ، تبيّن لك الجوهر الأصيل . معدن هذه الأمة هو الإسلام ، الخامة الأصليّة لهذه الأمّة ، هى الإسلام ، أرضيّة هذه الأمة هى الإسلام ، فليعلم ذلك الغلاة المتطرفون [1] .

---

(١) للأستاذ القرضاوى رسالة مركزة نافعة بعنوان : (ظاهرة الغلو فى التكفير) . ضمنّها ثمانى قواعد جامعة ، وبين من خلالها مدى الخطأ الجسيم الذى سقط فيه هؤلاء الذين أسرفوا فى التكفير .

وفئة ثالثة أذكرها بهذا الجمع . إنها فئة العلمانيين ، الذين يريدون أن يفصلوا بين العقيدة والشريعة ، أو بين الدين والدولة ، الذين يريدونها دولة لا دين لها ، أو دينًا لا دولة له . لا ، أخطأتم أيها العلمانيون ، هذه الأمة تريد أن تحكم وفق عقيدتها .

إنّ هذا الصراع وهذا التناقض الذى يحس به المسلم فى حياته ، يجب أن يزول . المسلم يحسّ فى أعماقه أنه مؤمن بالله ، مؤمن بالإسلام ، مؤمن بالقرآن ، رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن منهاجًا وإمامًا .

هذا المسلم يحس أنه يحكم ويقاد فى كثير من الأوضاع والمفاهيم والقوانين والتقاليد بغير الإسلام ، وبغير شريعة الإسلام . ولهذا يجب أن تتعالى الأصوات فى كل مكان ، تنادى بشريعة الإسلام ، تنادى بحكم القرآن ، يجب أن يكون ذلك فى كل مكان .

وأحب أن أقول هنا شيئًا : ماذا نريد بشريعة الإسلام ؟ إنّ بعض الناس يظن أن مجردّ تعديل القوانين يقيم شريعة الإسلام ، وأنّ مجرد تطبيق الحدود يقيم مجتمع الإسلام ، وأمة الإسلام .

لا . الإسلام أيها المسلمون : فلسفة حياة ، ونظام حياة . نظام يصحب الفرد من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة ، بل ربما صحبة قبل الميلاد وبعد الوفاة .

فإن فى الإسلام أحكامًا تتعلق بالجنين فى بطن أمه ، وأحكامًا تتعلّق بالميت بعد موته : أحكام الغسل والتكفين والصلاة والدفن وتقسيم التركة وغير ذلك .

الإسلام يصحب الإنسان فى رحلة الحياة كلها ، كما يصحبه فى مجالات الحياة كلها : فى المسجد ، والبيت ، والمزرعة ، والمصنع ، والمدرسة ، والمحكمة ، والطريق . . إنه يهيىء للإنسان حياة إسلامية متكاملة ، توجهها العقيدة ، وتضبطها القيم ، وتحكمها الشريعة فى كل شىء . من قضاء الحاجة إلى نظام الخلافة ، من أدب المائدة إلى بناء الدولة ، يعلمّك كيف تأكل وكيف تشرب « سمّ الله وكل بيمينك، وكل مّما يليك » (١) « ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما (رياض الصالحين) .

فى صحافها »[١] ولا بملعقة من فضة أو ذهب ، و. . و. . كما يعلمك كيف تحكم ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ . . . ﴾[٢] ﴿ . . . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[٣] .

فإذا أردنا أن نحكم الإسلام ، فلا بد أن يتغير المجتمع كله إلى الإسلام . تتغير الأفكار والمفاهيم ، تتغير القيم والأخلاق ، تتغير العادات والتقاليد ، تتغير العواطف والمشاعر ، تتغير الأنظمة والشرائع والقوانين ، وتتغير الثقافة والإعلام ، تتغير التربية والتعليم . نريد تشريعًا إسلاميًا . . تربية إسلامية . . إعلامًا إسلاميًا . . ثقافة إسلامية . . توجيهًا إسلاميًا فى كل مكان ، هذا ما نريده إذا أردنا أن نحكم الإسلام، ونقيم المجتمع المسلم حقًا[٤] .

يا أيها الإخوة المسلمون :

إنّ الإسلام دين عظيم . إنّ الله منّ علينا بهذا الدين ، وهو أفضل دين . منّ الله علينا بأكرم نبىّ أرسل ، وأعظم كتاب أنزل ، منّ علينا بالقرآن ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأنعم علينا بالإسلام ﴿ . . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . . . ﴾[٥] ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[٦] .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه . ونصه كاملاً : « لا تلبسوا الحرير ، ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٩٨ ، الحديث ١٢٣٧). وانظر فى حكم تحريم هذه الأشياء المذكورة وحكمته : كتاب (الحلال والحرام فى الإسلام) للأستاذ القرضاوى . فصل : (فى الملبس والزينة) و(فى البيت) .

(٢) المائدة : ٤٩ . (٣) المائدة : ٤٢ .

(٤) راجع فى هذا : كتاب (ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده) للأستاذ القرضاوى ، وفيه ذكر أحد عشر مقومًا للمجتمع المسلم المنشود ، وقد نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٥) المائدة : ٣ . (٦) التوبة : ٣٣ ، الصف : ٩ .

ولكن هل يعزّ الإسلام ، ويسود الإسلام ، ينتصر الإسلام وحده ؟ هل ينتصر الإسلام ويظهر على الدين كله بغير مسلمين ؟ هل يعزّ الإسلام بغير رجال ؟ لا ، إن الإسلام يحتاج إلى رجال ينصرونه ويعزّونه ، وينشرونه ، ويكونون مثلاً له فى الأرض ، مثلاً عملية يراهم الناس فيرون فيهم الإسلام . إذا سار أحدهم قالوا : أنظروا ، هذا هو الإسلام المجسّم ، هذا قرآن يسعى على قدمين، كما كان النبى ﷺ، وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم .

الإسلام عظيم ، ولكنه يحتاج إلى مسلمين عظماء يكافئون عظمته . إنّ الله تعالى يقول لرسوله : ﴿ .. هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) وبالمؤمنين .. لا بدّ من المؤمنين .

إنّ رجلاً أجنبيًا درس الإسلام ، فأعجب به ، وأعجب بتعاليمه ، فقال كلمة يجب أن نحفظها ونرويها ، لأنّها تقطع نياط القلوب . ماذا قال ؟ قال : ما أعظمه من دين لو كان له رجال !! دين عظيم ولكنّه فى حاجة إلى رجال عظماء ، دين قوى ولكنّه فى حاجة إلى رجال أقوياء .

فواعجبًا : إنّ عدد المسلمين فى العالم يقارب المليار ، وربّما يجاوز المليار ، نحو ألف مليون مسلم فى العالم ، كما تدلّ على ذلك الإحصائيات ، ولكن هؤلاء المنسوبين إليه ، المحسوبين عليه ، لا يمثلون الإسلام حقيقة التمثيل . إنّهم كما جاء فى الحديث : « غثاء كغثاء السيل » (٢) .

نريد قلة مؤمنة لا كثرة عاطلة . نريد الكيف قبل الكم ، لا نريد الكثرة الغثائية التى قال فيها الشاعر قديمًا :

إنّى لأفتح عينى حين أفتحهـــا ... على كثير ولكن لا أرى أحداً !

لا نريد أناسًا من هذا الصنف ، نريد مسلمين .. مسلمين حقيقيين ، الواحد منهم بألف ، وقد قال الشاعر :

والناس ألف منهم كواحـد ... وواحد كالألف إن أمر عنا

---

(١) الأنفال : ٦٢ .

(٢) من حديث ثوبان : وقد مرّ تخريجه فى ص (٢٥٤) .

وقال تعالى : ﴿ . . كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ . . . ﴾ (١) .

أيها المسلمون :

إنّ هذا التجمع يعرّفنا حقيقة أنفسنا ، لا نريد أن ننصرف لنلهو ونلعب ، ولكن نريد أن ننصرف لنتعاهد على نصرة الإسلام ، لنربى أنفسنا على الإسلام ، لنربّى أبناءنا وبناتنا على الإسلام ، لنربى أهلينا وزوجاتنا على الإسلام .

الإسلام أساس عزّنا فى الدنيا ، وأساس سعادتنا فى الآخرة . إذا أردنا العزة فى الدنيا ، فلا عزّة والله إلا بالإسلام .

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان فى طريقه إلى الشام ، وكان معه أبو عبيدة - رضى الله عنه - فقابلتهم مخاضة - فنزل عمر ليخوض هذه المخاضة ، وخلع نعليه ، وأمسك بهما كأىّ رجل عادى من الناس ، فانزعج أبو عبيدة وقال : يا أمير المؤمنين لو فعلت غير هذا الناس يرونك ، وأنت أمير المؤمنين وخليفة المسلمين. فماذا قال عمر ؟ قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، إنّا كنّا أذلّ قوم ، فأعزنّا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله .

أيها الإخوة :

لا عزة بغير الإسلام ﴿ . . . وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

إذا أردنا النصر على عدونا فلا نصر إلا بالإسلام . النصر لا يأتى بغير الإيمان ، ولا إيمان بغير الرجوع إلى الإسلام .

الإيمان هو الذى يصنع البطولات ، هو الذى يصنع الروائع ، الأسلحة وحدها لا تغنى ، السلاح لا يقاتل وحده ، إنما يقاتل بالرجل الذى يستخدمه ، وقديمًا قال المتنبى :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا   إذا لم يكن فوق الكرام كرام ؟

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .   (٢) المنافقون : ٨ .

خيل بغير خيّال ماذا تصنع ؟ وقال الطغرائى :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره   وليس يعمل إلا فى يدى بطل !

فى سنة (١٩٦٧ م) كانت عندنا دبابات تزن الواحدة منها (ستين) طنًا من أحدث طراز ، ولكن تركوها وهرولوا . . طلبوا الفرار ، ولم يكلف أحدهم خاطره أن يخربّها قبل أن يتركها ، وتسلمّها الأعداء لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، لماذا ؟ لأنّ كل واحد كان يقول : الفرار الفرار . . النجاة النجاة . . نفسى نفسى .

بالإيمان نستطيع أن نصنع الرجال الذين يكسبون حقوقهم بأيديهم بمثل هذا الإيمان هبتّ نفحة من نفحات رمضان ، فحققنا ما تحقق فى رمضان .

إذا أردنا العزة ، فلا عزة إلا بالإسلام . وإذا أردنا النصر ، فلا نصر إلا بالإسلام. وإذا أردنا الوحدة ، فلا وحدة إلا بالإسلام .

يريدون الوحدة العربية . كيف يتحد العرب إذا لم يكن منهجهم الإسلام ؟! إذا تركوا الإسلام تفرقوا إلى يمين ويسار ، واليمين درجات واليسار درجات . هناك يمين اليمين ، ووسط اليمين ، ويسار اليمين ، وهناك يسار اليسار ، ووسط اليسار ، ويمين اليسار . هناك من يتجه إلى موسكو ، وهناك من يتجه إلى بكين ، وهناك من يتجه إلى لندن ، وهناك من يتجه إلى واشنطن ، قبلات متعددة ، ووجهات متفرعة، سيفترق الجميع إذا لم يلتقوا على الإسلام .

الإسلام دين الأمة ، وهو الذى يوحد الجميع . يوحدّ قبلتهم ، ويوحد مشاعرهم، ويوحدّ أهدافهم ، ويوحدّ منهاجهم . إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . . . ﴾ (١). قال ابن مسعود رضى الله عنه (٢) : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًا - أى على الرمل- يرسم لهم بوسائل الإيضاح المتاحة - ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خطّ

(١) الأنعام : ١٥٣ .

(٢) إسناده حسن ، وأخرجه الإمام أحمد ، والطبرى ، والحاكم وصححه ، وأقرّه الذهبى (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١/١٩٦ - ١٩٧ ، الحديث ٩٧) .

خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، وقال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، وقرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ . . . ﴾ (١) .

أيها الإخوة المسلمون :

فى هذا اليوم . . فى هذا المهرجان الإسلامى . . فى هذا اليوم الربانى . . فى هذه الساحة التى التقت فيها الألوف وعشرات الألوف وربّما مئات الألوف . . فى هذه الساحة يجب أن نعرف أنفسنا ، يجب أن نكتشف أنفسنا ، نحن المسلمون قبل كل شىء ، مهما عرضت العوارض ، أو طرأت الطوارىء ، يجب أن نعرف أننا مسلمون ، ولا حياة لنا بغير الإسلام . وعلى هذا يجب أن نطبق الإسلام على أنفسنا ، ثم ندعو إليه العالم ، والعالم كله فى حاجة إلى الإسلام . البشرية المعذبة فى الأرض لم تنفعها الرأسمالية ولا الشيوعية ، ولن يجدوا دينًا ينقذهم من الجاهلية الحديثة . . . لن يجدوه إلا فى الإسلام .

ذهبت إلى أوربا وأمريكا ، فوجدت الناس يدخلون فى الإسلام كل يوم ، ويمكن أن ينتشر الإسلام أكثر وأكثر لولا سوء حال المسلمين .

إنهم ينظرون إلى الإسلام من خلال المسلمين ، ويقولون : إذا كان الإسلام يدعو إلى العلم ، فما بال المسلمين جهلاء ؟ إذا كان يدعو إلى التقدم ، فما بال المسلمين متخلّفين ؟ إذا كان يدعو إلى النظام ، فما هذه الفوضى فى حياة المسلمين ؟ إذا كان يدعو إلى النظافة ، فما بال بلاد المسلمين أقذر بلاد العالم ، إذا كان يدعو إلى الوحدة ، فما لكم متفرقين .

وأذكر حادثة أقولها لكم . رجل غربى دخل فى الإسلام ، اعتنق الإسلام عن طريق الكتب ، قرأ عن الإسلام فأعجب به ، وآمن بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً ، ولكنه بعد عدّة سنين أراد أن يقوى دينه بالحج إلى بيت الله الحرام. هناك ذهب إلى موسم الحج ، فرأى سوء حال المسلمين ، وسوء نظامهم ، ورأى الفوضى ، وعدم الأدب فى المعاملة ، وغير ذلك ، ممّا قرأ ضده فى كتب الإسلام ،

---

(١) الأنعام : ١٥٣ .

فماذا قال ؟ قال هذه الكلمة : الحمد لله الذى عرّفنى الإسلام قبل أن أعرف المسلمين!! .

نحن صورة سيئة للإسلام . لماذا يا مسلمون ؟ لماذا لا نعود إلى ديننا ؟ لماذا لا نكون مسلمين حقًا ؟ نعمل بالإسلام ، ونعمل للإسلام . لماذا لا نقف حياتنا وجهودنا على نصرة هذا الدين ؟

أى دين فى الدنيا وجد من يدعون إليه ، ويعملون له . حتى الشيوعية الباطلة وجدت لها أنصارًا ورجالاً ، الماسونية وجدت رجالاً ، اليهودية أقامت لها دولة فى قلب بلاد المسلمين ، النصرانية لها مبشّرون ومبشرّات بعشرات الألوف فى أنحاء العالم . كلّ مذهب له أهله وأنصاره ورجاله . فأين أنصار الإسلام ؟ أين رجال الإسلام ؟

كونوا أنتم رجال الإسلام ، كونوا أنصار الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ . . . ﴾ (١) .

يا أيها الإخوة :

كلمة أريد أن أختم بها . إن دعوتنا إلى الإسلام لا تحمل أى عدوان على أحد ، ولا تحمل أى تعصب ضد أحد . حينما ندعو إلى الإسلام ، إنّما ندعو إلى المُثل العليا ، إنّما ندعو إلى القيم الرفيعة التى جاء بها الأنبياء ، ونادت بها كل الرسالات. القيم والمثل التى نادى بها موسى وعيسى ، ونادى بها بعد ذلك خاتمهم محمد ﷺ .

فلنحرص جميعًا على الإسلام ، ولنعش بالإسلام ، ولنمت على الإسلام ، وليكن شعارنا : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الصف : ١٤ .

(٢) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، ويجعل غدنا خيرًا من يومنا ، ويحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، ويجيرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . اللهم اجعل هذا العيد بشير خير وبركة على المسلمين ، ونذير وبال وحسرة على الظلم والظالمين . اللهم أعد أمثاله على أمتنا الكبرى من المحيط إلى المحيط ، بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

أقول قولى هذا وأستغفر الله تعالى لى ولكم .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) .

وصيتى إلى الإخوة أن ينصرفوا فى هدوء مشكورين مأجورين ، ومن جاء من طريق فليرجع من طريق آخر . تهنئة المسلمين بعضهم لبعض : تقبل الله منّا ومنكم. زوروا بعضكم بعضًا ، وتواصلوا فيما بينكم ، فإن الصلة من أهداف الإسلام ، ومن مبادىء الإسلام .

وصلّى الله على محمّد وآله وصحبه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

(١) الحشر : ١٠ .

(٢) العصر : ١ - ٣ .

الفهرس

* * *



قائمة مؤلفات فضيلة الدكتور : يوسف عبد الله القرضاوى

١ - فى الفقه وأصوله :

- الحلال والحرام فى الإسلام .
- فتاوى معاصرة ج ١ .
- فتاوى معاصرة ج ٢ .
- تيسير الفقه : فقه الصيام .
- الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية
- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية.
- الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .
- الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
- من فقه الدولة فى الإسلام .
- نحو فقه ميسر معاصر .

٢ - فى الاقتصاد الإسلامى :

- فقه الزكاة - جزءان .
- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
- بيع المرابحة للآمر بالشراء .
- فوائد البنوك هى الربا الحرام .
- دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى.

٣ - فى علوم القرآن والسنة :

- الصبر فى القرآن .
- العقل والعلم فى القرآن .

دروس فى التفسير :

- تفسير سورة الرعد .
- كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟
- كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟

- بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمستغربين .

٩- نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام:

- شمول الإسلام .
- المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة .
- موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن الكهانة والتمائم والرقى .

١٠ - إسلاميات عامة :

- الإيمان والحياة .
- العبادة فى الإسلام .
- الخصائص العامة للإسلام .
- مدخل لمعرفة الإسلام .
- الإسلام حضارة الغد .
- الناس والحق .
- جيل النصر المنشود .
- درس النكبة الثانية .
- خطب الشيخ القرضاوى ج ١ .
- قضايا معاصرة على بساط البحث .
- قطوف دانية من الكتاب والسنة .
- لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر .

١١ - شخصيات إسلامية :

- الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
- الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن .
- نساء مؤمنات .

١٢ - فى الأدب والشعر :

- نفحات ولفحات - ديوان شعر .
- المسلمون قادمون - ديوان شعر .
- يوسف الصديق - مسرحية شعرية .
- عالم وطاغية - مسرحية تاريخية .

١٣ - رسائل ترشيد الصحوة:

- الدين فى عصر العلم .
- الإسلام والفن .
- مركز المرأة فى الحياة الإسلامية .
- فتاوى للمرأة المسلمة .
- نقاب المرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه .

- خطر الردة وعقوبة المرتد فى ضوء الكتاب والسنة .
- الأقليات الدينية والحل الإسلامى .
- المبشرات بانتصار الإسلام .
- ظاهرة الغلو فى التكفير .

١٤ - محاضرات الدكتور القرضاوى :

- لماذا الإسلام ؟
- الإسلام الذى ندعو إليه .
- واجب الشباب المسلم .
- مسلمة الغد .
- الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير.
- قيمة الإنسان وغاية وجوده فى الإسلام.
- لكى تنجح مؤسسة الزكاة فى التطبيق المعاصر .
- التربية عند الإمام الشاطبى .
- السنة والبدعة .
- مع المصطفى فى بيته .

* * *



مؤلفات فضيلة الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوى

● **فى الفقه وأصوله**
١ - الحلال والحرام فى الإسلام
٢ - فتاوى معاصرة ج١
٣ - فتاوى معاصرة ج٢
٤ - تيسير الفقه : فقه الصيام
٥ - الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية.
٦- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية
٧ - من فقه الدولة فى الإسلام.
٨ - نحو فقه ميسر معاصر.
٩ - الفتوى بين الانضباط والتسيب.
١٠ - عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية.
١١ - الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.
١٢ - الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.

● **فى الاقتصاد الإسلامى**
١ - فقه الزكاة (جزءان).
٢ - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.
٣ - بيع المرابحة للآمر بالشراء.
٤ - فوائد البنوك هى الربا الحرام.
٥ - دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى.

● **فى علوم القرآن والسنة**
١ - الصبر فى القرآن.
٢ - العقل والعلم فى القرآن الكريم
٣ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟
٤ - كيف نتعامل مع السنة النبوية؟
٥ - تفسير سورة الرعد؟
٦ - المدخل لدراسة السنة النبوية .
٧ - المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان).
٨ - السنة مصدرا للمعرفة والحضارة

● **عقائد الإسلام:**
١ - وجود الله
٢ - حقيقة التوحيد

● **فى تيسير فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة**
١ - الحياة الربانية والعلم
٢ - النية والإخلاص
٣ - التوكل.
٤ - التوبة إلى الله .

● **فى الدعوة والتربية:**
١ - ثقافة الداعية.
٢ - التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا.
٣ - الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً فى الدعوة والتربية
٤ - الرسول والعلم.
٥ - الوقت فى حياة المسلم.
٦ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد

● **فى ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية**
١ - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والأسلامى.
٢ - أين الخلل.
٣ - أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة.
٤ - فى فقه الأولويات.
٥ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.
٦ - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة.
٧ - ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده.
٨ - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.
٩ - شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان
١٠ - الأمة الإسلامية حقيقة لاوهم.
١١ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.
١٢ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

● **سلسلة : حتمية الحل الإسلامى**
١ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا .
٢ - الحل الإسلامى فريضة و ضرورة.
٣ - بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين.

● **نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام**
١ - شمول الإسلام.
٢ - المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة
٣ - موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى
٤ - السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

● **إسلاميات عامة**
١ - الإيمان والحياة.
٢ - العبادة فى الإسلام
٣ - الخصائص العامة للإسلام.
٤ - مدخل لمعرفة الإسلام.
٥ - الإسلام حضارة الغد.
٦ - الناس والحق.
٧ - جيل النصر المنشود.
٨ - درس النكبة الثانية.
٩ - خطب الشيخ القرضاوى ج١ .
١٠ - خطب الشيخ القرضاوى ج٢
١١ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر.
١٢ - قضايا معاصرة على بساط البحث.
١٣ - قطوف دانية من الكتاب والسنة.

● **شخصيات إسلامية**
١ - الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه.
٢ - الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن.
٣ - نساء مؤمنات.

● **فى الأدب والشعر**
١ - نفحات ولفحات - ديوان شعر.
٢ - المسلمون قادمون - ديوان شعر.
٣ - يوسف الصديق - مسرحية شعرية.
٤ - عالم وطاغية - مسرحية تاريخية.

● **رسائل ترشيد الصحوة**
١ - الدين فى عصر العلم.
٢ - الإسلام والفن.
٣ - النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه.
٤ - مركز المرأة فى الحياة الإسلامية.
٥ - فتاوى للمرأة المسلمة.
٦ - جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة.
٧ - الأقليات الدينية والحل الإسلامى.
٨ - المبشرات بانتصار الإسلام.
٩ - مستقبل الأصولية الإسلامية .
١٠ - القدس قضية كل مسلم .
١١ - ظاهرة الغلو فى التكفير .

● **محاضرات الدكتور القرضاوى :**
١ - لماذا الإسلام ؟
٢ - الإسلام الذى ندعو إليه .
٣ - واجب الشباب المسلم .
٤ - مسلمة الغد .
٥ - الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير
٦ - قيمة الإنسان وغاية وجوده فى الإسلام
٧ - لكى تنجح مؤسسة الزكاة فى التطبيق المعاصر .
٨ - التربية عند الإمام الشاطبى .
٩ - مع المصطفى فى بينه .
١٠- السنة والبدعة .
١١ - زواج المسيار - حقيقته وحكمه .
١٢- الضوابط الشرعية لبناء المساجد
١٣- موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى